دراسات إسلامية

— ٢ —

من تاريخ

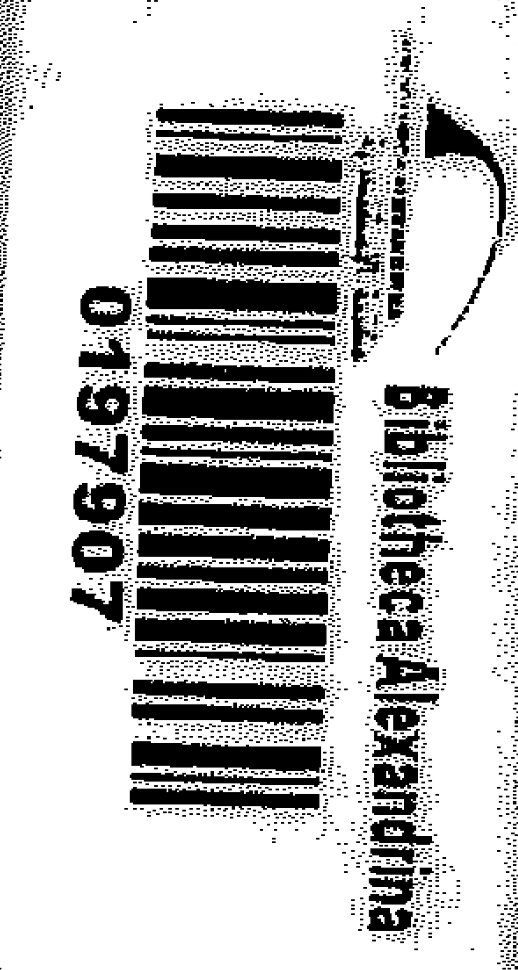
الإلحاد في الإسلام

دراسات

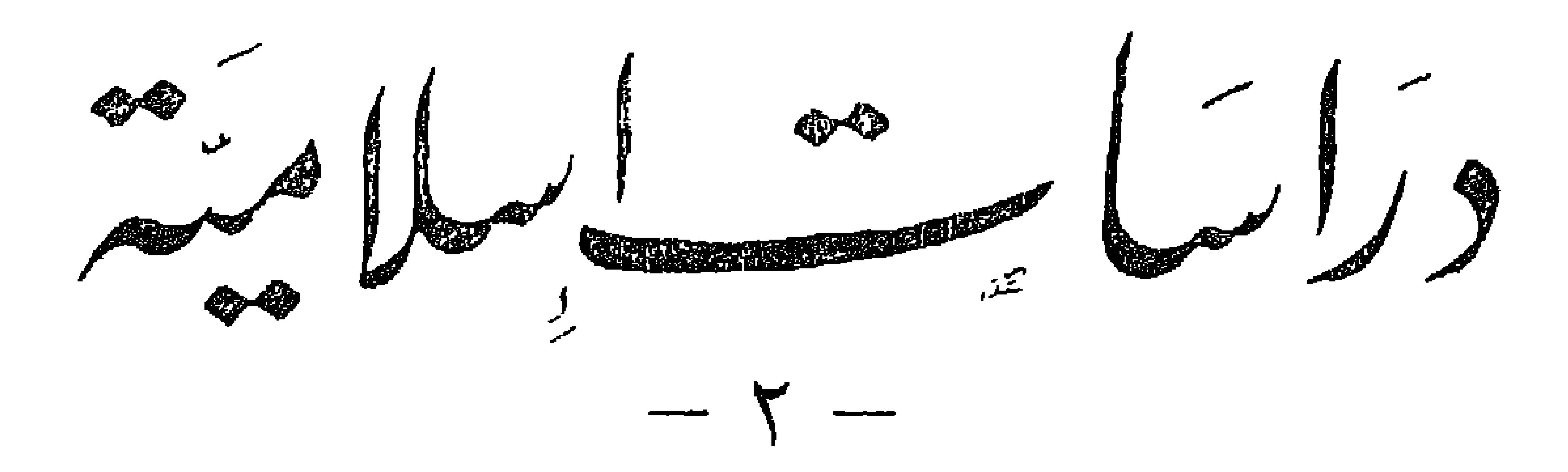
ألف بعضها وترجم الآخر

عبد الرحمن بدوي

الثمن ٢٥ ص



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا — القاهرة
١٩٤٥



— ٢ —

من تاريخ الإلحاد في الإسلام

دراسات
ألف بعضها وترجم الآخر

عبد الرحمن بدوي

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا — القاهرة
١٩٤٥

فهرس الكتاب

الصفحة

أرج الإلحاد

الصفحة

تصـــدير عام

ظاهرة الإلحاد من أخطر الظواهر فى تطور الحياة الروحية . وهى أيضاً ظاهرة ضرورية النشأة فى كل حضارة حينما تكون فى دور المدنية ؛ وإنما تختلف وفقاً لروح الحضارة التى انبثقت فيها . ذلك أن الإلحاد نتيجة لازمة لحالة النفس التى استنفدت كل إمكانياتها الدينية ، فلم يعد فى وسعها بعدُ أن تؤمن . وإذا كان الإلحاد الغربى بنزعته للديناميكيــة هو ذلك الذى عَبّر عنه نيتشه حين قال : « لقد مات الله » ؛ وإذا كان الإلحــاد اليونانى هو الذى يقول : « إن الآلهة المقيمين فى المكان المقدس قد ماتت » — فإن الإلحاد العربى — وهو الذى يعنينا هنا فى هذا الكتاب — هو الذى يقول : «لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء» . ذلك أن الإلحاد العربى كان لا بد أن يصدر عن الروح العربية ، وما تضمه هذه الروح من صلة ، فى تدينها الخاص، بين الله وبين العبد . فإنها لما كانت تنظر إلى هذه الصلة على أنها صلة افتراق وبُعْد كامل فقد وسطت بينهما الكلمة ، كلمة الله . وكلمة الله لا ترد عنه مباشرة لوجود الهوة الهائلة بين العبد والله ؛ بل بالوسيط ، وهو النبىّ : لهذا كان الأنبياء هم الذين يلعبون أخطر دور فى الحياة الدينية عنــد الروح العربية . ومن هنا نفهم كيف كان الأنبياء جميعاً من أبناء هــذه الروح وحدها . وإذاً فالدين والتدين عامة إنما يقوم على فكرة النبوة والأنبياء . وعلى هذا فإن الإلحاد لا بد أن يتجه إلى القضـاء على هذه الفكرة التى تكوّن عَصَب الدين وجوهره لدى تلك الروح . وهذا يفسر لنا السر فى أن الملحدين فى الروح العربية إنما اتجهوا جميعاً إلى فكرة النبوة وإلى

الأنبياء ، وتركو الألوهية ، بينما الإلحاد فى الحضارات الأخرى كان يتجه مباشرة إلى الله . ولا فارق فى الواقع فى النتيجة النهائية بين كلا الموقفين : لأن كليهما سيؤدى فى النهاية إلى إنكار الدين ؛ فبإنكار الإلـه عند اليونانى ينتفى التدين ، وبإنكار الإلـه اللامتناهى عند الغربى ينتفى الدين ، وبإنكار النبوة والأنبياء عند العربى تزول الأديان . لذا يجب أن نبصر المعنى الخفىّ المستتر وراء إنكار النبوة ، إذ لا بد أن نفسر هذا الإنكار على أنه يتعداها إلى الألوهية نفسها ، لأنه ما دامت النبوة هى السبيل الوحيد الذى تعرفه هذه الروح العربية للوصول إلى الألوهية ، فإنها بقطعها إياه قد قطعت فى الوقت نفسه كل سبيل إلى الألوهية كذلك .

ولقد كانت الروح العربية فى القرون الثانى والثالث والرابع للهجرة قد استنفدت كل قواها وإمكانياتها الدينية الخصبة التى كانت لها من قبل خصوصاً فى المسيحية واليهودية والمانوية والزرادشتية ثم الإسلام الذى توّج هذه الأديان كلها بأن أعطى أكمل صورة للدين قُدِّر لهذه الحضارة العربية بلوغها ؛ فكان لا مناص لها بعد هذا أن تنحدر من تلك القمة وتستفرغ إمكانياتها الدينية حتى تغيض عنها موارد التدين جملة ، وهذا ما تم فعلا فى القرن الثالث والقرن الرابع على وجه التخصيص . وكان هذا التطور ضروريا يقتضيه المنطق العضوى للتطور الحضارى ؛ أما العوامل الأخرى فعوامل مساعدة فحسب ، وليست هى العوامل الحاسمة . وهذه العوامل المساعدة هى الانتقام الشعوبى من جانب المغلوبين وما يستتبعه من تعصب لدينهم القديم ، لأن العصبية فى الحضارة العربية كانت تقوم دائماً على أسباب من الدين بحسبان الدين هو العامل الحاسم فى تكوين القوميات والدول فى بلاد تلك الحضارة ؛ وهذا يفسر لنا السرّ فى ارتباط الشعوبية بالنزعة الدينية ،

إذ الدين هو المظهر الأكبر فى التراث القومى والعصبية الشعوبيـة ؛ أما فى الحضارات الأخرى فلم تكن الحال على هذا النحو من التوحيد بين الدين والدولة ، بل قامت العصبية القومية فى تلك الحضارات بمعزل عن كل عصبية دينية ، وفقاً للروح الخاصة بكل حضارة وما تراه من قيمة عليا لديهـا . وثانى العوامل هو نزعة التنوير التى نشأت فى العالم العربى الإسلامى كنتيجة لانتشار الثقافة اليونانية فى تلك الأصقاع ؛ وهى نزعة بدأت من قبل عند نهاية دور الحضارة فى الحضارة العربية ، وذلك فى بلاط كسرى أنو شروان مما يتمثل خصوصاً عند بولس الفارسى وعند برزويه إن صح الباب المنسوب إليه فى كليلة ودمنة . وما كانت حركة ابن المقفع وابن الراوندى وابن زكريا الرازى إلا امتداداً لنزعة التنوير الفارسية هاتيك — وكان شأنها شأن كل نزعة تنوير تقوم دائماً على أساس تمجيد العقل وعبادته بحسبانه الحاكم الأول والأخير والفيصل الذى لا رادَّ لحكمه ولا مُعَقِّب لقضائه فى كل شىء ، مما يتمثل فى النزعة العقلية المتطرفة التى نراها فى كل أدوار نزعة التنوير فى جميع الحضارات : فهى كانت كذلك عند نزعة التنوير اليونانية لدى السوفسطائيين ، وفى نزعة التنوير الأوربية فى القرن الثامن عشر لدى النزعة المعروفة بهذا الاسم والتى كان على رأسها ڤولتير وكَنْت ؛ والأمر كذلك أيضا كما سنرى خلال هـذا الكتاب بالنسبة إلى كل ممثلى نزعة التنوير من الملحدين فى الحضارة الإسلامية العربية ، وبخاصة عند ابن الراوندى وابن زكريا الرازى .

وتقوم ثانيا على فكرة التقدم المستمر للإنسانية ، وهى فكرة أكدها خصوصاً جابر بن حيان فى الحضارة العربية وكانت تمثل اتجاها مضاداً للاتجاه السُّنِّى الخالص الذى يرد كلَّ شىء من العلم إلى النبى ويرى فى كل تباعد

عن عهد النبي تقهقراً في العلم وبالتالى فى الحضارة والتمدن ، وهذا يفسر لنا السر فى ترتيب العلم ترتيبا تنازليا من عهد النبى فنــازلاً من الصحابة إلى التابعين ، ثم تابعى التابعين ، وهكذا فى طبقات تنازلية يقل حظها من المـكانة والعلم والتقدير كلما بعدت عن عهد الرسول . وما هذا إلا كنتيجة للصورة التى وضعها أهل السنة للتطور المتقهقر ابتداء من الرسول . فجاءت نزعة التنوير ، وبخاصة فى اتجاهاتها الإسماعيلية وفى المذاهب الغنوصية الإسلامية والمذاهب المستورة فى الإسلام عامة ، تؤكد عكس هذا الاتجاه وتنظر إلى الإنسانية على أنها تتقدم باستمرار فى خط يسير قدُماً بغض النظر عن البعد أو القرب من الرسل والأنبياء .

وتتصل بتلك الخاصية خاصية ثالثة هى النزعة الإنسانية التى ترمى إلى الارتفاع بالقيم الإنسانية الخالصة فى مقابل القيم الإلـهيَّة والنبوية ؛ وإنـّـا لنجدها واضحة تماماً لدى الشعراء خصوصاً تلك الجماعة المعروفة « بعصابة المُـجّان » على حد تعبير ماجنها الأكبر أبو نُوَاس . فما ينسب إليهم من عبث وشك إنما كان يقصد به إلى السمو بكل ما هو إنســانى أرضى حسى يُشْـعِرُ بمعنى الأرض ، وإلى الحط من كل ماهو فوق أرضى ، بوصفه وهماً زائفاً ينتزع الدم والحياة من الإنسان الحقيقى ، الإنسان الحى المـكون من لحم ودم . ولم يكن عبثاً أن أكد بشار لصاحبته عبدة أنه «من لحم ودم» ، أى أنه كائن حى عينى يريد أن يعب من كأس الحياة ويلتصق بالأرض ، أمـّـه الحنون الحقيقية ، وليس خيالا كاذباً أو هيكلاً نورانياً مزعوماً ينزع إلى الموت ويشيح بوجهــه عن الحياة كما يدعى المتدينون . وإن كان من الملحدين مع ذلك من يئس من الظفر بمعنى الأرض فلاذ بنوع من الزهد المذعن كأبى العتاهية ، أو العزوف الـكظيم كابن زكريا الرازى .

وأخيراً اتصف تنورهم بأنه يطلب الحرية بكل ثمن دون أن يعبأ بما سيناله من جرائها ؛ فاندفع الزنادقة يعلنون آراءهم الهدامة بكل شجاعة وصراحة ، على الرغم مما كان يتوعدهم به السلطان — أعنى الخليفة — من عذاب ، وما لقيه أكثرهم من اضطهاد . وفضل أغلبهم الاستشهاد فقدموا أرواحهم فداء لتلك الحرية الفكرية التي لم يرضوا بغيرها بديلاً ، كما فعل ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس ومئات غيرهم على النحو الذى فصّلناه ؛ ويلوح أن الدولة قد آثرت أخيراً أن تحرم هؤلاء من فخر الشهادة فتركتهم أخيراً فى النصف الثانى من القرن الثالث ، وطوال القرن الرابع يفعلون ما يشاءون .

وكل هذه الخصائص مجتمعةً تكشف لنا عن تيار روحى خطير فى داخل الحياة الروحية فى الحضارة الإسلامية ، تيارٍ لم نحاول هنا فى هذا الكتاب إلا أن نقدّم بعض مواده ، وسنتلوها بمواد أخرى فى الأجزاء التالية من هذا الكتاب العام فى الإلحاد فى الإسلام . فإلى أن يتم جمع هذه الموادّ كلها ، سنرجئ الدراسة التحليلية العامة لتلك النزعة التى تعدُّ من أخطر النزعات التوجيهية فى الإسلام ومن أطْرَف وأخصب تيارات الإلحاد العالمى فى تاريخ الإنسانية الروحى .

سبتمبر سنة ١٩٤٥ — عبد الرحمن بدوى

الروح العربية

خصائص الحضارة العربية

الحضارة كالكائن العضوى الحى ، لها ما لكل كائن حى من قانون للميلاد والنمو والانحلال والفناء . فلكل حضارة طفولتها وشبابها ، ولها نضجها وشيخوختها . « فهى تنشأ ، كما يقول اشپنجلر ، فى اللحظة التى تستيقظ فيها روح كبيرة ، وتستقل بذاتها عن الحالة النفسية البدائية التى توجد فيها الطفولة الإنسانية . وهى تولد فى بقعة من الأرض محددة تمام التحديد ، ترتبط بها ارتباط النبتة بالتربة . والحضارة تموت حينما تحقق هذه الروح كل ما بها من ممكنات على صورة شعوب ، ولغات ، ومذاهب دينية ، وفن ، ودول سياسية ، وعلوم ، فترجع حينئذ إلى الحالة الأولى البدائية . ووجودها الحى نضال باطن قوى من أجل الاستيلاء على القوى الخارجية فى الطبيعة المختلطة المبهمة ، وعلى الغريزة الداخلية التى لاذت بها هذه القوى مع ما تنطوى عليه من حقد وحنق» . فهذه الروح تبدأ بأن تحقق ما تحتويه من قوى ، وتستمر فى هذا التحقيق شيئاً فشيئاً طالما كانت بها إمكانيات وقوى خصبة ، حتى إذا أتت على نهايتها كان ذلك إيذاناً بأنها بلغت أقصى ما تستطيع أن تصل إليه ، وحينئذ تنتقل من دور الخلق والإبداع إلى دور الاستهلاك والتبديد : والدور الأول يسمى بالحضارة بمعناها الضيق ، والدور الثانى يسمى بدور المدنية . والدور الأول ، وهو الحضارة ، يمتاز بأن الروح فيه متجهة إلى باطنها وما يحتويه هذا الباطن من قوى زاخرة فياضة ، بينما الروح فى دور المدنية تتجه إلى الخارج . وهذه الميزة الأولى تظهر فى الناحية السياسية بأن يمتاز الدور الأول بتكوين الدويلات المستقلة أو الدول المحددة

تمام التحديد ، بينما يدفع النزوع نحو الخـارج إلى إنشاء الإمبراطوريات الواسعة ؛ وفى الناحية الروحية نجد النزعة العقلية ، بمعنى الإيمان المطلق بالنتائج التى يصل إليها العقل الذى يحلل وينقد ، هى السائدة فى تفسير الأشياء فى دور المدنية ، بينما المعقول واللامعقول غير منفصلين فى دور الحضارة ، فتغلب النزعة الصوفية العميقة .

فلنأخذ الآن هذا التعريف ولنحاول تطبيقه على الحضارة العربية .

وهنا يجب أن نحدد أولا المقصود بقولنا الحضارة العربية . فإن المؤرخين قد اعتادوا حتى اليوم أن لا يطلقوا الحضـارة العربية إلا على تلك الحضارة التى بدأت بالإسلام ، وانقسموا حيالها إلى فريقين : فريق يجعلها حضارة مستقلة قد كونت دورة تامة مقفلة على نفسها ، وفريق حاول أن يربط هذه الحضارة بالحضارة اليونانية الرومانيـة أو بحضارة البحر المتوسط بوجه عام . أما الفريق الأول فهو الفريق الشائع العام ، لـكن رجاله لم يحاولوا أن يبينوا كيف تكون الحضارة العربية المفهومة بهذا المعنى حضـارة تامة مقفلة ، ومرجع ذلك إما إلى جهل هؤلاء بفلسفة الحضارات ، وانعدام الحاسة التاريخية لديهم ، مما جعل رأيهم هذا رأيا ساذجاً قد أعفى الباحث من مهمة مناقشته ونقده ؛ وأما إلى أنهم استعملوا كلمة « حضارة » فى معنى غامض غير مفهوم لديهم ولا محدود .

أما أصحاب الرأى الثانى وهو الذى يريد أن يربط الحضارة العربية بالحضارة اليونانية الرومانية فعلماء ممتـازون قد حاولوا تأييد ما ذهبوا إليه بحجج قوية تجمع بين دقة النظرة وسعة الاطلاع . ولهذا يجدر بنا أن نتأمله بعناية ودقة .

من أشهر القائلين بهذا الرأى كارل هينرش بِكَر . فقد ألقى محاضرة

فى مؤتمر المستشرقين الألمانيين سنة ١٩٢١ بعنوان «الإسلام كجزء من تاريخ الحضارة عام» ، حاول فيها أن يربط تاريخ الحضارة الإسلامية بالتاريخ الأوربى . إن المقياس الذى نقيس به اشتراك شعوب مختلفة فى حضارة واحدة هو ، فى نظر بكر ، تشابه الأسس الحضارية التى تقوم عليها حضارات هذه الشعوب . فإذا اتفقت جملة شعوب فى هذه الأسس ، فإنها تنتسب جميعاً لحضارة واحدة . ويقصد بكر بهذه الأسس التراث المشترك . فمهما اختلفت الشعوب من الناحية الجغرافية أو الناحية الجنسية ، فإنها تعتبر مكونة لدائرة حضارة واحدة إذا كان التراث الذى يكوّن أساسها الحضارى واحداً . لأن العوامل الجغرافية والجنسية عوامل مساعدة أو مقاومة ، لكنها ليست عوامل حاسمة .

فإذا نظرنا إلى الحضارة الإسلامية تبعاً لهذا المقياس وجدنا أن هذه الحضارة تقوم على أسس حضارية ثلاثة هى ، أولا : الشرق القديم خصوصاً فيما يتصل بالنبوة السامية والشريعة الموسوية والثنائية والتصورات الأخروية الفارسية ، والصورة التى رسمها البابليون للكون ؛ والأساس الثانى هو الحضارة اليونانية الرومانية على صورة الهلينية وبخاصة فيما يتعلق بالحياة اليومية وبالعلم والفن ؛ والأساس الثالث والأخير : المسيحية بما لها من عقائد وتصوف . فإذا قارنا هذه الأسس بالأسس التى تقوم عليها الحضارة الأوربية لوجدنا أن الأسس واحدة ولا اختلاف إلا فى الطابع الجنسى ونجاح التطور . والحضارة الأوربية تقوم على آساس أربعة هى : النبوة السامية ، والحضارة اليونانية ، والنزعة الإمبراطورية القديمة ، والعصور الوسطى الغربية وخصوصاً الجرمانية . فإذا أضفنا إلى هذا الصلات التاريخية العديدة التى نشأت عن امتداد الحضارة اليونانية الرومانية إلى البلاد التى ستكون فى

المستقبل مسرح الحضارة الإسلامية وعن انتشار الروح السامية فى أواخر الإمبراطورية الرومانية ، وامتداد الغزو الإسلامى حتى تور وروما وڤينا ، وتبادل الغزوات من جانب المسلمين والصليبيين ، وتأثير الشعر الغنائى العربى والفلسفة الإسلامية ورحلات الفرسان من الشرق إلى الغرب ، فضلا عن أن البحر المتوسط مسرح مشترك لـكلتا الحضارتين — فللحضارة الإسلامية مركز ممتاز من هذه الناحية على الشرق ، نظراً لمركز بلدانها المتوسط بين الشرق وبين أوربا .

وكل ما هنالك من اختلاف بين هاتين الحضارتين فى نظر بكر هو نجاح هذا التراث فى أوربا فى إيجـاد النزعة الإنسانية التى بفضلها تكونت أوربا الحديثة ، بينما هذا التراث عينه لم يؤد إلى إيجاد نزعة مشابهة للنزعة الإنسانية فى البلاد الإسلامية ، مع أن الأحوال فى هذه البلاد كانت شبيهة بتلك الموجودة فى أوربا إبان عصر النهضة . فقد كان فى البلاد الإسلامية أمراء يعنون بالعلوم والفنون ويشجعون العلماء وأصحاب الفن ، كالأمراء الذين شجعوا على إيجاد النهضة والنزعة الإنسانية فى أوربا . كما كان فى البلاد الإسلامية نزاع بين مطالب الدين ومطالب الدنيا . بل كان نصيب العالم الإسلامى من التراث اليونانى أكبر من نصيب العالم الأوربى ، مع أن النزعة الإنسانية والنهضة مرتبطتان بهذا التراث أشد الارتباط .

وإنما أنتج هذا التراث فى العـالم الإسلامى أشياء تختلف كثيراً عما أنتجه العالم الأوربى ، بل إن الأشياء التى اتفق كلا العالمين فى أخذها عن هذا التراث صبغها الواحد منهما بصبغة أخرى غير تلك التى صبغها بها الآخر ، وكان هذا الاتفاق أحياناً اتفاقاً فى الاسم فقط دون المضمون والمعنى . فا « لمدينة » اليونانية ، بالمعنى المحدد لها فى الحضارة اليونانية ، قد قضى

الإسلام عليها ولم يعد فى الإسلام مدينة تعادل المدينة اليونانية أو تشابهها . بينما الحال على خلاف ذلك فى أوربا . فمهما يكن من شأن الطريقة التى نشأت بها الحياة السياسية والثقافية فى مدن العصور الوسطى فى إيطاليا أو فى ألمانيا ، فإنه كانت تحيا فى هذه المدن إرادة الحيـاة عينها التى وجدت فى «المدينة» اليونانية ، على الرغم من اختلاف المظاهر الخارجية . فالإسكندرية أو المدائن أقرب بكثير إلى البندقية وميلانو منهما إلى بغداد أو القـاهرة . لأن فـكرة المواطن الحر لم توجد فى هاتين المدينتين الأخيرتين ، بينما هى أساس الحياة فى المدينة اليونانية وفى المدينة الأوربية فى العصور الوسطى . وجماعات الإخوان التى وجدت فى العالم الإسـلامى ، وإن قامت على شىء يشبه فكرة الإيروس اليونانية ، فإنها تختلف عن جمـاعات الإخوان فى أوربا . لأن جماعات الإخوان فى العالم الإسلامى كان مبدأ الأخوة فيها لا يصدر عن الذات أو الأنا ، وإنما كان يصدر عن الآخرين . والـكنيسة الغربية وضعت نفسها موضع الوارثة للامبراطورية الرومانية . ولـكن الـكنيسة الغربية تختلف عن فـكرة «الأمة» فى الإسلام كل الاختلاف . ونجد هذا الاختلاف عينه فى الإحساس الفنى والتصوير الخيالى . فإذا كان من الصحيح أن ابن عربى قد أثر فى الـكوميديا الإلـهية لدانته ، فإن الصور الشعرية تختلف اختلافاً كبيراً يؤذن باختلاف الروح بين الاثنين . فصور ابن عربى صور تجريدية عازبة عن الشخصية ، بينما صور دانته صور حية ذاتية .

وهكذا نجد اختلافاً بيناً فى كل الميادين بين نتاج التراث اليونانى فى العالم الإسلامى ونتاجه فى العالم الأوربى . فكيف نفسر هذا الاختلاف ؟

هنا نجد بكر يتردد فى الإجابة على هذا السؤال فى هـذه المحاضرة

ويتساءل ألا يمكن أن يرجع هذا إلى اختلاف جنسي بين الشعوب الأوربية والشعوب الإسلامية . ولكنه لا يستطيع أن يؤكد هذا التعليل وإنما يكتفى بأن يختم هذه المحاضرة بقوله إنه يرى أن يكون الإسلام جزءاً من تاريخ الحضارة الأوربية لسببين : إمكان المقارنة بشكل واضح بين العالم الإسلامى والعالم الأوربى فى تأثر كُلٍّ بتراث واحد ، وكثرة التأثيرات التاريخية المتبادلة بين كلا العالمين .

ولكنا نراه فى محاضرة أخرى ألقاها بعد عشر سنين من محاضرته الأولى يجيب عن هذا السؤال بلهجة حاسمة قاطعة فيرجع هذا الاختلاف فى موقف كل من العالمين الإسلامى والأوربى إزاء التراث اليونانى الرومانى إلى العوامل التاريخية والجغرافية والجنسية ، ثم إلى ما هو أهم من هذا كله وهو اختلاف العقليتين ، فإن العالم الإسلامى لم يأخذ من التراث اليونانى إلا ما كان ذا نزعة عقلية منطقية . « وكل شيء كان نصيب الروح اليونانية فى صوغه أكبر من نصيب العقل اليونانى مثل الشعر الغنائى اليونانى والأدب الروائى كله ، وكل ما كان يونانيا بحتاً كآلهة هوميروس وكبار المؤرخين اليونانيين ، كل هذه الأشياء ظلت أبوابها موصدة أمام الشرق » ، بينما العالم الأوربى قد تعلق فى عصر النهضة أكثر ما تعلق بهذه الأشياء التى تعبر تعبيراً صحيحاً عن الروح اليونانية ، وكان تعلقه بها الطابع الرئيسى لعصر النهضة ، لأن النهضة لم تكن فى الواقع علمية بقدر ما كانت فنية .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن هذا التطور فى فكر بكر . أو ليس من شأن هذا التطور أن يقضي على الفكرة الأولى التى نادى بها وهى أن الحضارة الإسلامية يمكن أن تدخل فى نطاق تاريخ الحضارة الأوربية ؟ إنه

يتحدث عن اختلاف فى العقليتين ؛ اختلاف قد جعل الحضارة فى العالم الإسلامى متمايزة كل التمايز من الحضارة فى العالم الأوربى ، فما معنى هذا ؟

معناه أن المقياس الذى اتخذه بكر ليس بالمقياس الصحيح ، وإذا كانت الحال كذلك فيجب أن توضع المسألة من جديد وضعاً آخر ، لأن نظريته كلها تقوم على أساس هذا المقياس .

والواقع أن الباحثين ، خصوصاً فى أواخر القرن الماضى ، قد أساءوا استخدام هذا المقياس إلى حد بعيد ، فراحوا يبحثون عن المشابهات بين الحضارات المختلفة ، وحاولوا أن يرجعوا هذه المشابهات إلى تأثر الحضارة الواحدة بالحضارة الأخرى وأجهدوا أنفسهم فى اكتشاف هذه الاستعارات أو السرقات حتى جعلوا الحضارات والناس جميعاً لصوصاً ناهبين . وأعمتهم هذه النزعة فأفقدتهم كل حاسة للتمييز ، حتى أصبح التشابه فى اللفظ كافياً للتشابه فى كل شىء آخر . وليس من شك فى أن هذه النزعة نتيجة من أسوأ نتائج المنهج الآلى فى تفسير الأشياء ، وهو الاتجاه الذى ساد عصر الوضعية . فإنه إذا كان من الممكن أن نأخذ بهذا الاتجاه فى العلوم الطبيعية ، فلا يمكن مطلقاً أن نأخذ به فى العلوم الروحية وعلى رأسها التاريخ . لأن هذه النزعة تفقد كل شىء روحه ، وتحيله إلى مادة خالصة ، بينما البحث هنا موضوعه الروح ، فإذا فقدتها فقدت كل شىء تقريبا .

ألا إن شيئاً من الإحساس التاريخى لكاف بأن يؤكد لنا وجوب التمييز بين هذه الأشياء التى يخيل إلى هؤلاء الباحثين أنها واحدة أو متشابهة . ولهذا رأينا الباحثين فى أوائل قرننا هذا يثورون على هذا المنهج الفاسد ، وينادون بوجوب التمييز ويطالبون بتوفر الحاسة التاريخية لكل من يتصدى للبحث فى التاريخ ، حتى لا يخلط بين الأشياء هذا الخلط الشنيع .

هذه الثورة الجديدة فى النظرة إلى التاريخ بلغت أوج شدتها عند اشپنجلر . إن اشپنجلر يرى أن الحضارات مستقلة بنفسها تمام الاستقلال الواحدة عن الأخرى ، وأن ما يخيل إلينا من وجود تشابه بين حضارة وأخرى إنما هو تشابه ظاهرى لا يكاد يتجاوز حد اللفظ . فالحضارة اللاحقة لا تأخذ عن الحضارة السابقة غير طائفة قليلة جداً من الأشياء ، ولا ترتبط بها إلا بمقدار لا يكاد يذكر من الروابط . بل إن هذه الأشياء التى تأخذها الحضارة الواحدة عن الحضارة الأخرى لا تأخذها منها كما هى بدون تمييز ، بل تختار ما يتلاءم وإياها ، أى ما يتفق وروحها . وحتى هذا الذى تأخذه لا تلبث أن تحيله وتبدل فيه حتى يتكيف وروحها تكيفا تاماً . لأن روح كل حضارة مختلفة عن روح غيرها من الحضارات أشد الاختلاف . فإذا كانت الأشياء التى تصدر عن حضارة من الحضارات تمثل روح هذه الحضارة فلا بد لكل حضارة تحاول الأخذ من حضارة أخرى أن تحيل هذه الأشياء إلى طبيعتها ، ومعنى هذا بعبارة صريحة أن تخلقها خلقاً جديداً . فكل تأثر إذاً هو فى الواقع تغيير ، سواء أكان هذا التغيير نحو الأحسن أم كان نحو الأسوأ . فالحضارة الواحدة إذاً لا تأخذ من حضارة أخرى غير الأشياء التى تتفق وروحها ، وهى لا تلبث من ناحية أخرى أن تحيله إلى طبيعتها إحالة تكاد تكون مطلقة . ولنضرب لهذا مثلا بتأثر الحضارة اليونانية بالحضارة المصرية فى الفن . فإن الحضارة اليونانية لم تأخذ من الفن المصرى أهرامه ولا مداخل معابده ، ولا مسلاته ، وإنما اكتفت بأن أخذت شيئاً من أسلوب التماثيل والأعمدة . وحتى هذا الذى أخذته قد بدلت فيه تبديلا يكاد يقضى على كل ما يميزه وهو روحه : فما أبعد الفارق بين الأعمدة المصرية والأعمدة الدورية ، وما أكبر الاختلاف بين التماثيل المصرية وبين تمثال

يونانى كتمثال قاذف القرص ! فالأصل إذاً فى كل هـذه الاقتباسات هو روح الحضارة التى تقتبس .

فلا يجب أن نخدع إذاً بتأثير الحضارة فى الحضارة ، بل يجب أن نقومه التقويم الصحيح على أساس أن لـكل حضارة روحها الخاصـة ، وأن الاشتراك فى التراث لا يدل على شىء بالنسبة إلى روح من يشتركون فى هذا التراث . وبهذا نكون قد قضينا نهائياً على القياس الذى اتخذه بكر ، وعن طريقه خيل إليه أنه يستطيع أن يثبت أن الحضارة الإسـلامية يمكن عدها جزءاً من الحضارة الأوربية .

لـكن ليس معنى هذا أن الحضارة الإسلامية حضارة قائمة بذاتها تكوّن دائرة حضارة مقفلة ، وإنما هى جزء من حضارة كبيرة هى إحدى الحضارات الثمانى الـكبرى التى بينها اشپنجلر وحلل روح الثلاث الرئيسية منها . هذه الحضارة هى التى سماها اشپنجلر باسم « الحضارة العربية » . وأغلب الظن أنه سماها بهذا الاسم لأن الحضارة العربية هى أهم جزء فى هـذه الحضارة الـكبرى .

والآن ، فلنعد إلى التعريف الذى ذكرناه فى أول كلامنا كى نعرف ماهية وخصائص هذه الحضارة .

يقول هذا التعريف إن لـكل حضارة تربتها الخاصة المحددة تمام التحديد . فما هى هذه التربة بالنسبة إلى الحضارة العربية ؟

هذه التربة واسعة : فهى تحد من الشمال بمنطقة تسودها مدينة الرّها ؛ ومن الجنوب بسوريا وفلسطين ومصر وفيها تسود مدينة الإسـكندرية ؛ ومن الشرق تحد بنهر سيحون أى تشمل إيران كلها .

وفى أقصى الجنوب نجد بلاد العرب ، وفى أقصى الشمال من هذه التربة

مدينة بيزنطة . فهذه التربة هي بوجه عام تلك المنطقة التي صبغها الإسكندر بالصبغة الهلينية ، والتي ارتقت مدنها الرئيسية وهي الإسكندرية وأنطاكية والرّها وإفسوس وبيزنطة والمدائن في الوقت الذي كانت فيه مدن الغرب تعاني دور الفناء والاضمحلال ؛ فقد أصبحت هذه المدن مدناً عالمية امتلأت بالكاتدرائيات والأسواق والمباني الضخمة .

هذا حدها من ناحية المكان . فلنبحث في حدها من ناحية الزمان . قلنا إن كل حضارة تولد في اللحظة التي فيها تستيقظ روح كبيرة تستقل بذاتها عن الحالة النفسية البدائية التي توجد فيها الطفولة الإنسانية . وروح الحضارة العربية قد استيقظت في السنوات الخمسمائة الأولى من ميلاد المسيح : فإن هذه الفترة هي الربيع بالنسبة إلى الحضارة العربية . ولكنها سبقت مع ذلك بهذه الطفولة التي استيقظت في أحضانها ، وهي الطفولة التي تتمثل في الأديان السماوية عند الفرس واليهود والكلدانيين حوالي سنة ٧٠٠ ق . م لأول مرة ، ثم تظهر هذه الطفولة مرة ثانية حوالي سنة ٣٠٠ ق . م . مع هذه التيارات التي كانت نبوءات بمصير العالم ومستقبل الشعوب ، وفيها وجدت هذه التفرقة الثنائية بين النور والظلمة ، والتصويرات المختلفة للجنة والنار والآخرة بوجه عام ، مع ما صاحب ذلك من التبشير بنبي يبعث . ثم تولد روح هذه الحضارة في القرون الأولى للمسيحية بميلاد روح الأسطورة : فالروح العربية تصوغ حول زرادشت أسطورة : تنبعث منه ضحكة تصعد إلى السماء وتتجاوب بها أنحاء الوجود ؛ والحواريون يصاغ حولهم أساطير تملأ بضجيجها المدن على البحر المتوسط ، والعالم اليهودي يحيك من جديد قصص داود والآباء الأولين ، ويرتفع الوثنيون الهلينيون بفيثاغورس وهرمس وبَلِنْياس الطواني إلى مرتبة أنصاف الآلهة . ثم تستمر روح الحضارة

فى إظهار ما تحتويه من قوى خصبة زاخرة ، فتنشأ المذاهب أو الأديان الجديدة . فينشىء مانى فى القرن الثالث فى أيام الملك سابور ديناً أو مذهباً دينياً جديداً ، يكون جامعاً بين كل المذاهب الدينية التى أنتجتها الروح العربية حتى وقته ، ويأتى القرن الرابع فتثبت المذاهب الدينية وترسخ أقدامها فتصبح المزدكية دين الدولة فى أيام الملوك الساسانيين ، وفى روما تصبح عبادة مِثْرا الديانة السائدة وذلك فى أيام ديوكليسيان ، ثم يجعل قسطنطين الديانة المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية ، وهكذا الحال أيضا فى مماكة سبأ وأكسوم . وبهذا ينتهى ربيع هذه الحضارة .

حينئذ كان لا بد لهذه الروح أن تبلغ أوجها وأن تحقق كل ما فيها من ممكنات فيأتى دين يسود الأديان كلها ، ويأتى شعب سياسى يغزو هذه المناطق ويعقد لها لواءاً واحداً . فكان هذا الشعب هو الشعب العربى ، وكان هذا الدين هو الإسلام . فتكونت بهداية هذا الدين وبفضل طبيعة هذا الشعب الحضارة الإسلامية التى هى القمة العليا التى بلغتها الحضارة العربية ، والتى بلغت أعلى نقطة قدر لها أن تصل إليها حين طرق الصليبيون أبواب بيت المقدس واستطاعوا أن يمروا به مسرعين . لكن هذا الحادث عينه كان إشارة لانحلال الحضارة العربية ، وإيذاناً بميلاد الحضارة الأوربية .

هذه الحضارة العربية لها روحها الخاصة التى لا تشاركها فيها أية حضارة أخرى ، والتى سادت جميع فروعها من بيزنطية وفارسية وإسلامية . فلكى نفهم إذاً روح الفرع الذى يعنينا الآن من هذه الحضارة العربية الكبرى ، ينبغى أن نبين الخصائص الرئيسية لروحها .

أول خاصية من خصائص هذه الروح التفرقة الواضحة التى تضعها بين النفس والروح ، وهى تفرقة رئيسية نجدها واضحة فى كل مظاهر هذه

الحضارة من فن وعلم ودين وقانون وسياسة ، فالروح مصدرها الله ، مصدرها الملكوت الأعلى والنور ، بينما النفس مختلطة بالجسم وبالتراب وتعلوها الظلمة ؛ والأولى مصدر الخير ، والثانية مصدر الشر : فما صدر عن الأولى فهو حسن ؛ وما صدر عن الثانية فقبيح . والناس ينقسمون إلى نفسانيين وروحانيين . ولما كانت هذه الروح صادرة عن الله ، فهى من أجل ذلك روح واحدة بينما النفوس فردية مختلفة . وهذه الروح تعبر عن نفسها فى الناس عن طريق « الكلمة » ، فالكلمة هى رسول هذه الروح العليا للناس .

ومن هنا فإن الروح ، وهى واحدة بين الناس جميعاً ، هى مصدر الخير . فليس للانسان إذاً إلا أن يفنى فى هذه الروح ، وأن ينكر نفسه كل الإنكار ، لأنها مصدر الشر والظلمة . ولهذا فإن روح الحضارة العربية تنكر الذاتية أشد الإنكار ، لأنها تفنى الذات فى هذه القوة العليا ، وترى فى هذا الفناء واجب الإنسان الرئيسى ، وعلى هذا الأساس يجب أن يقوّم كل شىء . فكل ما كشف عن ذاتية ، أو اتجه نحو توكيد الذاتية فهو شر . ففى الأخلاق لا شىء أمام الإنسان غير التسليم لهذه القوة العليا ؛ وفى الجمال الجميل هو ما مثّل هذه الروح أو دفع إلى الارتفاع إليها ؛ وفى المعرفة كل معرفة صادرة عن استقلال الفكر باطل وضلال ، وإنما المعرفة الحقيقية هى تلك التى تصدر عن هذه الروح المشتركة ، أى تلك التى تصدر عن الإجماع ، لا عن الحكم الفردى .

والآن ، نستطيع أن نتبين هذه الخاصة والنتائج المترتبة عليها بوضوح فى مظاهر الحضارة العربية الرئيسية وهى الفن والدين والقانون والسياسة .

أما الفن : فقد كان من نتائج فقدان الذاتية فيه أن انعدمت الفنون

التجسيمية فى الحضارة العربية من تصوير ونحت ، لأن فى تصوير الجسم المستقل والشخصية المستقلة المفردة تعبيراً عن الذاتية ، وهذا ما لا يتفق وروح هذه الحضارة . وإنما أنتجت لهم عن طريق الألوان نوعاً خاصاً هو أكبر توكيد للروح المنافية للذاتية العاملة على القضاء عليها ، وهذا النوع هو ما يسميه الإفرنج باسم « الأرابسك » . ولما كان هذا النوع من الفن هو أعظم ممثل للروح العربية إلى جانب القوس على شكل نعل الحصان ، فجدير بنا أن نتأمله قليلا . إن النموذج الأول لهذا النوع نشاهده فى الفن البيزنطى ، وفيه نرى واضحاً الفارق بين الروح العربية والروح اليونانية . فكل من الروحين قد استعانت فى هذا النوع من الفن بطريقة تكرار ورقة الشجرة المعروفة بشوكة اليهود (الأكنتة) . ولكن يظهر فى الفن اليونانى واضحاً أن كل ورقة لها كيانها وجسمها المستقل ، أى لها ذاتيتها ، إن صح هنا هذا التعبير ، بينما الفن البيزنطى يحلل ورقة شجرة اليهود إلى شبكة من الخطوط غير محدودة تملأ مسطحات كاملة ، مما يسلب الورقة كل استقلالها بكيانها الخاص . أما « الأرابسك » فهو كما يقول اشپنجلر بلا جسم ، بل ويسلب الشيء الذى يرسم عليه جسمه ، وذلك بأن يغطيه بتكرارات كثيرة . وإن « للأرابسك » لخاصية أخرى ليست صادرة مباشرة عن الروح العربية العامة بل عن التمايز البسيط الذى للشعب العربى عن هذه الروح العامة ، ولهذا فلن نتحدث عن هذه الخاصية إلا حين نبين هذا التمايز .

فإذا انتقلنا من الفن إلى الدين ، وجدنا أن هذه الخاصية هى الخاصية الرئيسية فى كل الأديان السماوية ، ولهذا نشأت كل هذه الأديان فى بيئة الروح العربية . ومن أجل هذا نرانا فى غير حاجة إلى بيانها فى هذا الميدان .

وهذه الخاصية نجدها واضحة كل الوضوح فى القانون . فإن القانون القديم ، اليونانى والرومانى ، صادر عن الذاتية ، لأن الأفراد هم الذين يوجدونه كنتيجة لتجاربهم العملية ، بينما الروح العربية تعتبر القانون صادراً عن القوة العليا أو الله . ولهذا لا تجد الروح معنى لهذه التفرقة التى يضعها القانون الرومانى بين القانون الوضعى (Jus) والقانون الإلهى (fas) ، ما دام مصدر القانون واحداً . وإذا كان القانون صادراً عن الله ، فيصدر عنه إذاً على شكل « كلام » له ، أى على شكل كتب مقدسة فيها بيان أوامره ونواهيه ، ولهذا فإن مهمة القاضى فى الروح العربية تختلف تمام الاختلاف عن مهمة البريتور عندالرومان ، لأن مهمة الأول مهمة الشارح ، بينما مهمة الثانى مهمة من يستخلص القانون من الأحوال العملية والحوادث التى تقع . وإذا لم يكن فى كلام الله ما ينطبق على الحالة المعروضة على القاضى ، فليس له أن يحكم بنفسه ، بل لا بد من الإجماع . ولهذا عد الإجماع دائماً المصدر التالى مباشرة للكتب السماوية .

وأخيراً نرى نفس الخاصية متحققة فى ميدان السياسة . فالحكم دائماً يجب أن يكون مستمداً من هذه القوة العليا ، وإلا فسد الحكم . ولهذا اعتبر الحاكم دائماً رجل دين ، وجمع الحاكم فى نفسه بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، وفكرة الخلافة الإسلامية أوضح مثال لما نقول . ثم إن فكرة هذه الروح عن هذه الدولة ليست هى الفكرة المعروفة عن الدولة بمعنى أن الدولة حدود سياسية فحسب ، بل الدولة هى الأمة المؤمنة .

تلك هى الخصائص العامة الرئيسية للروح العربية كما تتمثل فى هذه المظاهر التى تعبر عنها . وهى واضحة أجلى وضوح فى هذه الحضارة الجزئية التى هى كما قلنا من قبل أعلى درجة وصلت إليها الحضارة العربية .

إلا أن العامل الجنسى عامل له أثره ولا بد من اعتباره . فليست الشعوب المختلفة التى أنشأت الروح العربية العامة متساوية فى تمثيلها لهذه الروح ، بل تختلف بحسب أجناسها ، ولما كان العرب هم الذين يعنوننا فى هذا المقام فلنتحدث الآن عن خصائص هؤلاء .

اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً فى بيان الطابع المميز للرجل العربى . وعندنا أن خير من اكتشف هذا الطابع لسّن الذى قال إن الطابع المميز للعربى هو سيادة الإرادة فيه على ملكتى النفس الأخريين وهما العاطفة والعقل . فملكات العربى الروحية مرتبة على أساس أن الإرادة هى الملكة السائدة ، ويليها العاطفة ، وفى النهاية يأتى العقل . والإرادة إذا سادت فى الإنسان اتصف بالقدرة والشجاعة على القيام بالأعمال الخطيرة ، واتصف بالحزم وسرعة التنفيذ . لكن هذه الإرادة إذا لم يحكمها العقل كانت إرادة مندفعة لا تعرف لها غاية معلومة ، كما أنها تعنى عند أصحابها العجز عن القيام بالأعمال الروحية ، أى على الإنتاج الروحى ، وهى فى الواقع تطبع صاحبها بالطابع العملى ، وتصرفه عن التأمل النظرى . ومن أجل هذا نرى أصحابها فقراء فى العلوم النظرية ، أغنياء فى العلوم العملية . وإذا كانت العاطفة فى المرتبة الوسطى وليس العقل فى المرتبة الأولى ، فإن صاحب هذا النوع من التركيب الذهنى يعوزه الخيال . لأن الخيال مزيج من العاطفة والعقل .

فإذا نظرنا إلى مظاهر الحضارة العربية من هذه الزاوية استطعنا أن نفسر ما كانت عليه هذه المظاهر .

فإن الفن العربى لم يستطع أن ينشىء الملاحم أو الروايات التمثيلية لأن العربى يعوزه الخيال . وما انتجه هذا الفن يكشف عن ذلك الطابع الذى

ذكرناه آنفاً وهو سيادة الإرادة على بقية الملكات العقلية، فان أوضح نتاج فني للروح العربية الخاصة هو القوس على شكل نعل الحصان . فإذا تأملنا هذا القوس وجدنا أنه ذو نتوء يخرج على العمود المرتكز عليه . وهذا النتوء لا تقتضيه قوانين الاستاتيكية وإنما يبدو خارجاً على هذه القوانين . وما يحفظ القوس على هذا الشكل هو قوة الإرادة . ونحن قلنا إن هذه الإرادة إرادة غيرموجهة ، وهذا نراه واضحاً فى النتاج الثانى الممثل للروح العربية الخاصة أصدق تمثيل ، وهو « الأرابسك » الذى تحدثنا عنه منذ حين . إذ يشاهد فى هذا الأرابسك أنه ليس بذى اتجاه لأنه يمكن أن يتخذ أى اتجاه ، كما لاحظ ألفرد روزنبرج ، فهو يدل على إرادة ، وفى الآن نفسه يدل على أن هذه الإرادة هى إرادة غير موجهة .

وإذا كانت العلوم النظرية فى الحضارة الإسلامية لم يشتغل بها إلا غير العرب من فرس ومغول ، فالعلة هى تلك الخاصية التى ذكرناها وهى سيادة الإرادة وقيام العقل فى المرتبة الأخيرة للملكات النفسية . وهذا يفسر لنا بوضوح كيف أن العرب هم الذين قدموا الثروة العربية الثالثة وهى الشريعة إلى جانب الدين واللغة . فالشريعة علم عملى ، لذا استطاع العرب أن يبرعوا فيه .

أما السياسة فقد برز العرب فى ميدانها العملى لا النظرى أعظم تبريز . وذلك لأن السياسة العملية بمعنى الغزو والفتوح هى الميدان الحقيقى لنشاط الإرادة ، ومن هنا نستطيع أن نفسر إلى حد كبير هذه السرعة الهائلة التى تمت بها الفتوح العربية ، فهى لا تفسر إلا بهذه الإرادة الجامحة القوية . أجل ، كان نشر الدين عاملا مهما من بين العوامل التى أنتجت هذه السرعة ، ولكن نصيب الإرادة العربية كان أكبر من نصيب الدعوة الدينية . فإن

عمراً بن العاص أو خالداً بن الوليد هو الذى فتح ما فتح من ممالك ، لا عبد الله بن عمر وأمثاله من المتدينين المؤمنين فحسب . كما أن الطريقة التى سار عليها هذا الفتح تدل على ما فى هذه الإرادة من عدم توجيه من ناحية العقل . لأن غزو الممالك لم يأت عن خطة مرتبة نفذت أجزاؤها الواحد بعد الآخر بطريقة منطقية ، وإنما اندفع الغزاة نحو الشرق والشمال والجنوب دفعة واحدة كالسيل الجارف .

ولو أن الحضارة الإسلامية تـكونت من الجنس العربى وحده ، إذاً لامتازت فقط بهذه الميزات عن بقية شعوب الحضارة العربيـة العامة ، ولـكنها جمعت بين شعوب أخرى غير الشعب العربى ، مما جعلها حضارة خصبة متنوعة ، تنوعاً لا يظهر إلا بعرض مميزات هذه الشعوب الأخرى الجنسية وبيان أثر هذه المميزات فى تـكييف الحضارة الإسلامية تـكييفاً خاصاً ، ولـكنى أظن أن هاهنا ليس مجال هذا البيان .

بواكير الالحاد

الزندقة

للزندقة فى الإسلام تاريخ شائق ، عُنى المستشرقون بدراسته عناية فائقة ، فكتبوا فيه الرسائل القصيرة أو المقالات الطويلة المستفيضة التى تظهر باستمرار وأغلب ما فيها جديد طريف . لكنهم لم يبلغوا من هذا كله شأواً بعيداً ، ولم يستطيعوا حتى اليوم أن يلقوا ضوءاً قويا ساطعاً على أغلب نواحيه .

عُنوا بدراسة هذا التاريخ لأنه بدون إيضاحه وتعمقه لن نستطيع أن نفهم كيف نشأت بعض النظريات فى علم الكلام بل بعض المذاهب الكلامية التى ازدهرت خصوصاً فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، إذ أن الكثير من نظريات مذهب كمذهب المعتزلة لا يمكن أن يفهم بدون معرفة هذه الخصومات الكثيرة العنيفة التى كانت تقوم بين كبار المعتزلة وبين الزنادقة ، والتى كان يثيرها هؤلاء الأخيرون فيُضطر أصحاب الاعتزال إلى أن يتخذوا موقفا بإزائها خاصا . حتى إنه لو أتيح لنا أن نبحث فى تكوين النظريات المختلفة التى يشتمل عليها مذهب المعتزلة بحثا دقيقا ، يتابع تطوره ويرسم المنحى الذى عليه سار ، إذاً لوجدنا للزندقة أكبر الأثر وأعظم الخطر فى هذا التكوين .

كما أننا لا نستطيع أن نفهم أيضاً تلك الحركة السياسية الحضارية التى ظهرت خصوصا فى أوائل حكم العباسيين ، وأعنى بها حركة الشعوبية . ودون أن نذهب إلى ما يذهب إليه الدكتور طه حسين بك فى كتاب « حديث الأربعاء » من إرجاع حركة الزندقة كلها أو معظمها إلى حركة

الشعوبية ، نستطيع أن نؤكد على أقل تقدير أن بين كلتا الحركتين صلة قوية وثيقة ، حتى كان بعض أنصار العربية ضد الشعوبية يتخذون من الشعوبية وسيلة للدلالة على الزندقة كما سنرى بعد حين .

وإلى جانب هذا كله لا يمكننا أن ندرك التطور الروحى فى بلاد الإسلام والحياة العقلية عامة على حقيقتها إلا إذا نظرنا إلى حركة الزندقة بحسبانها عاملا من أخطر العوامل التى لعبت دورها فى ذلك التطور وتلك الحياة : فسيّرت الأول فى اتجاه معين ، وحددت له خطوطا رئيسية مشى فيها ، وكيّفت الثانية تكييفا محدداً وصبغتها بصبغة خاصة لم تبهت على مر الزمان .

فلهذه الأسباب كلها ولغيرها من الأسباب وجه المستشرقون عنايتهم إلى هذه الدراسة ؛ لكن دراستهم لا تزال حتى اليوم ناقصة ، فيها الكثير من التشويه واللبس . وذلك راجع إلى أن تاريخ الزندقة فى الإسلام موضوع غامض كل الغموض ، مضطرب كأشد ما يكون الاضطراب ، يشق علينا كثيراً — الآن على أقل تقدير — أن نتبينه فى وضوح وأن نتمثله بجلاء .

فلفظ « زنديق » لفظ غامض مشترك قد أطلق على معان عدة ، مختلفة فيما بينها على الرغم مما قد يجمع بينها من تشابه . فكان يطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليين للعالم : هما النور والظلمة . ثم اتسع المعنى من بعدُ اتساعا كبيراً حتى أُطلق على كل صاحب بدعة وكل ملحد . بل انتهى به الأمر أخيراً إلى أن يطلق على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة ، أو حتى من كان يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب ومن إليهم . وقد كتب الأستاذ هانز هينرش شيدر فصلا ممتعاً عن أصل هذا

اللفظ واستعماله عند الكتاب غير الإسلاميين[١] ، كما جمع الأستاذ ماسينيون معانى اللفظ كما استعمله الكتاب الإسلاميون وذلك فى البحث الذى كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « زنديق » وفى كتابه عن « عذاب الحلاج »[٢] . ويظهر من هذين البحثين أن اللفظ قد اتسع معناه إلى حد لا يسمح بتحديده تحديداً دقيقاً مما يحملنا على الحذر والانتباه الشديد للمعنى المقصود به فى السياق الذى نجده فيه .

ثم إن المصادر التى تحدثنا عن الزندقة والزنادقة قليلة غير مأمونة . وهذه القلة إما لأن كتب الزنادقة قد فقدت كلها تقريباً ، ولم يعد بين أيدينا منها إلا شذرات ضئيلة نعثر عليها بعد عناء طويل فى كتب الردود ، مثل هذه الشذرات التى عثر عليها المأسوف على شبابه الممتاز الدكتور كِرَوْس فى كتاب « المجالس المؤيدية » وهى شذرات لابن الراوندى مأخوذة من كتابه « الزمرذ » قد رد عليها داعى الدعاة مؤيد الدين الشيرازى فى هذه المجالس الموسومة باسمه[٣] ؛ أو لأن بعض المصادر التى تحدثنا عن الزندقة والزنادقة لا تزال مخطوطة حتى اليوم ، فليست فى متناول أيدى الباحثين . وأهم المصادر من هذا النوع كتب الشيعة ، مثل كتاب « الاحتجاج » للطَّبَرَسى .

كما أنها غير مأمونة من ناحيتين : الأولى أن الروايات المكتوبة فى بعضها لم يتحر أصحابها الدقة فى إيرادها ، فجاءت فى الغالب مهوشة ناقصة ؛

---

(١) شيدر : « زنديق » فى « المباحث الإيرانية » ج ١ ص ٧٦ — ٩٣ :
A.H.H. Schäder : «Zindiq», in, *Iranische Beiträge*.

(٢) لوى ماسينيون : «عذاب الحلاج» ص ١٨٦ — ١٨٨ : L. Massignon
La Passion d'al-Hallag

(٣) راجع هذا البحث فى القسم الثالث من الكتاب .

والثانية أن البعض الآخر من هذه المصادر ، وهو أغلبها ، قد كتبه الخصوم وأوردوا فيها آراء الزنادقة بعد أن أدخلوا عليها شيئا غير قليل من التبديل والتغيير ، بما يوافق أغراضهم فى الخصومة والحجاج ، ومما يتلاءم مع الإلزامات التى يريدون أن يستخلصوا منها . لهذا يصعب على الباحث أن يتبين أقوال الزنادقة الحقيقية وأن يعرف كيف كانوا يوردونها .

ومن أجل هـذه الصعوبات مجتمعةً كان الباحثون من المستشرقين يقتصرون على دراسة ناحية صغيرة من نواحى الزندقة ، أو واحد من كبار الزنادقة الذى يستطيعون أن يجدوا عنهم فى المصادر شيئاً . ولم يستطع واحد منهم حتى هذه الأيام الأخيرة أن يكتب بحثاً شاملا لهـذه الحركة يتناولها من جميع نواحيها .

فعن صالح بن عبد القدوس ألقى جولدتسيهر بحثاً قيما فى المؤتمر الدولى للمستشرقين سنة ١٨٩٣[1] . ثم من بعده كتب ا . كريمسكى رسالة صغيرة (فى ٦٥ صفحة) بالروسية عن أبان بن عبد الحميد اللاحقى طبعت فى موسكو سنة ١٩١٣ . وكان ابن المقفع خصوصا موضوعاً لدراسات عدة أشهرها ما كتبه عباس إقبال فى كتابه : « شرح حال عبد الله بن المقفع ، فارسى » وهو مكتوب بالفارسية ؛ ثم فرنشسكو جبريلى فى مقاله المنشور « بمجلة الدراسات الشرقية » سنة ١٩٣٢ بعنوان « مؤلفات ابن المقفع » وهو خير ما كتب عن ابن المقفع حتى الآن . وقد أثار بحثين آخرين كتب

---

(١) جولدتسيهر : « صالح بن عبد القدوس والزندقة إبان خلافة المهدى » (أعمال المؤتمر التاسع للمستشرقين ، لندن سنة ١٨٩٣ ، ج ٢ ، ص ١٠٤ — ١٢٩)
J. Goldziher : Sālih b. Abd al-Koddûs und das Zindiktum während der Regierung des Chalifen al-Mahdi *(Transactions of the international Congress of the Orientalists)*.

أولهما باول كروس فى المجلة عينها سنة ١٩٣٣ تحت عنوان « حول ابن المقفع » والثانى كتبه رشتر وكانت أفكاره فيه أجرأ وأصرح من أفكار جبريلي فى مقاله ذاك[١] .

ونحن قد أشرنا من قبل إلى المقال الذى كتبه كروس عن ابن الراوندى بمناسبة الفقرات التى عثر عليها فى « المجالس المؤيدية » مأخوذة من كتاب « الزمرذ » لابن الراوندى وهو مقال طويل مملوء بالمعلومات ، ويعد خير ما كتب عن ابن الراوندى حتى اليوم .

وأخيراً كتب الأستاذ فرنشسكو جبريلي : « تعليقات على بشار بن برد » ، ظهرت فى «مضطبة مدرسة الدراسات الشرقية» سنة ١٩٣٧[٢] .

وكل هؤلاء الباحثين لم يحاول أحد منهم حتى الآن أن يكتب عن حركة الزندقة كلها كما ظهرت فى الإسلام . وبين يدى الآن فصل ممتع كتبه الأستاذ چورج ڤَيْدا سنة ١٩٣٥ ولم ينشر إلا فى سنة ١٩٣٧ فى « مجلة الدراسات الشرقية »[٣] أراد فيه أن يدرس تاريخ الزندقة الظاهرى — إن صح هذا التعبير — دون تعرض للمناظرات التى قامت ضد الثنويه « والمانوية » ، ولما عسى أن يكون هناك من أثر المانوية فى الحياة الفكرية فى ذلك العصر (أوائل العصر العباسى) ، معتمداً فى ذلك

(١) م . ج . رشتر : « دراسات حول تاريخ كتب آداب الملوك العربية القديمة » ، ليبتسك سنة ١٩٣٢ . M.G. Richter : *Studien zur Geschichte der älteren arabischen Fürstenspiegel* . وراجع فصلاً من بحث جبريلي وبحث كروس بعد ص ... ص ...

(٢) BSOS .

(٣) ج ١٤ سنة ١٩٣٧ ص ١٧٣ — ٢٢٩ G. Vajda : Les Zindiqs en pays d' Islam au début de la période abbaside, RSO, XVI, 1937, pp. 173 — 229 .

على المصادر التاريخية الخاصة باضطهاد الزنادقة ، وبأشهر الزنادقة فى خلافة الخلفاء العباسيين الأول . وأول هذه المصادر وأهمها كتاب « الفهرست » ويليه كتاب «الأغانى» ثم كتب التاريخ الكبرى مثل : «تاريخ الطبرى» و « مروج الذهب » .

بدأ الأستاذ فَـيْدا بحثه بأن أورد فى القسم الأول منه الفقرات الموجودة فى كتاب « الفهرست » لابن النديم ، وبعضها خاص بتاريخ المانوية فى بلاد الإسلام واختلافهم حول الإمام بعد « مانى » ، واضطهاد كسرى لهم وتشتتهم فى البلاد وأسماء رؤسائهم . والبعض الآخر من هذه الفقرات يتعلق بالمتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويُبطنون الزندقة . وبأسماء الرؤساء والأمراء الذين اتهموا بالزندقة فى أيام العباسيين .

وفى القسم الثانى تحدث صاحب المقال عن اضطهاد الزنادقة اضطهاداً رسمياً فى أيام الخلفاء العباسيين الأول . فقال : إن المصادر لا تسمح لنا بتتبع هذا الاضطهاد إلا فى الفترة القليلة التى مضت بين سنة ١٦٣ هـ إلى سنة ١٧٠هـ ، أى فى السنوات الأخيرة من خلافة المهدى وإبان خلافة الهادى القصيرة الأجل .

ففى سنة ١٦٣ بدأت حملة المهدى العنيفة على الزنادقة بأن أمر عبدالجبار المحتسب ، والذى يلقبه صاحب « الأغانى » بلقب « صاحب الزنادقة » ، بالقبض على كل الزنادقة الموجودين داخل البلاد . فقبض على من استطاع القبض عليه وأتوا به إلى الخليفة الذى كان حينئذ فى دابق ، وأمر بقتل بعضهم ، وتمزيق كتبه . واستمر الخليفة فى هذا الاضطهاد فى السنوات التالية حتى بلغ الاضطهاد غايته فى الفترة مابين سنة ١٦٦ هـ و سنة ١٧٠هـ . وكان يقوم على أمر هذا الاضطهاد قضاة مخصوصون ، أشهرهم : عبد الجبار

الذى ذكرناه آنفا ، وعمر الكلوزى الذى عين فى سنة ١٦٧ ، ثم محمد ابن عيسى حمدوية الذى خلف عمر .

وكان يقبض على الزنادقة لأقل شبهة ، ويؤتى بهم أمام القاضى ، فيُطلَب إليهم أن يرجعوا عن الزندقة إن اعترفوا بها ، ويطلق سراحهم إن رجعوا عنها ، ويقتلون إذا استمروا عليها ورفضوا الخروج عنها . ولكى يتأكدوا من أنهم رجعوا عن الزندقة حقاً كان الخلفاء يستخدمون وسائل شتى ، أشهرها تلك التى يُرْوَى عن القضاة فى عصر المأمون أنهم كانوا يلجأون إليها ، فهم يذكرون عنهم أنهم كانوا يطلبون إلى الزنديق أن يبصق على صورة مانى ، وأن يذبح طائراً بحرياً اسمه التذرج . أما البصق على صورة مانى فالمقصود به تحقير صاحب مذهب المانوية وهو مانى ، وهذا دليل على أن الزنديق قد رجع عن هذا المذهب ؛ أما الحكمة فى ذبح هذا الطائر فلا تكشف عنها المصادر التى بأيدينا . ولكن مؤلف المقال الذى نحن بصدده يقول بأن المقصود بذلك هو أن يُفرض على الزنديق أن يذبح كائناً حياً ، وذبح الحيوان تحرمه المانوية . ولا بد لنا من قبول هذا التفسير — مؤقتاً — لأن كل المصادر التى تحدثنا عن المانوية لا تذكر مطلقاً أن المانوية كانوا يقدسون طائراً بعينه ، سواء أكان هذا الطائر التذرج أم كان غيره . وقد حدث مثل هذا فى أيام محاكم التفتيش فى أوربا سنة ١٢٣٩ مع طائفة الكاتار Cathares التوسكانيين : إذ طُلب إليهم بحضور البابا جورج الرابع أن يبرهنوا على إخلاصهم فى الارتداد بأن يأكلوا اللحم أمام جمع من الأساقفة[1] . ولم يكن كل هؤلاء الذين يتهمون بالزندقة زنادقة

(١) راجع هـ . ش . إيكا : « تاريخ محاكم التفتيش فى العصور الوسطى » ، ترجمة ريناك ، باريس سنة ١٩٠٠ ، ج ١ ص ١١٠ H. Ch. Ica : *Histoire de l,Inquisition au moyen ge tr. S Reinach*. ثم ج. جيرو : « تاريخ محاكم التفتيش فى =

حقاً ؛ وإنما كان منهم من يتهم بالزندقة لأسباب سياسية . فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسيلة للقضاء على خصومهم من الهاشميين . وعلى هذا النحو اتهم ابن من أبناء داود بن على ثم يعقوب بن الفضل وأتى بهما إلى الخليفة المهدى ، ولما كان الخليفة المهدى قد ارتبط من قبل بعهد ألا يقتلهما فإنه لم يستطع أن يأمر هو بقتلهما ، وإنما حبسهما وأشار إلى ابنه الهادى أن أن يقتلهما حينما يتولى الخلافة ، بيد أن الهادى لم يتح له أن يقتل غير يعقوب ، لأن ابن داود بن على مات فى سجنه قبل أن يتولى الهادى الخلافة .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ماذا وجه إلى الهاشميين من تهم . وكل ما ترويه لنا المصادر هو ما يرويه لنا الطبرى (أخبار سنة ١٦٩ ج ٣ ص ٥٤٩) وما لخصه عنه ابن العبرى فى كتابه « تاريخ مختصر الدول » (ص ٢٢١) من أن ابنة يعقوب بن الفضل قد اعترفت أثناء محاكمتها بأنها حبلى من أبيها ! والمانوية تحلل زواج الآباء بالبنات حسبما ترويه الروايات الإسلامية .

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء فى اتهامهم الخصوم بالزندقة لأغراض سياسية ، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام — الباطل غالباً — بالزندقة سبيلا للكيد والوقيعة بنظرائهم أو خصومهم الذين يحقدون عليهم . ومن هنا نستطيع أن نفهم تلك الرواية التى ذكرها الطبرى (ج ٣ ص ٤٩٠) ثم الجهشيارى فى كتاب « الوزراء والكتاب » (ص ٨٩ — ص ٩٠) ثم صاحب « الأغانى » وغيرهم ، عن اتهام أبناء أبى عبيد الله الوزير

= J. Giuraad : *Hist. de* ٨٩ — ٨٨ العصور الوسطى باريس سنة ١٩٣٥ ص *l'Inquisition au moyen âge* .

بالزندقة . فقد اتهم الربيعُ ، صاحب الخليفة المهدى ومنافس أبى عبيد الله الوزير ، أبناء هـذا الأخير ، أو واحداً من أبنائه كما فى بعض الروايات ، بأنهم زنادقة . وقد أفلح الربيع فى هذا الدسّ عند الخليفة الذى أمر بأن ُيقل عبد الله بن أبى ُعبيد الله الوزير . وكان ذلك سبباً فى توتر العلاقات بين المهدى وبين أبى عبيد الله ، حتى إن الخليفة عزله من منصب الوزراة (مروج الذهب : ج ٦ ص ٢٣٢) ، وولىّ يعقوب بن داود بدلا منه . (ابن خلكان : طبع فستنفلد ج ٣ ص ٨٤٠) .

والطبرى (ج ٣ ص ٤٨٧ وما يتلوها) يذكر صراحة أن اتهـام ابن أبى عبيد الله بالزندقة كان يقصد به زعزعة مركز أبيه عند الخليفة المهدى . وكان أبو عبيد الله موضوعاً لدسائس موالى المهدى . ويذهب صاحب « الأغانى » إلى أبعد من هـذا فيقول إن المهدى أدرك من بعد السببَ الحقيقى الذى من أجله أبلغه الربيع أخباراً عن زندقة ابن عبيد الله الوزير (الأغانى : ج ٢١ ص ١٢٢) .

والآن ، وبعد هذا العرض الموجز للاضطهادت التى عاناها الزنادقة ، أو من اتهموا بالزندقة ، فى الفترة ما بين سنة ١٦٣ و سنة ١٧٠ ، نُسائل أنفسنا : ما هى هذه الزندقة التى اتهم بهـا هؤلاء ، وبأى معنى يجب أن تفهم ؟

يرى ڤيدا أن الزندقة التى حاربهـا المهدى والهادى فى شخص هؤلاء الزنادقة هى المانوية ، أولا وبالذات . ودليله على هذا ما ذكرناه من قبل من الوسائل التى كان يمتحن بها القضاةُ قيمةَ رجوع الزنادقة عن الزندقة ، وإنكارهم لها ، حينما يمثلون أمامهم . ويؤيد هـذا الرأى أيضا الرواية التى ذكرها الطبرى (فى تاريخه ج ٣ ص ٥٨٨) والتى يمكن عدّها صادقة ،

والتى تقول بأن أحد الزنادقة قُدِّم إلى الخليفة المهدى فطلب إليه الخليفة أن يتبرأ من الزندقة ؛ ولكنه رفض فأمر بقتله ، والتفت من بعد إلى ابنه موسى ، وقال له كلاماً يحثه فيه على محاربة هذه العصبة من الزنادقة ووصف له مبادئ هذه العصبه وصفاً ينطبق كله على مذهب المانوية ؛ مما يدل على أن المقصود بالزندقة كان حينئذ مذهب المانوية .

ومع هذا كله فإن اللفظ قد اتسع معناه فى الفترة ذاتها اتساعاً كبيراً .

* * *

الزنادقة المتقدمون

والآن فلنتحدث عن أشهر رجال هذه الطوائف — أما الطائفة الأولى فأشهر رجالها أبو على سعيد ، وأبو على رجاء ، وأبو يحيى ، ويزدانبخت . وقد استطاع الأستاذ ڤيدا صاحب المقال الذى أشرنا إليه والذى نعتمد عليه كثيرا فى مقالنا هذا ، أن يعثر على اثنين منهم فى المصادر الأخرى بيقين ، ثم حاول أن يتعرف إلى آخر ثالث . فأبو على سعيد ذكره الشهرستانى[1] الذى يقول عنه إنه كان فى أيام خلافة المعتمد وكان يكتب فى سنة ٢٧١ هـ . ويزدانبخت ذكره أحمد بن يحيى المرتضى ، كمؤلف لكتاب أخذ عنه المرتضى نظرية تتابع الأنبياء ويحاول الأستاذ ڤيدا أن يجد أبا على رجاء فى شخص ذكره الجاحظ فى كتاب الحيوان[2]، حينما أشار إلى أنه جرت مناظرة فى حضرة المأمون بن محمد بن الجهم والعتبي والقاسم بن سيار من جهة وبين أبى على الزنديق ، فلما لم يفلح هؤلاء فى مناظرة الزنديق

(١) الملل والنحل : طبع كيورتن ص ١٩٢ .
(٢) الحيوان : ج ٤ ص ١٤١ وما يليها .

قام المأمون نفسه بمناظرته فألقى عليه سؤالا أفحمه . ولـكن الزنديق لم يرجع عن خطئه ومات على دينه . ولـكى يثبت ڤيدا صحة هذا الافتراض ، ونعنى به أن أبا على المذكور فى رواية الجاحظ هو أبو على رجاء ، قال إن هذا الزنديق لا يمكن أن يكون أبا على سعيدا ، الذى ذكرناه آنفا لأن أبا على كان حياً يكتب فى سنة ٢٧١ بينما الجاحظ الذى مات فى سنة ٢٥٥ يتحدث عن أبى على صاحبنا ، بحسبانه ميتا . وعلى ذلك فليس هناك من مانع ، اللهم إلا إذا ورد دليل مخالف ، أن نفترض أن الزنديق الذى ذكره الجاحظ هو أبو على رجاء الذى ذكره ابن النديم .

أما الزنادقة من المتكلمين فأشهرهم ابن طالوت ونعمان ، اللذان كانا أستاذى ابن الراوندى الزنديق المشهور ، كما كان من أساتذته أيضا أبو شاكر الذى يذكر عنه الخياط أنه كان متصلا بهشام بن الحكم ، المتكلم الشيعى المعروف . ويرى ڤيدا أن الرابطة بين أساتذة ابن الراوندى الثلاثة هؤلاء يظهر أنها كانت التغالى فى التشيع .

نحن نرجح إذاً أن تكون الزندقة التى عناها المهدى والهادى فى هذه الاضطهادات العنيفة التى قاما بها بين سنة ١٥٣ وسنة ١٧٠هـ هى المانوية ، وأن يكون هؤلاء الذين اتهموا بالزندقة ممن كانوا يقولون بأن للعالم أصلين قديمين هما النور والظلمة ويحرمون ذبح الحيوان واللحم إلى آخر هذه المبادئ التى أعلنها مانى مؤسس مذهب المانوية . لكن هذا لم يمنعنا أن نقول كذلك إن معنى الزندقة قد اتسع وامتد حتى أصبح يشمل أشياء أخرى لم يكن للمانوية بها صلة ولا سبب . ولم يكن هذا الاتساع وليد السنوات التالية والقرنين الثالث والرابع فحسب ؛ بل بدأ من قبل ، فى هذه الفترة عينها التى مضت فيها السنوات الأخيرة من خلافة المهدى وسنوات خلافة

المادى كلها . ولا سبيل لمعرفة نواحى هذا الاتساع ، وكيف تشعّب وتنوع ، فكانت فيه فروق ودقائق ، إلا بدراسة كبار الزنادقة والتحدث عنهم .

والزنادقة طوائف وأنواع ، والدوافع التى حدت بهم إلى الزندقة كثيرة متعددة ، أما طوائفهم فنستطيع أن نحصرها فى ثلاث — الأولى طائفة هؤلاء الذين يسميهم صاحب « الفهرست » رؤساء المنانية فى الإسلام ؛ والثانية طائفة المتكلمين ؛ والثالثة طائفة الأدباء من كتاب وشعراء . والدوافع تكاد ترجع كلها إلى ثلاثة أيضا : فمن هؤلاء الزنادقة من كانوا يؤمنون بالزندقة (ونقصد بها هنا المانوية) إيمانا صحيحا صادراً عن رغبة دينية صادقة ، فكانوا مخلصين فى اتخاذها مذهبا ، حريصين عليها كأشد ما يكون الحرص ، ومنهم من وجد فى الزندقة (بمعنى المانوية أيضا) تراثا قوميا خلفه الآباء فيجب الحرص عليه وتعهده ؛ لا لصلاحيته فى ذاته ، ولا لأنه يستحق الإيمان به كما هو ، وإنما لأن فى هذا الحرص وذلك التعهد نوعا من الإرضاء للنُّعَرة القومية ، والإشباع للنزعة الشعوبية ، وفيهما أيضا موضعاً للتفاخر ومجالاً لكى يقارنوا تراث العرب ودين العرب بما خلفه لهم الآباء من تراث ودين ، ومن أجل هذا كان جميع هؤلاء من الموالى الفرس . وبين هؤلاء وهؤلاء وجدت طائفة من الزنادقة كانت تتخذ من الزندقة وسيلة من وسائل البعث الفكرى التى يلجأ إليها الشكاك دائما ، يرومون من ورائها أن يعبثوا بعقائد الناس ، بأن يعقدوا حلبات النضال بينها ، ويساعدوا الضعيف منها على القوى السائد ، ويظهروا ميلهم إلى الأول . وكل هذا لا لشىء إلا ليجدوا السلوى حيث لا سلوى ، وليعثروا على العزاء وليس ثم عزاء ؛ فهى حالة نفسية عنيفة تتملكهم فتدفعهم إلى ما هو أشبه باللهو الفكرى والمجون الشكى منه إلى أى شىء آخر . وتكاد الطوائف والدوافع

يناظر بعضها بعضا تمام المناظرة . فالطائفة الأولى ، ونعنى بها طائفة رؤساء المانوية (أو المثانية ، فالمعنى واحد) ، يغلب على دوافع أصحابها الإيمان بها إيمانا صادقا ، وهذا هو الأليق بأن يكون عليه الرؤساء ، والطائفة الثانية يغلب على أصحابها الدافع الأخير ، دافع الشك الفكرى والفكر المتشكك ؛ ولا عجب فهم متكلمون ، أى أنهم رجال فكر وأصحاب مذاهب ومقالات يعتمدون على الأفكار والعقل ، دون المصالح أو الإيمان . والطائفة الثالثة ، وإن كان للدفع الثانى أثر كبير فى اتخاذها الزندقة ، فإن أعظم دافع أثر فيها كان النزعة الشعوبية ، وليس هذا بغريب : فالشعراء والكتاب لا يستهويهم الإيمان ، ولا قِبَل لهم بالإمعان فى الشك الفكرى ، وإنما تستهويهم الأحداث العنيفة التى تلهب عواطفهم وتثير ثائرة خيالهم ، وليس أدعى إلى إلهاب العاطفة وإثارة الخيال من نزعة الشعوبية : تذكرهم بمجد تالد يعتزون به ، ويتغنون بعظمته ، والشعراء يميلون دائما إلى التغنى بالماضى سواء بالافتخار به والبكاء عليه ، لأن الماضى زمن قد فات ولم يعد له وجود إلا فى الذاكرة التى تعيه ، فيستطيع الخيال أن يشكله على النحو الذى يبغيه ، وأن يتصرف فيه كما أراد وحيثما شاء ، وهو مطمئن آمن ، بينما الحاضر يحدق فى عينه فلا يستطيع أن يزوّر فيه أو يكذب عليه فى أثناء وجوده !

وهذا كان كافيا لكى توضع أسماؤهم بين أسماء الزنادقة . ويضاف إلى هؤلاء جميعا صالح بن عبد القدوس ، وقد أشرنا من قبل إلى البحث الذى كتبه جولدتسيهر وعسى أن تتاح لنا فرصة قريبة للتحدث عن هذا البحث — وهم جميعا إما بعيدون عن المانوية أو أن معلوماتنا عن مبادئهم الدينية ضئيلة جدا . لكن هناك شخصية أخرى بين الزنادقة من المتكلمين

نعرف عنها بعض الأشياء ونعنى بها شخصية عبد الكريم بن أبى العوجاء . ولا نتعرض هنا للكلام عنه كمحدّث أسرف فى اختراع الأحاديث ووضع المكذوب منها ، ولا عن صلته بالحسن البصرى وجعفر الصادق ؛ وإنما يعنينا هنا أن نقول عنه شيئا يتصل بزندقته . فنقول إنه كان كما يقول البغدادى[1] مانويا يؤمن بالتناسخ ويميل إلى مذهب الرافضة ويقول بالقدر ، ويتخذ من شرح سيرة مانى وسيلة للدعوة ، وتشكيك الناس فى عقائدهم ، ويتحدث فى التعديل والتجوير ، كما ذكر البيرونى فى كتاب «الهند»[2] .

ولكن أظهر شخصية فى هولاء المتكلمين الزنادقة بعد شخصية ابن الراوندى (الذى نؤجل الحديث عنه إلى الفصل الخاص به فى القسم الثالث من هذا الكتاب) ، هى شخصية أبى عيسى الورّاق وقد كان هو أيضا أستاذا لابن الراوندى .

كان أبو عيسى الوراق معتزليا فى البدء . لكن المعتزلة طردته لآراء له ذكرها خصومه ، ولسنا نعرف مبلغ صحتها على وجه التحقيق . فيذكرون عنه أنه كان شيعيا رافضيا ، ويقول عنه الخياط إنه كان مانويا يقول بأزلية المبدأين (النور والظلمة) ويعتقد فى خلود الأجسام ؛ والخياط معتزلى فهو خصم لأبى عيسى ، ومن هنا لا نستطيع أن نؤكد تماما أنه كان مانويا — ولذا فإن الأستاذ ماسينيون[3] يميل إلى وصفه بالناقد المستقل الفكر .

وهنا ننتهى من الكلام عن الطائفة الثانية وننتقل إلى الطائفة الثالثة ونعنى بها طائفة الأدباء والشعراء ؛ وأول هؤلاء وأشهرهم من غير شك بشار

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٤٩ وما يليها .

(٢) ماللهند من مقولة : ص ١٣٢ .

(٣) Massignon : EI, article : zindik

ابن برد ، ولـكنا لا نستطيع هنا أن نفصل القول فى زندقة بشار ، ويكفينا الآن أن نقول إن نزعة الشعوبية عند بشار كانت أكبر دافع له على الزندقة ، كما كان للعبث والمجون الذى طبع عليه بشار وروح التشاؤم والسخرية من الناس أثر فى هذه الزندقة غير منكور .

وهنا نلاحظ بإزاء بشار ما لاحظناه من قبل عند الكلام عن ابن أبى العوجاء وأبى عيسى الوراق من أن الاتهام بالزندقة كان يسير جنباً إلى جنب مع الانتساب إلى مذهب الرافضة كما لاحظ الأستاذ ڤيدا بحق ؛ ومن هنا كان الشك فى معنى هذه الزندقة ، التى تنسب إلى بشار ؛ ولذا نميل إلى أن نرى فى بشار شاكاً من الشكاك فحسب .

ولـكن زندقة خصم بشار ، ونعنى به حماد عجرد ، أظهر بكثير من زندقة بشار ، وعلى الرغم من أنه لا يمكن القطع بشىء فيما يتصل بعلاقته بالمانوية ، فإنه يمكن عَدُّه من بين من كانت لهم نزعة مانوية واضحة ، خصوصاً إذا لاحظنا أن شعره وقصائده كان يُتغنى بها فى دوائر أتباع مانى وتستعمل فى الصلوات .

أما حظ النزعة الشعوبية فى تكوين الزندقة فلم يكن كبيراً فى شاعر من الشعراء أو كاتب من الـكتاب بقدر ما كان عند إبان بن عبد الحميد اللاحقى : فقد كان يعرف الفارسية ويترجم عنها ؛ وكان على اطلاع وسعة علم بأدب الفرس القديم ، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس والتغنى به فى جميع مظاهره .

لـكن هذا ليس دليلا قاطعاً على أنه كان مانوياً حقاً ، أو أنه اعتنق المانوية كدين أخلص له ، على الرغم مما ذكره أبو نواس عنه فى إحدى القصائد التى هجاه بها ، فاتهمه بأنه كان حسياً لا يؤمن إلا بما يراه ، فهو

لا يعتقد إذاً بالجن ولا بالملائكة . وهذه التهمة عينها قد وجهت إلى بشار من قبل . واتهمه أيضاً بأنه أشاد بماني ، وسخر من موسى والمسيح . وهنا يبدو الخلط والاضطراب في كلام أبي نواس : لأنه لو كان مانوياً لما سخر من المسيح ، فالصلة بين المانوية والمسيحية كبيرة واضحة لا تسمح بهذه السخرية . ونرجح نحن أن السبب الأكبر في اتهام أبان بن عبد الحميد بالزندقة كان نزعته الشعوبية الواضحة ، فاتخذ أنصار العربية من اتهامه بالزندقة سلاحاً يستعملونه ضده في الخصومة الحضارية بين الشعوبية والعربية .

وهؤلاء الشعراء الثلاثة قد اتفقوا جميعاً في غلبة روح الاستخفاف والعبث فيهم . ولذا فإن أبا نواس كان صادقا حقاً في تسميتهم « بعصابة المُجّان » ، ولو أنه كان فردا من أفراد هذه العصابة هو نفسه ! فهم أقرب إلى الشك والمجون إذن من الإيمان والجد ، وهم أولى باسم الشكاك العابثين منهم باسم الزنادقة المخلصين .

وأكثر من هؤلاء جداً وأبعدهم عن العبث والمجون أبو العتاهية . وقد لخص الأستاذ فيدا آراء أبي العتاهية أحسن تلخيص فقال : إن أول ما نلاحظه في معتقدات أبي العتاهية أنه كان يؤمن بالاثنينية بكل صراحة : فالعالم الظاهر مكون من جوهرين متعارضين ، والوجود تتنازعه طبقتان : إحداهما خَيّرة والأخرى شريرة وهو يُرْجع الوجود كله في النهاية إلى الجوهرين المتعارضين اللذين نشأ عنهما الكون وتكوّن . غير أن أبا العتاهية صاغ نظرياته الأثنينية في صيغة واحدة ، إذ جعل الله الواحد عند بدء الأشياء ، وقال : إنه خالق الجوهرين ، وإن العالم ما كان له أن يوجد بدون الله وحده ، طارحا بذلك أسطورة الخليط الأزلي بين الجوهرين أو المبدأين ، ونعني بهما النور والظلمة .

وهنا نقف قليلا بعد أن استعرضنا كبار الزنادقة وشرحنا كيف كانوا موضوعاً للاضطهاد فى أيام الخلفاء العباسيين الأول لكى نتبين ما وصلنا إليه من نتائج .

لنلاحظ أولا أن الزنادقة الذين وجه إليهم الخلفاء ما وجهوه من اضطهاد كانوا مانوية ، إما بتحولهم عن الإسلام ، أو منذ ولادتهم فى الفترة ما بين سنة ١٦٣ ﻫ و ١٧٠ ﻫ . أما بعد هذا فإنا لم نستطع أن نثبت المانوية لواحد ممن اتهموا بالزندقة ، اللهم إلا لعبد الكريم بن أبى العوجاء ، أما الآخرون فلم نستطع أن نفصل فى أمرهم فصلا أخيراً ؛

ثم نلاحظ كذلك أن الزنادقة كانوا فى أماكن عديدة : فكانوا فى بغداد وفى حلب وفى مكة ، ثم فى البصرة والكوفة على وجه الخصوص ؛

وأن أشهر ما كان يوجه إليهم من تهم هو ترك الفرائض (كالصوم والصلاة والحج) ، ثم ادعاء الشعراء منهم والكتاب أنهم يستطيعون أن يكتبوا خيراً من القرآن ؛ وأخيراً موقفهم بإزاء وحدانية الله ؛

وأنه كانت هناك رابطة بين الزندقة والشيعة ، إذ رأينا كيف كان الانتساب إلى الشيعة الرافضة دليلاً على الزندقة وداعياً إلى الاتهام بها ؛

ونلاحظ أخيراً أن الكثير من كبار الزنادقة قد قضوا شبابهم وأوائل حياتهم فى أواخر أيام الدولة الأموية . فيجب أن نستنتج كما يقول فيدا : « أنه للكشف عن أصل التأثيرات الإيرانية التى لعبت دوراً خطيراً منذ ظهور الدولة الجديدة (أى الدولة العباسية) ، فلا بد من البحث فى الأوساط العلمية العقلية فى داخل خراسان وبين أعوان أبى مسلم الخراسانى السريين كما نبحث عنه فى البصرة والكوفة » . ففى منطقة خراسان التقت جملة حضارات مختلفة فى طابعها ، فكان فيها فى أواخر الدولة الأموية حركة

صراع فكرى بين عدة حضارات . وكان لهذا الصراع الفكرى أكبر الأثر فى تكوين العقلية الجديدة التى سادت العصر العباسى الأول أو الجزء الأول منه على أقل تقدير . ولن نستطيع أن نفهم هذه العقلية الجديدة وتطورها طوال ذلك العصر إلا إذا درسنا هذا الوسط الذى اصطدمت فيه عقليات مختلفة ، واختمرت فيه بذور الحياة العقلية التى جعلت من العصر العباسى الأول عصراً من أخصب العصور الفكرية فى تاريخ العالم كله .

زندقة ابن المقفع*

لفرنشسكو جبرييلى

من العناصر الرئيسية فى تقدير شخصية ابن المقفع تقديراً عاماً ، موقفه الدينى ، فى ذاته وبإزاء الإسلام الذى هو الدائرة السياسية الدينية والمدنية التى فيها عاش وعمل . وتلك مسألة خطيرة لم يكن لدينا لدراستها منذ سنوات قلائل إلا باب بُرْزَوَيْه ، وبخاصة الفقرة الشكوكية التى لم يُقطع بصحة نسبتها إليه ، ثم أخبار كثيرة خرافية غامضة ذكرتها الروايات الأدبية . وهم يذكرون عنه عادة أنه زنديق تشبع بالزندقة واتهم بها ؛ ويذكرون عن الخليفة المهدى ، وهو الذى كان يضطهد الزنادقة ، تعود أن يقول إنه لم ير مطلقا كتاب زندقة إلا ويرجع إلى ابن المقفع[1] ؛ وفى « الأغانى » فقرة قيمة تبينه لنا على اتصال وثيق بطائفة من الأدباء والشعراء

(*) فصل من بحث كتبه فرنشسكو جبرييلى بعنوان : « مؤلفات ابن المقفع » ونشر فى « مجلة الدراسات الشرقية » جـ ١٣ سنة ١٩٣٢ (ص ١٩٧ — ٢٤٧) بالإيطالية . وهاك هو فى الأصل : F. Gabrieli : Le opere d'ibn al-Moqaffa' . RSO, XIII, pp. 197 — 247

(١) ابن خلكان : جـ ٢ ص ١٢٥ من طبعة ڤستنفلد .

والماجنين كانوا فى بدء الدولة العباسية واتهموا جميعاً بالزندقة[١] ، وأخيراً نرى فى نهايتـه المحزنة أنهم اتهموه بأنه زنديق مفسد للناس[٢] كما لو كان فى ذلك إراحة لضمير قاتليه ، ولو أنى لا أعتقد فيما زعمه نيبرج[٣] من أن اتهامه بالزندقة كان بنوع خاص الباعث الحقيقى على قتله .

والناحية السلبية من هذا الموقف واضحة وضوحا كافيا : استخفاف وعدم اكتراث ، بل بغض ممزوج بالشك نحو الإسلام الذى اعتنقه ظاهريا فحسب ،

---

(١) «الأغانى» : جـ ١٦ ص ١٤٨ — ١٤٩ . ويروى الأغانى ، كما يروى غيره ، فى مناسبات أخرى أن كثيراً من أفراد هذه الجماعة اتهم بالزندقة ، وهم : ابن المقفع نفسه ومطيع ابن إياس ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد الحارثى («الأغانى» : جـ ١٢ ص ٨١ ؛ والمسعودى جـ ٨ ص ٢٩٣ ؛ وهناك شذرات لا أهمية لها من رسائل ابن المقفع ويحيى بن زياد فى «رسائل البلغاء» ص ١٣٦ — ١٣٨ [وانظر فيما يتعلق بها «الأغانى» جـ ١٧ ص ١٥]) ، ويونس بن أبى فروة (الأغانى جـ ١٣ ص ٨٨) وحماد عجرد (الأغانى : جـ ١٣ ص ٧٤ مع تعليق مهم على مقطوعة مانوية قالها هو وكان ينشدها الزنادقة على أنها صلاة) وعلى بن الخليل (الأغانى جـ ١٣ ص ١٤) وعمارة بن حمزة (الأغانى جـ ١١ ص ٧٥ ، وكان فى صحبته البقلى الذى قتله المنصور لأنه أنكر الحياة الأخرى . وانظر فيما يتعلق بصلة عمارة بابن المقفع ، الصفدى ، ms. Bodl. Arch. Seld. A 26, 15 v.) ثم الزنديق الشهير بشار بن برد (ابن خلكان رقم ١١٢ ، من طبعة ڤستنفلد وغيره) . وغير هؤلاء أشخاص مشهورون فى التاريخ الأدبى لهذا العصر مثل حماد الراوية وأبان اللاحقى (الذى نظم كليلة ودمنة وكتاب مزدك) . ولعل دراسة البيئة (الكوفة والبصرة) التى نشأت فيها هذه الجماعة ودراسة أفرادها توضح صفحة ناصعة من صفحات تاريخ الأدب العربى فى القرن الثانى .

(٢) ابن خلكان : جـ ٢ ص ١٢٦ (من طبعة ڤستنفلد) السطر الأخير : قال سليمان بن معاوية بعد أن مثل بابن المقفع : ليس فى المثلة بك حرج ؛ لأنك زنديق قد أفسدت الناس .

(٣) Nyberg: Der Kampf zwischen Islam und den Manichäismus, in OLZ, 1929, 432 (النزاع بين الإسلام والمانوية — مقالة نشرها فى « مجلة المستشرقين لنقد الكتب » سنة ١٩٢٩ ص ٤٣٢) .

ثم حرية فكر فى مسائل الدين[١] وقلة احترام للقرآن الذى حاول أن يعارضه فيما يزعمون[٢] . وإذا كان لنا أن نقف هنا أو أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنرى عند ابن المقفع عقيدة إلحادية معينة ، مانوية أو ثنوية بأى معنى من المعانى ، فإن تلك مسألة يعوقنا عن بحثها بحثا قائما على حقائق ثابتة غموض[٣] فكرة « الزندقة » وخلو الكتب الباقية المنسوبة إلى ابن

(١) بخصوص هذه المسألة ، تؤيد النادرة التى ذكرها ابن خلكان (ج ٢ ص ١٢٥ ، طبع فستنفلد) الفقرة المشهورة فى كتاب « كليلة ودمنة » . وتتلخص هذه النادرة فى أن ابن المقفع ظل يستعمل عشية اليوم السابق لإعلان إسلامه زمزمة المجوس أثناء طعام العشاء . وحينما سأله عيسى بن على : « أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ؟ فقال : كرهت أن أبيت على غير دين » ؟ وهذا الجواب الذى يتضح فيه التهكم الممزوج بالشك لا يدل مطلقا على تعلقه بمزدكية آبائه (والنقد الذى وجهه برزويه إلى الذين يتعلقون « بدين آبائهم » خاص بالمزدكية) .

أما فيما يتعلق ببيت الأحوص المشهور فى النسيب :

يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل

الذى تقول عنه كثير من المصادر (انظرها برمتها فى تعليق على «عيون الأخبار» لابن قتيبة ص ٧١ من طبعة بروكلمان) إن ابن المقفع تمثل به ، فيجب علينا أن نلاحظ أنه إذا كان بعضها مثل ابن قتيبة و«خزانة الأدب» ج ٣ ص ٤٥٩ (عن «أمالى» المرتضى) يذكر أن ابن المقفع قاله حينما مر ببيت من بيوت النار ، فإن بعضها الآخر (مثل الأغانى ج ١٨ ص ٢٠٠) يذكر أنه قاله معاتبا طائفة من الزنادقة قبض عليهم (ومن بينهم ابنه هو ؟) وقد مروا به دون أن يسلموا عليه خوفا عليه من أن يلحق به ضرر . ومهما يكن من شىء فيظهر لى أن علينا أن نرفض أن يكون ابن المقفع وهو فى سن الرجولة قد تعلق بالمجوسية وآمن بها إيمانا عقليا ، ولو أنه من الممكن أن يكون ابن المقفع كان مع ذلك يميل إلى دين الفرس القديم من ناحيتى العاطفة والحضارة .

(٢) انظر أخيراً مقدمة م . جويدى M. Guidi لطبعته لرد القاسم بن إبراهيم ص يد — ص يه XV — XVI .

(٣) فيما يتعلق بهذا الغموض والاشتراك الذى يجمع تحت صفة « زنديق » المانويين مع الماديين مثل البقلى المذكور ، والمفكرين الأحرار مثل صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية مع الملاحدة الحقيقيين ، أقول فيما يتعلق بهذا كله انظر بحث جولدتسيهر =

المقفع منها ، على الرغم مما تشير إليه بعض المصادر[1] .

ولقد كان لنشر رد الإمام الزيدى القاسم بن إبراهيم على ابن المقفع حديثا أثر عظيم (وقد طبعه وترجمه م . جويدى[2] على أساس مخطوطات المكتبة الامبروزية بميلانو) « فقد وضع هذه المسألة على قواعد جديدة وقضى ، حيث كنا فى حاجة إلى ذلك ، على المحاولات الساذجة التى قام بها كرد على لتبرئة ابن المقفع من تهمة الزندقة التى نسبها إلى خبث المعتزلة وأرجعها إلى الحسد الذى يحمله الناس للشخصيات العظمى »[3] . وقد بحث الناشر

= الموسوم باسم Sālih b. Abd al-Quddus und das Zindiktum während der Regierung des Chalifen al-Mahdi, in Transactions of the IXth Intern. Congress of Orientalists, London 1893, II, 104 — 129 (هذا إلى أن جولدتسيهر ص ١٠٦ يرى لدى البقلى آثار المانوية) .

(١) إلى جانب الفقرات المشهورة لدى المسعودى (ج ٨ ص ٢٩٣) والبيرونى فى كتاب « الهند » (ص١٣٢ س٨) انظر الصفدى (ms. Bodl. Arch. Seld. A 26,) 15 v, 1—2 : كانت آراء ابن المقفع الإلحادية منقولة أو معروضة فى كتب الزنادقة الممنوعة .

(٢) M. Guidi, La Lotta tra l'Islam e il Manicheismo. Un libro di Ib al-Muqaffa' Contro il Corano Confutato da al-Qàsim b. Ibrahim, Roma 1927 (م . جويدى : النزاع بين الإسلام والمانويه . كتاب لابن المقفع ضد القرآن رد عليه القاسم بن إبراهيم ، روما سنة ١٩٢٧) .

(٣) انظر مقدمة كتاب « رسائل البلغاء » ص ٨ — ١١ والتى رد عليها جويدى بحق . كذلك يرفض حديثاً خليل مردم اتهام ابن المقفع بالزندقة جاهلا رد القاسم ، والمسائل المتصلة به (« ابن المقفع » ، دمشق سنة ١٩٣٠ ص٥٢ — ٥٥) . أما عباس إقبال (ص ١٩ - ٢١) فأكثر دراية وأعظم اتزانا : يثبت أن نادرة البلعمى الباطلة من ناحية التاريخ ، والتى ذكرها تاريخ جزيدة والمتعلقة بمحاولة ابن المقفع تقليد القرآن ، أقول إنه يثبت أنها خرافة لاأساس لها من الصحة ، ويحاول تبرئة جماعة ابن المقفع التى تحدث عنها الأغانى من تهمة المجون والالحاد (هذا إلى أن الأغانى لايحددها تحديدا كافيا) . ولكنه لا ينكر من أجل هذا الدلائل الواضحة على زندقة ابن المقفع . فعباس إقبال يعرف رد القاسم عن مخطوطة برلين ، ولكنه يظن أن الكتاب الذى رُدَّ عليه منحول لأنه لايتفق وشك باب برزويه .

نفسه وليفى دلافيدا ونيبرج وبرجشتريسر فى صحة هذا الأثر النفيس فى ذاته و (وهو ما يعنينا هنا) فى الشذرات الواردة به المأخوذة عن كتاب ابن المقفع الذى رجع المؤلف إليه ، كما بحثوا أيضا فى طبيعة هذا النص وفى أهميته . وهم يكادون يجمعون على صحته من الناحيتين ، على الأقل حتى يقوم دليل حاسم على العكس[1] ؛ أما فيما يتعلق بكتاب ابن المقفع فلا يظهر لى من العبث كما ظهر لجويدى ونيبرج محاولة استخلاص بعض الحقائق من مقارنته مباشرة بباقى ما صح لابن المقفع من كتب . فهذه المقارنة لا تدلنا مطلقا على تلك الاختلافات اللغوية واللفظية التى من أجلها أنكر البعض أن يكون الكتاب الذى رد عليه القاسم لابن المقفع ؛ بل على العكس من الناحية الشكلية أرى فى النثر المسترسل الذى تكشف عنه هذه الشذرات والذى هو خال من الصناعة اللفظية والسجع[2] ، دليلا على صحة هذا

(١) كذلك يشك رشتر Richter بعض الشك فى الكتاب الذى رَد عليه القاسم (*Studien*, 16 N. 1.) .

(٢) فيما يتعلق بخلو مؤلفات ابن المقفع من السجع (ويجب علينا ألا نخلط بين هذا الخلو من السجع وبين الازدواج الذى نصادفه على العكس من ذلك فى كل مؤلفاته ، من كليلة ودمنة إلى الأدب الكبير والشذرات المانوية) ، أقتصر على ملاحظة ظاهرة مألوفة ومعروفة من قبل فى كتب النقد والبيان العربى (قارن الفقرة التى وردت فى كتاب « رسائل البلغاء » مأخوذة عن كتاب « تحرير التحبير فى علم البديع » لعبد العظيم بن أبى الأصبع [توفى سنة ١٢٥٦ م] ، والتى تتفق مع ملاحظتنا كل الاتفاق) . وأنا أعلم جيدا أن رأى جويدى الجديد الذى قال به فى مؤتمر ليدن فى سبتمبر الماضى ، وهو أن القول الشائع بنشأة السجع متأخراً فى القرن الثالث يجب أن يصحح ؛ إذ نصادف السجع فى عصر أقدم من ذلك بكثير ، وهو ظاهرة عربية مميزة عارضتها الشعوبية الأدبية عن قصد ؛ ونص القاسم بن ابراهيم الذى يلتزم السجع ، وهو عربى بإزاء لغة ابن المقفع السهلة وهو أعجمى ، برهان جديد على ذلك . وعلى حسب هذا الرأى الجديد ان يصبح معيارُ استعمال السجع تاريخياً ، بل من ناحية الأسلوب بحسب النوع الأدبى ، وكذلك بحسب التركيب العقلى . (انظر الآن : أعمال مؤتمر المستشرقين الدولى الثامن عشر المنعقد فى ليدن سنة ١٩٣١ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧) .

الكتاب ، يعتد به . أما من ناحية المحتوى نفسه ، فإنه إن كانت هناك بعض الصعوبات والتناقض مع الإشارات والدلائل الأخرى المتعلقة بموقف ابن المقفع والتى سندرسها فيما بعد ، فهناك على الأقل شذرة أوردها القاسم تدل على أنها صادرة عن نفس القلم الذى كتب باب برزويه ، حتى لو كنا بإزاء مؤلف مجهول كاتبه . وأعنى بها الشذرة المذكورة فى صفحتى ٣٦ و ٢٧ وتبتدئ بقوله : « أخرج سلطان الجاهل . . . » والتى تحث المرء على ألا يتعلق بعقيدة تعلقاً أعمى دون تعقل وتفكير ، ثم تسوق التشبيه بتاجر يريد أن يبيع بضاعته الرديئة دون فحص ولا جدال بحسبانها أحسن بضاعة فى السوق . فكيف لا تذكرنا هذه الدعوة الحارة إلى الامتناع عن « الإيمان بما لا تعرف والتصديق بما لا تعقل » بتلك الصفحة الشهيرة من « المصدِّق المخدوع » ، بتلك الأقصوصة الخبيثة التى اختارها خصيصاً رمزاً للإيمان الأعمى دون بحث سابق وتفكير (« كلية ودمنة » ص ٣٤ — ٣٥) ؟ ويبدو لى أن الموقف العقلى فى كلتا الفقرتين وتشابه التعبير متقاربان ومتفقان اتفاقا يؤيد كون مؤلفهما واحداً .

ولكن الرأى يختلف فى الحكم على طابع كتاب ابن المقفع وأغراضه . فجويدى الذى نظر إليه بحسبانه ضربا من معارضة القرآن يقصد به الطعن فى الإسلام ، والذى رأى فيه الخطوة الأولى والدليل الأول تقريبا على الحِجاج الموجه ضد الإسلام ، ذلك الحِجاج الذى نراه قويا متقنا فى مؤلفات ابن الراوندى ، أقول إن جويدى قد أعطى بذلك أهمية كبرى لبعض تلميحات القاسم[1] ولشكل الابتداء بحمد النور من أجل عدّ هذا المؤلَّف « كتابا حقيقيا ضد القرآن » وليس رداً عليه فحسب بل تقليداً لكتاب

(١) أهمها الموجودة ص ٣١ فى أسفلها (ص ٧٢ من الترجمة الإيطالية) .

المسلمين المقدس كذلك[٢] . ولكنا إذا استثنينا هذا الابتداء الذى يبدو طبيعيا أنه تقليد للبسملة ، لم يتضح لنا من باقى الشذرات الموردة وكذلك من البراهين التى يرد القاسم على مضمونها دون أن يذكر لنا نص كلام ابن المقفع — أىّ أثر يدل على أن الكتاب تقليد للقرآن من نفس ذلك النوع الذى ابتدأ به مسيلمة حتى صار إلى المتنبى وأبى العلاء المعرى . وخلو هذه الشذرات من السجع ، وهو العنصر الأساسى فى كل هذه المعارضات للقرآن ، يكفى وحده لإنكار أن ابن المقفع قد أراد بكتابه أن يكون شبيها للقرآن من ناحية الأسلوب . بل على العكس من ذلك تعكشف الشذرات الباقية ، مهما يكن من ضآلتها وتشويهها ، عن أسلوب منطق متسلسل مختلف كل الاختلاف عن أسلوب القرآن المملوء بالرمزية الغامضة والفخامة والروعة . فابن المقفع هنا لا يعارض القرآن من حيث صورته ، بل من حيث مادته بطريقة فلسفية جدلية وببراهين عقلية أثارت الإمام المسلم أيما إثارة لحملته على الرد عليها بنفس الأسلحة التى صنعتها المعتزلة حديثا[٢] .

---

(١) متبعاً فى ذلك ما تشير إليه الروايات التى سجلها جولدتسيهر فى كتابه *Muhammidannsiche Studien*, II 401 (دراسات إسلامية ج ٢ ص ٤٠١) ، ثم رواية طبرى بلعمى (ترجمة تسوتنبرج Zotenberg ج ٤ ص ٥٠ — ٥٢) الخيالية من غير شك .

(٢) أظن أن لا أداعى لأن أعيد هنا فى إيجاز براهين ابن المقفع فى نقده مستخلصة من الشذرات ومن ردود القاسم ؛ فقد فعل ذلك ، إلى جانب جويدى ، ليفى دلا فيدا (فى مجلة الشرق الحديث *Oriernte Moderno* سنة ١٩٢٨ ص ٨٤ — ٨٥) ونيبرج فى «مجلة المستشرقين لنقد الكتب» *Orientalistische Literaturzeitung* سنة ١٩٢٩ ص ٤٢٩ — ٤٣١) وأفضل هنا أن أشير فى ترتيب إلى شذرات ابن المقفع كما استخلصها جويدى من نص الرد : ص ٨ س ٢٢ ، ص ٩ س ٨ و س ١٨ ، ص ١٠ س ١٤ — ١٦ ، ص ١١ س ٧ — ٨ (الدفاع عن النور) ؛ ص ١٧ س ١٥ — ١٨ ؛ ص ٢٠ س ٣ — ٤ ؛ ص ٢٢ س ٩ ، ١٨ ، ٢٣ ؛ ص ٢٤ س ٣ ، =

ويبدو لى أن ليفى دلا فيدا هو الذى قدر كتاب ابن المقفع حق قدره فى ذلك الجزء منه الذى حفظ لنا القاسم منه الشىء القليل ، والذى لا بد أن يكون الناحية الإيجابية من طعنه فى الإسلام ، وأعنى بهذا الجزء دفاعه عن المانوية الذى لا يمكن أن يكون مجرد معول لجأ إليه عرضا لهدم قواعد الدين الرسمى ، وإنما يبدو حتى من القليل الذى بقى لنا منه هدى لمن لم يدخلوا فى دعوته[1] . أما أن عرضه لمذهب المانوية فى خلق العالم عرضا مطابقا للمذهب بطريقة منظمة أو بتلميحات موجزة يدخل فى نطاق الكتاب فذلك يتضح من الشذرة المتعلقة بجهنم (ص ٤٩ ؛ ص ١١٥ من الترجمة)[2] ؛ ولكن الذى يسترعى النظر حقاً هو تلك الدقة التى بها يعرض

= ص ٢٥ س ٢٣ ، (نقد وتهكم بإله القرآن) ؛ ص ٢٦ س ٧ (ضد الرسول) ؛ ص ٢٦ س ٢٠ إلى ص٢٧ س ٤ (ضد التصديق الأعمى) ؛ ص ٢٨ س ١٩ إلى ص ٢٩ س ١ (ضد الإسلام) ؛ ص ٢٩ س ١٤ (ضد الرسول أيضا) ؛ ص ٣١ س ١١ — ١٢ ؛ ص ٣٢ س ١٨ — ١٩ ؛ ص ٣٣ س ٦ ، ص ٣٤ س ٣ ، ١٠ ، ٢١ ؛ ص ٣٥ س ٧ — ٨ ؛ ص ٣٨ س ١٩ ؛ ص ٣٩ س ١ ، ٤ — ٥ ؛ ص ٤٣ س ١١ — ١٢ ، ص ٤٤ س ٣ — ٤ (نقد العقائد الإيمانية القرآنية أيضا) ؛ ص ٤٩ س ٢٠ — ٢٥ (جهنم المانوية ؟)

(١) راجع ص ١٤ س ٧ — ٨ (٢٧ — ٢٨ من الترجمة) : « وقال فى كتابه : زعم لبعض من دعا أن الذى دعاه إليه رجاؤه فيه الهوى » ؛ فكأن الأمر يتعلق إذاً بدعوة حقيقية !

(٢) هكذا يفهمه كل من جويدى وبرچشتريسر . أما ليفى دلافيدا فيفضل أن يفهم النص على أنه يشير إلى اعتقال أبناء النور فى داخل الظلمات ، وهذا رأى يؤيده تصحيح نيبرج ، وفقاً لمخطوطة برلين للكلمة غير الواضحة : « أهل الأديان » ص٤٩ س ٢١ ، إذ أبدل بها : « أهل الأركان » (العناصر [الخمسة] المضيئة) . ومع هذا فإنى ألاحظ أن اتفاق الترجمة التى اقترحها ليفى دلافيدا فى « الشرق الحديث » *Oriento Moderno* ، ٨٦ تعليق ، مع التفسير التالى لها على قيام الثالوث الثانى بعملية التحرير يبدو أنه لا يحسب حساباً لكون النص يقدم لنا جملة شرطية ذات انفصالين : « فإن كان الوكيل حفظ السور فهذه أمانة ... وإن لم يحفظه ... كان السور كما لم =

ابن المقفع نظرته فى العالم وتلك الدرجة من الإيمان واليقين التى يكشف عنها فى كتابه . فهنا الركن الأساسى فى شخصية ابن المقفع العجيبة .

يتضح من الشذرات الباقية أن شك ابن المقفع الممزوج بالسخرية فى هذا الكتاب لا يوجد إلا فى حجاجه ضد الإسلام ؛ ولا يبدو لى شىء منه فى الأقوال الموجزة الإيجابية المتعلقة بمذهب المانوية ، تلك الأقوال التى يعرضها فى دقة ويقين تام وغيرة دينية صادقة وبخاصة فى حمده للنور[1] . لهذا أنكر أن يكون ابن المقفع قد استخدم المانوية ، ذلك الدين الشائع فى ذلك العصر وفى تلك البيئة ، من أجل الطعن فى الإسلام ، دون أن يكون هو نفسه مؤمناً بها إيماناً صادقاً[2] ؛ فليس موقف الشك ما نلمحه هنا من معارضة دين بدين ونظرة فى خلق العالم بنظرة أخرى ؛ بل لا يمكن التحدث هنا عن عصبية قومية من جانب ابن المقفع الفارسى نحو المانوية ، ذلك الدين العام أولاً وبالذات ، الخالى من

= يكن » ، وهذان الانفصالان يغنمان من الترجمة المقترحة والتفسير المبنى عليها . وبالجملة يبدو لى أن قراءة جويدى وتفسيره هما الأحسن .

(١) هذه النقطة تجعل موقف ابن المقفع مختلفاً كل الاختلاف عن موقف ابن الروندى الملحد . فإذا كانت أسلحة الهجوم على الإسلام واحدة فى جوهرها لدى كليهما ، كما بين هذا جويدى جيداً ، ص يط — ص ك ، فإنه بينما الهجوم عند الأول متلو بإيمان إيجابى ، نجد أن ابن الروندى — لو كان لنا أن نبدى حكماً على أساس مايقوله خصومه عنه وعن مؤلفاته (إن كتاب « فضيحة المعتزلة » الذى رد عليه الخياط بكتاب « الانتصار » يبدو أنه كان مجرد هجوم على المعتزلة بحسبانها هى الأخرى مبتدعة وملحدة ، باسم شيعية معتدلة) هو الملحد الحقيقى الذى يضع معرفته بالكلام فى خدمة كل بدعة وكل دين ضد الإسلام .

(٢) كما يرى على العكس من هذا جويدى ، ص يب ، وص كج ، الذى يخفف مع هذا مثل هذا التفسير ، مشيراً إلى إمكان وجود عطف ، جزئى على الأقل ، من جانب ابن المقفع نحو مذهب المانوية .

كل رابطة قومية ونزعة عصبية[١] . ولإيضاح تلك الظاهرة التي تبدو في كتابه هذا ، ظاهرة إيمان ابن المقفع بالمانوية وهو الشاك ، يجب علينا أن نعيد إلى الذاكرة طابع تلك الحركة كما كشفت عنه البحوث الحديثة التي أماطت لثام الأساطير الجامعة المعقدة حتى نفذت إلى أعماق أصولها ، ناظرة إليها بحسبانها محاولة غنوصية هائلة لتفسير الكون والإنسان تفسيراً طبيعيا ومن ناحية الخلاص في بعض الأحيان على أساس أفكار يونانية عقلية مثل Θεός (الله) ، ὕλη (الهيولى) ، νοῦς (العقل) ، Ψυχή (النفس)[٢] . وأنا أدرك تمام الإدراك ما يجب على المرء من الاحتياط الضروري في افتراض أن مفكري العراق وأدباءه قد امتد إليهم منهم هذا الأصل الجوهري لمذهب المانوية والإيقان به . فمذهب المانوية لا بد أن يكون قد فقد أصله العقلي الفلسفي البحت بتأثير انتشار الأساطير والرموز التي هي أقرب إلى تلك النفوس الساذجة البسيطة التي وجد عندها ملاذه في سيره نحو الشرق[٣] . ومهما يكن من درجة الدقة التي يصعب تحديدها

---

(١) قارن هـ . هـ . شيدر : « الصورة الأولى لمذهب المانوية وتطورها » ، في محاضرات مكتبة ڤاربورج ، ج ٤ ، ليپتسك سنة ١٩٢٧ ص ١٢٨

H. H. Schäder : "Urform und Fortbildung des manichäischen Systems", in, *Vorträge der Bibliothek Warburg*

(٢) هذا هو تفسير شيدر في البحث المهم المشار إليه آنفا ، وهو بحث يقوم على نقد دقيق وسعة في المعرفة والمذهب (قارن أيضا لشيدر نفسه : « الشرق وتراث الإغريق » في « مجلة الحضارة القديمة » *Die Antike* ج ٤ سنة ١٩٢٨ ص ٢٠٦ — ٢٥٧) . وفيما يتصل برأيه الذي يرى في ابن ديصان مركب نقل للأفكار الهلينية في الفلسفة الرواقية في الطبيعة إلى ماني ، ويرى في مرقيون الملهم لأفكاره المسيحية — أرى من المفيد الفقرة من المسعودي (ج ٨ ص ٢٩٣) التي تشير إلى ترجمات ابن المقفع وآخرين غيره من الملاحدة لمؤلفات ماني وابن ديصان ومرقيون ، واضعاً بهذا هذه الشخصيات والمذاهب الثلاثة في مستوى واحد .

(٣) من الطبيعي أن الأمر لم يعد أمر التحدث بعد عن « الغنوص الهليني =

ولو أنى أعتقد أنها دقة مدهشة ، تلك الدقة التى بها استطاع وعرف أن يميط اللثام عن تلك الحلول التى اقترحها « مانى » للمُعَمَّيات فى كتابه[١]، فليس من شك فى أن ذلك قد بدا لابن المقفع كنوع سامٍ من الدين ، دين استطاع أن يحل مسألة الشر فى علاقته بالإلٰـه الخالق وهى المشكلة التى حيرت الأديان غير الثنوية ؛ وأن يفسر مسألة حرية الإرادة تبعاً لنظرته فى الكون[٢] ، وأن يفرض أخلاقاً قوية عقلية ؛ حتى استطاع بذلك كله أن يهدئ تلك الروح المعذبة المضطربة التى خلف لنا « باب برزويه » شاهداً عليها ، ذلك الباب الذى إن لم يكن ابن المقفع قد ألفه كله فمن المحقق أنه تناوله بالتغيير والإضافة من عنده .

وهناك فرضان للتوفيق بين الشك الصريح الذى نراه شاملا لكل الأديان المنزلة والذى يرن صداه فى التناظر ضد الإسلام ، وبين إيمانه بأقوال المانوية . أول هذين الفرضين بسيط جداً ولعله أقل احتمالا من الناحية النفسية ، وهو ذلك الذى قاله البيرونى عينه فى الفقرة التى تدل دلالة قاطعة على نسبة الفصل الشكوكى من « باب برزويه » إلى ابن المقفع . فقد قال عن ابن المقفع إنه زاد باب برزويه « قاصداً تشكيك ضعيفى العقائد فى الدين

= المشرق » فيما يتعلق بالمانوية الصينية ! ولكننا هنا لا نزال فى العراق ، كعبة هذا الدين ، بالقرب من نفوس مملوءة بالحضارة أنشأت تتصل بالفلسفة اليونانية . وليس من المجازفة كثيراً القول بأن مذهب مانى فى معناه الأعمق كان بالنسبة إلى الصفوة منهم مفهوما بدرجة كافية .

(١) ولا شك فى أن تفسيراً للأسطورة الرمزية كان موجوداً أيضا فى كتاب ابن المقفع هذا ، فيما يتعلق بإشارة القاسم (ص ٨ س ١٧ — ص ١٨) التى تقول بأن ابن المقفع كان يرى النور = الحكمة ، الظلمة = الجهل . فنحن إذن قد صرنا خارج الأساطير البحتة .

(٢) راجع فيما يتصل بهذا : شيدر ، البحث المذكور ، ص ١٠٢ .

وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية » . وهذا ممكن غير أنه قليل الاحتمال إذا ما اعتبرنا وضوح التعابير والخيالات التى استعملها فى ذلك وتأثيرها الذى يكون فى هذه الحالة ذا حَدَّين ، أعنى أنه يصلح للايجاب والسلب معاً ؛ ولكن الأرجح عندى (ولو أن المسألة احتمالية فحسب ، ما دامت تعوزنا الأدلة التاريخية) هو أن ابن المقفع تطور من الشك العقلى الذى عبر عنه فى « باب برزويه » إلى وحى الأسطورة (μῦθος) أو اللوغوس الثنوى (λόγος) الذى وجدت فيه نفسُه حَلَّ المسائل الأبدية ؛ مع احتفاظه بما يقتضيه العقل ويؤمن به وبسمو الإيمان وصفائه أولاً وقبل كل شىء فى حِجاجه ضد الإسلام كما هو فى القرآن والذى كان ما يزال ساذجا بسيطا[1] . ولعل تهمة الزندقة التى لم تنفصل عن اسم بن المقفع قد دفعت المتأخرين مثل البيرونى إلى تفسير هذه المقدمة للدعوة المانوية وتلك الصفحات التى أملاها عليه شكه القديم بطريقة طبيعية صريحة دون أن يخفى وراء ذلك غرضا آخر . وأرى أنه يجب رفض الاحتمال الثالث العكسى وأعنى به احتمال كون ابن المقفع قد تأدى من المانوية إلى الشك . وذلك لأن دين آبائه لم يكن المانوية وإنما كان المزدكية ، بينما يبدو تعلقه بالمانوية دائما مرتبطاً بنشاط ابن المقفع العقلى أى تطور نضوجه ؛ بغض النظر عن أن المحتمل جدا فى نظر من ينظر إلى المسألة معتمدا على معرفته بالظواهر الدينية التاريخية فى ذلك

---

(١) يدلنا « رد » القاسم على أن هجمات ابن المقفع تتجه خصوصا إلى الأفكار التشبيهية التجسيمية التى لها آثارها فى القرآن ، والتى حاول المعتزلة أن يجعلوا همهم فى تفسيرها وتبريرها . واتجه نقد ابن المقفع خصوصا إلى فكرة « العدل » (راجع ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٥ الخ) ، وكان من أحكم الطعنات التى توجه إلى الخصم الذى سيشعر حينئذ بأنه طعن فى الجراح المفتوحة لموقفه المذهبى . وفى داخل نطاق مسألة « عدل الله » — ويمكن أن يقال إنه رد على الأقل كضرورة مبدأية — كان موقف ابن المقفع أقل بعداً مما يبدو فى الظاهر من موقف معارضه المعتزلى (القاسم) .

العصر وفى تلك البيئة أن يكون التحول من الشك إلى الدين المخالف المضطهد الذى عاش عليه كثيرون من هؤلاء النفوس فى حماسة وغيرة ، لا العكس ، فإن ذلك يوافق عصراً آخر وحضارة أخرى . ومن المؤكد أن ابن المقفع لم يمت لأنه زنديق ، بل مات — وهو زنديق — ، وستظل ذكرى إيمانه والمؤلفُ الذى فيه وصفه فاضحَيْن ومثيرَيْن لذلك البغض الدينى الذى وصفه بمهارة وحذق وإن لم يكن هو نفسه خالياً منه .

هذا الموقف العقلى الذى وقفه ابن المقفع الذى يصل إلى المانوية مبتدئاً بالشك العقلى دون أن ينكر نقطة الابتداء نفسها ، باقياً دائماً على كرهه للدين السائد فى هذا العصر ، يكشف لنا عن خلو كتبه كلها من التدين خلوًّا تاما ويوضحه . وقد رأينا من قبل خلو « كليلة ودمنة » و « الأدب الكبير » من كل عنصر للتدين الإسلامى والتقوى ولم نجده يؤكد إلا مطالب الأخلاق والجماعة الإنسانية . ولسنا نستطيع أن نحكم على العنصر الشخصى فى الشذرات المتناثرة المشكوك فيها من تراجمه الفارسية إلا قليلا ؛ غير أنه تتبدى حقاً من خلال كل مؤلفات هذه الشخصية نزعةٌ إنسانية عامة أشار إليها بوضوح عنده شيدر[1] ، مختلفة كل الاختلاف عن أشكال الأدب الإسلامى المتقدمة المختارة . والرواية الأدبية العربية الإسلامية التى لا تعنى بالناحية الشكلية من التاريخ الأدبى جاهلةً غالبا وغيرَ مهتمة بقيمة الموضوع والعقلية والاتجاه الفكرى ، هذه الرواية بينما تحتفظ لنا بذكرى طيبة عن براعته من ناحية الكتابة والأسلوب لم تكد تأبه لأهمية هذه الشخصية

(١) فى « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » ، سلسلة جديدة جـ ٧ (سنة ١٩٢٩ (ص ٧٨ ZDMG, n. s., VII (1929), LXXVIII : « عنده كما عند من بقربه من الرجال رغبة شديدة فى العلم والتثقيف . وتلك هى النزعة الانسانية العامة التى ظلت حية فى السنَّة المانوية » .

ذات النهاية المحزنة والمتصل ذكراها بذكرى من عاصرها من الأدباء والشعراء المتهمين فى عقيدتهم . تلك الذكرى التى نظر إليها المتأخرون فى فزع ممزوج بالاحترام والإجلال . ولكن إذا كان الأصمعى العالم قد توقف فى أن يلاحظ لدى ابن المقفع استخدام أداة التعريف مع كل وبعض[١] ، ذلك الاستعمال الذى لا يقره ، وإذا كان القاسم انتصر بسهولة فى مسألة خلط ابن المقفع بين « العامين » و« العمين »[٢] الذى وجده فى نثره ، فمن الحق أن الروح الحديثة ترى فى هـذه الشخصية المعقدة العظيمه التى بزغت فى أوائل العصر الذهبى للحضارة الإسلامية والتى تكاد تختفى وراء هذا العمل الكامل (وهو ازدهار الحضارة) ، الوسيطَ بين الحضارة الجديدة وبين القيم الخالدة للحضارات الشرقية الآفلة . ولا بد أن يكون قد جمع بين اللذة العلمية التى كانت عند رجل مثل حنين بن اسحق وقسطا ابن لوقا وبين قدرةٍ فنية فائقة تحصِّل وتبحث ، متشبعةٍ بالبلاغة كما إقتضى ذلك العصر وتلك البيئة ؛ وفوق ذلك كله ضميرٌ حى حساس ، وقلقٌ خاص بالنفوس السامية النبيلة قد أملى عليه تلك الصفحةَ المرة من « باب برزويه » وإضافة « محاكمة دمنة » ، واعتراف بقيمة الزهد بحسبانه تعففاً فى كتاب « الأدب الكبير » ، وأخيرا تناظر عنيف فى دفاعه عن المانوية . أجل ، لم يصلنا من تأليفه إلا جزء صغير مشوه ومبتور ومملوء بالمحن الباعثة على الرحمة والشفقة ؛ ولكنا نرى حتى من خلال هذه البقايا المتهم فيها والتى عفى عليها الزمن ، واحدةً من تلك الشخصيات الفذة وأكاد أقول « الغربية » التى يقدمها لنا تاريخ الشرق الأدبى والمدنى .

---

(١) انظر فى هذه المسألة : عباس اقبال ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) الرد ص ١٠ س ١٧ وما بعده (ص ١٨ من الترجمة) .

باب برزويه* « فى كليلة ودمنة »

لپاول كِرَوْس

تحدث جبرييلى فى مقاله عن ابن المقفع[1] بالتفصيل عن « باب برزويه » وهل هو لابن المقفع المترجم العربى نفسه أم لا . وقد أجاب عن هذا السؤال متوسعاً فى براهين هرتل ونيلدكه ، ومعتمداً خصوصاً على أقوال البيرونى (كتاب «الهند» طبع سخاو ، ص ٧٦ س ٨—١٣) التى نبه إليها أول من نبه عباس إقبال فقال : إن القطعة الوسطى ، والتى يُنتقد فيها الدين ، من هذا الباب ترجع كلها إلى ابن المقفع الذى وضع قناعا على عقيدته الإلحادية بأن أدخلها فى ترجمة برزويه لنفسه . « والقطعة كلها بما فيها من جرأة فى التفكير ، ومغزى لقصصها تهكمى لاذع ، لا يمكن أن تكون قد كتبت وانتشرت باسم مؤلفها فى دوائر بلاط فارس الساسانية ، ودينها الرسمى هو المزدكية ؛ أو فى المجتمع الإسلامى فى القرن الثانى . لكن من المحتمل جداً أن عقلا يسوده الشك والتفكير كما كان عقل ابن المقفع قد أظهر فى هذه القطعة آراء ناسباً إياها إلى شخص أجنبى ووسط بعيد غريب » . ولا يستطيع جبرييلى تحديد الدخيل على هذا الباب ، لكنه يرى من المؤكد حقاً أن ابن المقفع هو الذى كتب الجزء الخاص بخلو معارفنا الدينية من اليقين وقيامها على أساس غير وطيد ، وتناقض الأديان فيما بين بعضها البعض .

(*) نشر فى « مجلة الدراسات الشرقية » RSO بالألمانية تحت عنوان : « حول ابن المقفع » جـ ١٤ سنة ١٩٣٣ . وقد ترجمنا الجزء الأول من هذا المقال فى كتابنا « التراث اليونانى » .

(١) انظر المقال السابق .

وبالنظر إلى ما يقوله البيرونى أرى ممكنناً أن يكون ابن المقفع قد أدخل على النص الذى أمامه أشياء من عنده . غير أنى أرى أن فى استطاعتى أن أجعل من المحتمل أنه كان بالنسخة الفهلوية أقوال شكوكية عن الأديان ، جعلها ابن المقفع نقطة البدء لما أضافه .

يتحدث برزويه فى مستهل هذا الباب عن الأديان ، فيقول متحدثا عن شبابه : « وكنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه ، لا يبتغى إلا الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة» (« كليلة ودمنة » ، طبع المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٦ ص ٧٥ س ١ — ٣) — فاشتغل بالطب ، ولكن مهنة الطب لم ترضه وشك فى قدرته على تخفيف آلام المرضى مع ما ناله من مكافأة كبيرة من الملوك . « فعدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها ، فلم أجد عند أحد ممن كلمته جوابا فيما سألته عنها ، ولم أر فيما كلمونى به شيئا يحق لى فى عقلى أن أصدق به ولا أن أتبعه » . فحاول أن يجد رضى نفسه فى التزام دين آبائه وأجداده ولكنه أخفق . فرجع إلى طلب النسك (ص ٨٤) ورأى أن يقتصر « على عمل تشهد النفس أنه يوافق كل الأديان » (ص ٨٠) . وكان من بين ما دفعه إلى طلب النسك ما رآه من « أن الدنيا كلها بلاء وعذاب . أوَ ليس الإنسان إنما يتقلب فى عذاب الدنيا من حين يكون جنينا إلى أن يستوفى أيام حياته ؟ » (ص ٨٥ — ٨٦) ، وقد استفاد هذا من دراسة كتب الطب (الهندية) . وأخيرا عزم على تعريف قومه بكتاب الحكمة الهندى وأمل أن يصادف فى باقى أيامه زمانا يصيب فيه دليلا على هداه وقواما لأمره (ص ٩١) .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن النص الأصلى لباب برزويه قد تحدث

عن الأديان . فالرجل الذى لا يرضيه الطب يلجأ أولا إلى الأديان عسى أن يجد فيها عزاءه . ولا يمكن أن يفهم طريقه إلى النسك إلا بمروره بمرحلة الأديان الإيجابية ونقده لها . وعلى هذا فلا بد أن يكون «باب برزويه» قد تكلم على نحو ما عن الأديان وكيف شك برزويه فيها .

وهذا الغرض يتحقق من ناحية أخرى اعتماداً على وثيقة هى إحدى هاتيك الوثائق القليلة التى حفظت لنا من عصر كسرى أنوشروان ، ذلك العصر المهم فى تاريخ التفكير فى الشرق الأدنى ، وأعنى بهذه الوثيقة كتاب «المنطق السريانى» لبولس الفارسى . وقد كُتِب فى قصر كسرى ، وأهدى إليه[1] . ونص هذا الكتاب طبعه لاند I. P. N. Land فى Anecdota Syriaca IV (Leiden 1875) (أخبار سريانية) ff. 1-32 وإلى جانب نص الكتاب ترجمة لاتينية (ff. 1-30) ثم شرح موجز (p.99-113) . وكان رينان أول من اعترف بقيمة هذا النص ، فترجم مقدمته التى تعنينا كثيرا هنا فى رسالته : *De Philosophia peripatetica*

(١) انظر : و . ريت : «موجز فى تاريخ الأدب السريانى» ، لندن سنة ١٨٩٤ ص ١٢٢ وما يليها W. Wright: *A short History of Syriac Literature* (London 1894), p. 122 f. . وقد نسى بومشترك Baumstatk فى كتابه *Geschichte der Syrischen Literatur* (Bonn 192ح) الفصل المتعلق ببولس الفارسى — . عنوان الكتاب هو : « مقالة بولس الفارسى عن منطق أرسطو الفيلسوف لكسرى الملك » . وأول عبارة بالكتاب تتضمن التقديم : « على كسرى السعيد ملك الملوك وأفضل الناس ، (يقول) بولس ، عبدك ، السلام » . ومن الجدير بالملاحظة أن الصفة «جرانا» ، السعيد ، هى ترجمة للقب أنوشروان ، كما تفضل فنبهنى الأستاذ هـ . هـ . شيدر . ولا أعلم أن هذا الكتاب قد بحث بالتفصيل من ناحية إيرانية (اللهم إلا ملاحظات نلدكه فى كتابه *Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden* (Leiden 1879), p. 161 f.) ، وهذا البحث شائق للغاية . وإلى جانب خصائص المقدمة التى سنتحدث عنها فيما بعد يلاحظ أنه يذكر غالبا ألفاظاً من الفارسية الوسطى كأمثلة فى باب البحوث اللفظية .

— ١٩ ص *apud Syros Commentatio historia* (Paris 1852)
٢٢ (فى تاريخ الفلسفة المشائية عند السريان ، طبع باريس سنة ١٨٥٢) .

ولا نكاد نعرف عن صاحب هذا الكتاب إلا ما هو موجود فى عنوان المخطوطة وتوقيعها . فى هذا التوقيع يُذكر أنه من دير شر[1] . ويقول ابن العبرى[2] الذى عرف الكتاب إنه برز فى علوم الفلسفة كما برز فى علوم الدين وكان يصبو إلى أن يصبح مطرانا لفارس فلما تحطم أمله صار منجماً .

ومقدمة كتاب المنطق هذا مقدمة فى مدح الفلسفة . فهى عند بولس أرفع علم يمكن الإنسان تحصيله ، ودرجة اليقين فيها أكبر مما فى العلوم الأخرى جميعها . ومن بعد يتحدث بولس عن التعاريف المختلفة للفلسفة كما كان يفعل شراح أرسطو الإسكندرانيون ، ويستشهد بثلاث آيات من الكتاب المقدس (سفر الأمثال : أصحاح ٨ آية ١٩ ؛ سفر الجامعة : أصحاح ٢ آية ١٤ ؛ الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ، : أصحاح ١٣ آية ١٢) لبيان سمو الفلسفة على كل ضرب آخر من ضروب المعرفة . وقد عنى المؤلف على وجه التخصيص بتحديد الفارق بين العلم والإيمان فهو يقول إن المعرفة الدينية معرفة ظنية ؛ ولهذا كانت المذاهب الدينية فى تناقض بعضها مع بعض .

---

(١) ديرشر (أو ديريشر ؟ راجع لاند ، الموضع المذكور ص ٩٩) هى القراءة الصحيحة بدلا مما يقوله لاند ، كتصحيف للكلمة ريو أردشير أو ريف أردشير ، وهى محل إقامة مطران فارس أو صورة موجزة لهذا الاسم (قارن « ريشهر » العربية و « ريشير » الأرمنية) . راجع ج . ب . شابو فى كتابه Chabot : *Synodicon Orientale* (المجامع الدينية الشرقية) ص ٥٨١ ؛ ج مركار ، ايرانشهر Erānšaher ص ٢٧ ، ص ١٤٧ . هذه الملاحظات أرسلها إلى الأستاذ هـ . هـ . شيدر .

(٢) التاريخ الدينى جـ ١٢ ص ٩٧ *Chron. Eccles.* .

وهذا يفضى به إلى هذه النتيجة وهى أن العلم (الفلسفى) أسمى وأرفع من الإيمان .

فكأنه إذاً يتحدث عن خلو المعرفة الدينية من اليقين على نحو مشابه لما ورد فى « باب برزويه » . وقبل أن أقوم ببيان أهمية هذه القطعة ، أود أن أضع كلاً من الجزأين المتشابهين المتناظرين من برزويه[1] وبولس الواحد بجانب الآخر .

برزويه

« وجدت الأديان والملل كثيرة : من أقوام ورثوها عن آبائهم ، وآخرين خائفين مكرَهين عليها ، وآخرين يبتغون بها الدنيا ومنزلتها ومعيشتها . وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى ، وأن من خالفه على ضلالة وخطأ . والاختلاف بينهم فى أمر الخلق ومبتدأ الأمر ومنتهاه وما

بولس الفارسى

(طبع لاند ص ٢* س ٦ وما يليه)

الإنسان إما أن يبحث عن المعرفة بنفسه فيجدها ، وإما أن يتلقاها عن غيره . وهذا يكون إما بأن يوصل إنسان المعرفة إلى الآخر ، أو يبلغها الناسَ على صورة رسالة بحسبانها آتية من جوهر روحى[2] . ولكن من الجلى أنهما يتنازعان ويناقض كل منهما الآخر . فهناك من

---

(١) [هذه القطعة غير موجودة بالطبعات المصرية كلها . ولكنها موجودة فى طبعة لويس شيخو ببيروت سنة ١٩٠٥ ص ٣٣ — ٣٤ . والمؤلف قد أوردها نقلا عن ترجمة نلدكه الألمانية] .

(٢) (يولفنا دين منه فشنطايه من برنشا لبرنشاه متيبل ومنه انشين بشليحوتا كامه دمن متيدعنا امدو) . راجع فيما يتعلق بالعبارة (متيدعنا) أى « كائنات روحية هى الملائكة » ، پينه وسمث ص ١٥٦٢ Payne-Simth وفى نفس الموضع أيضا (صورتا متيدعنيتا) أى « صورة روحية » ؛ ولعلها ترجمة للكلمة اليونانية νοητά =

سوى ذلك شديد . وكلٌّ على
كلِّ مُزْرٍ ، وله عدو معيب .
فرأيت أن أواظب علماء أهل كل
ملة ورؤساءهم ، أو أنظر فيما يصفون
ويعرضون ، لعلى أعرف بذلك
الحقَّ من الباطل ، وأختار الحق
منه وألزمه على ثقة ويقين ، غير
مصدِّق بما لا أعرف ، ولا تابع
ما لا أعقل . ففعلت ذلك وسألت
ونظرت فلم أجد من أولئك أحداً
إلا يزيد فى مدح دينه ، وذم دين
من خالفه . فاستبان لى أنهم
بالهوى يحتجون وبه يتكلمون ،
لا بالعدل . ولم أجد عند أحدٍ منهم
فى ذلك صفة تكون عدلا وصدقاً

من يقولون إنه لا يوجد غير إله واحد ،
ومن يقولون إنه غير واحد ؛ ثم من
يقولون إنه شامل للاضداد ومن
ينكرون ذلك ؛ ثم من يقولون إنه
قادر على كل شىء[1] ومن ينكرون
أن تكون له قدرة على كل شىء ؛ ثم من
يقولون إنه خالق الكون وكل ما فيه ،
ومن يحسبون إنه لا يتأتى أن يكون
خالقاً لكل شىء ؛ ثم من يقولون
إن العالم خلق من العدم ، ومن
يقولون إنه خلقه من الهيولى ؛ ثم
من يقولون إن العالم قديم وأبدى ،
ومن[2] يقولون غير ذلك ؛ ثم
من[3] يقولون إن الإنسان مختار ،
ومن ينقضون ذلك . وهناك غير

= (أى معقولات) . وقد شك لاند فى أن يكون النص صحيحاً فترجم العبارة هكذا :
Discipilinae vero pais simpliciter ab homine ad hominem traditur ; partem eius nonnulli argumentando (!) utpotę e rebus iam notis (!) protulerunt.

أما رينان فيترجم فى شىء كبير من التصرف (الكتاب المذكور ص ٢١) على النحو الآتى : «Magisterium rursus duplex est : unum simpliciter ab homine ad hominem defertur ; alterum ab hominibus illustribus (!), apostulatu praedicatur».

(١) احذف (و) قبل (دبكلمدم) .
(٢) فى الأصل : (أكلو) ولعلها كما يرى لاند : (الفو) .
(٣) أكمل النص كما يرى لاند هكذا : (وايه) .

يعرفها ذو [فى الأصل المطبوع : ذوى] العقل ورضى بها .

هذا ، الشيء الكثير يقولون به ويفردون له مكانا فى سننهم التى يتضح منها كيف تتناقض وينازع بعضها الآخر . لهذا ليس فى وسعنا أن نأخذ بهذه المذاهب ، وأن نؤمن بها بل لا يمكن أن نأخذ بالواحدة دون الأخرى ، أو أن نختار هذه ونهمل تلك[1]. لذلك كنا فى حاجة إلى المعرفة الواضحة التى بها نؤمن بالواحد ونطرح الباقى . بيد أنه لا يوجد دليل بيّن على هذا ، لهذا كانت هذه المذاهب تتجه إلى الإيمان كما تتجه إلى العلم . أما العلم فموضوعه ما هو قريب واضح معترف به ، أما الإيمان فموضوعه ما هو بعيد خفى لا يدرك بالنظر . الأول لا شك فيه ، والثانى يداخله الشك . وكل شك يولّد الشقاق ، بينما عدم الشك يوجب الاتفاق . ولهذا كان

(١) أخطأ رينان ولاند فهم معنى هذه العبارة ، فأضافا بعد (ارا) كلمة (الا) محذوفة . ولذا فإن لاند يترجمها هكذا : «nec quidquam igitur nobis nisi (!) ut alterum accipiamus alterum relinquamus etc »

العلم أقوى[1] من الإيمان ، وكان
أحدهما أفضلَ من الآخر . لأن
المؤمنين حينما يخوضون فى مسائل
الإيمان يسلبون العلم حجج دفاعه
بقولهم : «ما نؤمن الآن به سنعلمه
فيما بعد » .

والصلة بين هاتين المقدمتين (مقدمة بولس الفارسى وباب برزويه) واضحة كل الوضوح . ففيهما يُتخذ تناقض المذاهب الدينية فيما بينها وبين بعضها ، دليلا على أن المعرفة الدينية غير يقينية . وهذا التناقض يُوضَّح فى بعض الأحيان بنفس الأمثلة . وهما يشيران كذلك مرتين ، ولو بطريقة مختلفة بعض الشىء ، إلى أن المعرفة الدينية مرتبطة بالعادة المتبعة والسنة .

وقد حاول لاند Land فى شروحه (الكتاب المذكور ص ١٠٤ وما يتلوها) أن يبرهن على أن المذاهب التى ذكرها بولس الفارسى هى مذاهب المدارس الفلسفية اليونانية ، وقدم وثائق مفيدة خاصة ببعض هذه المذاهب من كتب الفلسفة اليونانية . ولكننا إذا نظرنا من هذه الناحية انحرفنا عن قصد المؤلف الذى أراد أن يعارض الفلسفة القائمة على البحث المستقل بالإيمان الذى منشؤه السنَّة ورسالة الرسل . لذا يحاول المرء عبثاً أن يجد فى كتب المتأخرين من الشراح الأقدمين ثَبَتاً لمتناقضات المذاهب الدينية مشابها للذى ورد فى كلام بولس . ومن جهة أخرى لم يسمع بأن نصرانيا نسطوريا قال بمثل الأفكار التى قال بها بولس الفارسى .

---

(١) سقطت هذه الكلمة من المخطوطة .

والجو الذى كان لمثل هذه الأفكار أن يعبر عنها فيه وأن تجد لها به صدى أولى بنا أن نبحث عنه فى قصر كسرى انو شروان الملك المستنير . وعندنا من الوثائق الكثير الذى يدل على ما كان للبحث الحر من مكانة فى نفس هذا السلطان الساسانى العظيم . ويكفينى أن أذكر هنا أن مدرسة الطب العليا بجُنْدَيْشاپور لم تبلغ أول ازدهارها العظيم إلا فى أيامه وأنه رحّب بالفلاسفة اليونانيين الذين طردهم يُستنيان من أثينا سنة ٥٢٩ . وحتى إذا لم نذهب إلى حد الوثوق برواية أجاتياس الإسْكُلائى Agathias Scholasticus التى تقول إن الملك نفسه كان أفلاطونيا وأنه أمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى الفارسية الوسطى ، فإنه يكفى دلالة على عنايته بالعلم أنه جعل من شروط معاهدة الصلح بينه وبين يُستنيان رجوع الفلاسفة المذكورين إلى أوطانهم سالمين . ومن بين هؤلاء پرسكيانُس Priscianus الذى حُفِظ لنا من مؤلفاته مختصر لاتينى من كتابه الذى أهداه إلى كسرى واسمه Solutiones de quibus dubitavit Chosröes Persarum rex [1] (أى الإجابات على ما شك فيه خسرو ملك الفرس) وكانت تدور فى مجلسه مناظرات دينية .[2]

---

(١) طبعه بيوتر I. Bywater فى Supplementum Aristotelicum, Bd. I, . 2, Berlin 1886

(٢) انظر تاريخ الفرس والعرب أيام آل ساسان تأليف نلدكه ص ١٦١ Th. Nöldeke, *Geschichte der Perser und Araber zur* Zeit *der Sasaniden* p. 161 f. ; وكتاب لاند Land, op. cit. المذكور آنفا ص ٩٩ وما بعدها . G., p. 99 f.; وكتاب برون عن (الطب العربى) طبعة كمبردج E. G. Browne, *Arabian Medecine* (Cambirdge, 1921), p. 19 f. ؛ E. Renan op. cit. p. 16 ff.; ص ١٩ وما بعدها .

كان بولس وبرزويه فى قصر أنوشروان . فإذا تشابهت أقوالهما فى الأديان ، فإن ذلك علامة من علامات الروح التى سادت بلاط الملك المستنير . ومما يجدر ملاحظته أن بولس الفارسى لا ينكر المسيحية فى مقدمته وأنه يسوق شواهد على أقواله من الكتاب المقدس ، ولكنه يخفى أصلها دائما . وقد وصل فى أحد هذه الشواهد وهو : « الحكيم عيناه فى رأسه ، أما الجاهل فيسلك فى الظلام » (سفر الجامعة : أصحاح ٢ آية ١٤) إلى حد أنه ينسبه إلى فيلسوف[١] . وكل أقواله مطبوعة بطابع قصر الملك .

وعلى الرغم من هذه المشابهة فلا يخلق بنا أن ننسى ما بين بولس الفارسى وبرزويه من فروق . فليس بفارق بينهم أن يكون بولس الفارسى قد توجه إلى ملك بينما يكتب برزويه للقارىء المثقف . ولكن الفارق الإنسانى بين كلا الرجلين كبير . فليس هناك من صلة بين بولس ، ممثل الفلسفة الغربية ، وبين برزويه الذى عكف على النسك البوذى . يرى الأول أن العلم أعظم خير للانسان ، بينما يضرب الثانى صفحاً عن العلم ويجد العون فى الأخلاق الطاهرة . بل إن وجهتى نظرهما نحو الأديان على الرغم من تشابه ألفاظهما مختلفتان جوهريا : فبولس يرى أن المعرفة الدينية لا يمكن أن تستغنى عن الفلسفة ولن يجد الدين ما يبرر وجوده إلا إذا اتحد بها ؛ أما برزويه فقد اطرح الأديان وابتعد عنها .

وأهمية بلاد الفرس فى تاريخ الفكر أنها كانت أولا وقبل كل شىء معبراً بين الغرب والشرق . ففى جُنْدَيشابور وفى مدارس فارسية عليا أخرى التقت النظريات اليونانية بالنظريات الهندية ، ولقحت كل منهما الأخرى . وبولس الفارسى وبرزويه أوضح مثال لهذا .

---

(١) النص ص ١ س ٢٥ هو : (شفير مدين هى دمن حد من فيلسوف انامرت) .

لقد اعتدنا أن ننظر إلى المانوية وحدها وما تفرع عنها من تيارات بحسبانها ممثلة للاتجاهات التنويرية فى الشرق ، وكان هذا هو السبب الذى حمل نلدكه ومن بعده جبرييلى على أن ينسبوا كل الجزء الذى به نقد الأديان من باب برزويه إلى المترجم العربى ، ابن المقفع ، الذى كان يبطن المانوية[(١)] .

ولكن بحثنا هذا قد أثبت أن المثقفين فى عصر أنو شروان كانوا أبعد ما يكونون عن اليقين الدينى والإيمان المخلص ، وأن أقوالا مثل التى قال بها برزويه كان لها نظائرها فى كتابٍ واحد ممن عاصروه .

تعليقات صغيرة على ابن المقفع وابنه*

لكَرْلو ألفونسو نَلينو

دعانى ما نشره الأستاذ ف . جَبْرييلى (مؤلفات ابن المقفع ، المجلد الثالث عشر ، سنة ١٩٣٢ ص ١٩٧ — ٢٤٧) والأستاذ بول كروس (حول ابن المقفع ، المجلد الرابع عشر سنة ١٩٣٣ ص ١ — ٢) فى هذه المجلة إلى طبع بعض تعليقات أخرى صغيرة جمعتها عَرَضاً منذ عهد بعيد أقدمها هنا كمواد أولية بسيطة يستطيع غيرى أن يستخدمها .

---

(١) كما ذكرت من قبل ص ١٤ أرى الآن أيضا من المحتمل أن يكون ابن المقفع قد توسع فى أقوال برزويه . والدليل على أنه ينتظر من ابن المقفع أن يقول بمثل هذه الآراء الحرة هو ما يقوله نلدكه فى الكتاب المذكور ص ٣ عن حلم الملك كيد .

(*) نشرت فى « مجلة الدراسات الشرقية » R S O بالإيطالية ج ١٤ ص ١٣٠ — ١٣٤ وهاك عنوانها فى الأصل : Carlo. A. Nallino : Noterelle su Ibn al-Moqaffa, e suo figlio .

(١) نستطيع بواسطة «معارضات القرآن» وعنوان : الدرة اليتيمة[١] وبوساطة مسائل مشابهة أن نفسر فقرةً للقاضى الشهير أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى الأشعرى (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) فى كتاب «إعجاز القرآن» (طبعة القاهرة سنة ١٣١٥ ص ١٨ = طبعة القاهرة سنة ١٣١٨ بهامش كتاب «الاتقان» للسيوطى الجزء الأول ص ٤٩ — ٥٠ = طبعة القاهرة سنة ١٣٤٩ ص ٣٥) :

«وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن . وإنما فزعوا إلى «الدرة اليتيمة» وهما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى . والآخر فى شيء من الديانات ، وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل . وكتابه الذى بيناه فى الحكم منسوج من كتاب بزرجمهر فى الحكمة ؛ فأى صنع له فى ذلك وأى فضيلة حازها فيما جاء به !؟ وبعدُ فليس يوجد له كتاب يدعى مدعٍ أنه عارض فيه القرآن . بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره . فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد . ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال فى الابتداء ، ثم يلوح له رشده ، ويتبين له أمره ، وينكشف له عجزه ؛ ولو كان بقى على اشتباه الحال عليه ، لم يخف علينا موضع غفلته ولم يشتبه لدينا وجه شبهته» .

(٢) وفى كتاب «المعلّمين» للجاحظ المحفوظ فى المختارات الجاحظية لعبيد الله بن حسان («كتاب الفصول المختارة» ، بهامش كتاب «الكامل»

---

(١) لو كان ما يقوله ابن خلكان فى حياة الحلاج (برقم ١٨٦ ، الجزء الأول ص ١٢٥ طبع ڤستنفلد = رقم ١٨١ من الطبعة المصرية) صحيحا ، فإن عنوان : «الدرة اليتيمة» قد استعمله الأصمعى من قبل .

المبرد طبع مصر سنة ١٣٢٣ — سنة ١٣٢٤ ، الجزء الأول ص ٣٢ — ٣٣) ما نصه :

« ومن المعلمين ثم من البلغاء التأدبين ، عبد الله بن المقفع ، ويكنى أبا عمرو ، وكان يتولى لآل الأهتم ؛ وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير ؛ وكان جوادا فارسا جميلا ؛ وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله[1] ؛ وكان يتعاطى الكلام ولم يكن يحسن منه لا قليلا ولا كثيراً ؛ وكان ضابطاً لحكايات المقالات ولا يعرف من أين عز المغ (هكذا !)[2] ووثق الواثق . وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خلص المتكلمين ومن الناظرين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر فى آخر رسالته الهاشمية : فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم ردئ المدخل فى مواضع الطعن عليهم ، وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عندذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بَعُد به فيه ، كالذى اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه فى النحو والعروض أن أدعى العلم بالكلام وبأوزان الأغانى فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه إلا بخذلان الله تعالى » .

وهذه الفقرة ترجمها إلى الإنجليزية هارتفج هرشفلد Hartwig

(١) يظهر أن هذا القول مناقض لما يقوله الجاحظ فى مكان آخر ، فى كتاب «البيان والتبيين» (طبع القاهرة سنة ١٣١١ — ١٣ الجزء الأول ص٨٥ س٦ — ٤ من أسفل = طبعة محب الدين الخطيب ، القاهرة سنة ١٣٣٢ ج ١ ص ١١٦ فى أسفل = طبعة حسن السندوبى ، القاهرة سنة ١٣٤٥ (سنة ١٩٢٦) الجزء الأول ص ١٥١ فى الوسط) :

« وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله . وقيل لابن المقفع فى ذلك فقال : الذى أرضاه لا يجيئنى (الطبعة الأولى : يجيبنى) والذى يجيئنى لا أرضاه . . » . وأحد تعريفاته للبلاغة موجود فى نفس الكتاب الجزء الأول ص ٤٩ ، ٥٠ = ج ١ ص ٦٤ س ٢ — ١٠ (وص ٦٥) من طبعة سنة ١٣٣٢ = ج ١ ص ٩١ (و٩٢) من طبعة سنة ١٣٤٥ .

(٢) [لعل الصواب : غر المغتر]

Hirschfeld فى كتاب : مجلد فى مقالات الجاحظ (فى «مجلد فى الدراسات الشرقية مقدم إلى إدورد برون » ، كمبردج سنة ١٩٢٢) ص ٢٠٧ ، من مخطوط بالمتحف البريطانى دون أن يعرف الطبعة المصرية ؛ ومع ذلك فأرى من المفيد أن أشير فى التعليقات إلى ترجمته التى ليست صحيحة دائما ، والتى ربما تدل على بعض تغييرات فى النص[١].

(٣) وللكاتب الأندلسى الشهير يوسف بن عبد البر (توفى سنة ٤٦٣ هـ) فى كتاب « جامع بيان العلم وفضله » (طبعة القاهرة سنة ١٣٤٦ جـ ٢ ص ٣٣ ، الفقرة الآتية التى نقلها كلها أحمد بن عمر المحمصانى البيروتى فى كتابه المختصر ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠ ص ١١٣ فى (باب معرفة أصول العلم) :

« ومن فصل لابن المقفع فى اليتيمة قال : ولعمرى إن لقولهم ليس الدين خصومة أصلا يثبته . وصدقوا ما الدين بخصومة ؛ ولو كان خصومة لكان موكولا إلى الناس يثبتونه بآرائهم وظنهم . وكل موكول إلى الناس رهينة ضياع . وماينقم على أهل البدع إلا أنهم اتخذوا الدين رأيا ؛ وليس الرأى ثقة ولا حتما ، ولم يجاوز الرأى منزلة الشك والظن إلا قريبا ، ولم يبلغ أن يكون يقينا ولا ثبتا ، ولستم سامعين أحداً يقول لأمر قد استيقنه وعلمه : أرى أنه كذا وكذا . فلا أجد أحداً أشد استخفافاً بدينه ممن اتخذ رأيه ورأى الرجال دينا مفروضاً » .

(٤) يذكر ابن بابويه القمّى الشيعى (المتوفى سنه ٣٨١ هـ) فى كتاب

(١) [نلاحظ على ترجمة هرشفلد أنه يخطئ فى فهم بعض الكلمات العربية المصطلح عليها مثل لفظ « مقالات » بمعنى مذاهب فى مصطلح أهل الكلام ، ولكن هرشفلد يفهمه بمعنى أقوال]

«التوحيد» (طبعة بمباى ، طبع حجر سنة ١٣٢١ ص ١١٤ فى نهايتها إلى ص ١١٧ فى باب القدرة رواية (إسنادها : محمد بن على ماجيلويه عن عمه محمد بن أبى القاسم عن أحمد بن محمد بن خالد عن محمد بن على الكوفى عن عبد الرحمن بن محمد بن أبى هاشم عن أحمد بن محسن الميثمى عن أبى منصور المتطبب) عن راوٍ مجهول قال : كان ابن أبى العوجاء وابن المقفع يلاحظان الجمع الذى كان يقوم بالطواف حول الكعبة ؛ فقال ابن المقفع إلى أصحابه : لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية ، إلا هذا الشيخ الجالس (وأشار إلى جعفر بن محمد) ، أما الباقى فرعاع وبهائم . فقام ابن أبى العوجاء إلى الشيخ وتحدث معه ثم رجع إلى صاحبيه وقال : ماهذا ببشر ! وإن كان فى الدنيا روحانى يتجسد إذا شاء ظاهراً ، ويتروح إذا شاء باطنا فهو هذا» .
ويظهر أنه حينما اقترب من الشيخ واصبحا منفردين قال الشيخ له أولا : « لو كان الأمر كما يقول هؤلاء (وأشار إلى الجمع القائم بالطواف) — وهو حقا كما يقولون — نجا هؤلاء وعطبتم ؛ أما إذا انعكس الحال وكان على ما تقولون — وهو ليس كما تقول — فأنتم وإياهم سواء » . حينئذ سأله ابن العوجاء : « رحمك الله أيها الشيخ ! أى شىء نقوله نحن وأى شىء يقولونه هم ؟ ما نؤمن به وما به يؤمنون واحد » . فأجاب جعفر : أنَّى لما تقول أن يكون كما يقولون !؟ هم يقولون بالمعاد والوعد والوعيد وأن للسماء إلهاً وبها عمرانا بينما تزعمون أن السماء خراب وليس بها أحد . حينئذ أجاب ابن أبى العوجاء : لو كان الأمر كما تقول ، فما منع اللهَ من الظهور لجميع خلقه ودعوتهم إلى عبادته حتى لا يصبح اثنان منهم على خلاف ؟ لماذا اختفى عنهم ومع ذلك أرسل إليهم رسلا ؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم لكان ذلك أسهل إلى الاعتقاد به . فأجاب جعفر : « كيف اختفى عنك

من أظهر قدرته فى نفسك أنت وفى نمائك ؟ . . ... » . وكان جوابا بليغا حتى قال ابن العوجاء لصاحبيه : وظل يحصى لى قدرة الله التى فى نفسى والتى لم استطع رفضها حتى ظننت أن الله قد نزل بينه وبينى .

(٥) وفى «أمالى» السيد المرتضى (المتوفى سنة ٤٣٦) أو «غرر الفرائد ودرر القلائد» (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ = سنة ١٩٠٧ المجلس التاسع، الجزء الأول ص ٨٩ س ٣ وص ٩٣ فى نهايتها إلى ٩٥ س ١٧) قصص ونوادر تتفق فى أجزاء منها مع ما يذكر ابن خلكان برقم ١٨٦ و ٢١٩ من طبعة قستنفلد = ١٨١، ٢٠٦ من الطبعة المصرية . وهذا هو مصدر عبد القادر ابن عمر البغدادى (المتوفى سنة ١٠٩٣) فى «خزانة الأدب» (طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ جـ ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦٠) وهو يذكر اسمه المرتضى، ولكنه يختصر كلامه ويحذف منه الإسناد .

(٦) وقد حكم على «الدرة اليتيمة» من الناحية اللغوية حينما طبعت للمرة الأولى إبراهيم اليازجى الذى يعتبرها فى الأسلوب أقل من «كليلة ودمنة» بكثير . وهذا راجع فى بعض الأحيان إلى المخطوط الذى وصلنا . وهذا الحكم موجود فى «مختارات المنفلوطى» الجزء الأول (طبعة القاهرة سنة ١٣٣٠ = ١٩١٢) ص ١٨٤ — ١٩٢ .

(٧) أما ما كتبه عثمان الكعاك : «ابن المقفع وديانته» فى «نشرة الجمعية الخلدونية» سنة ١٩٣٠، تونس ص ٥٣ — ٦٣ — فلا قيمة له ؛ وهو لم يعرف كتاب الأستاذ م . جويدى .

(٨) أما فيما يتعلق بالكتب المنطقية التى ترجمها محمد بن عبدالله بن المقفع وباستعمال لفظ عين بمعنى جوهر فالفقرة الآتية مهمة وهى لأبى عبد الله محمد ابن محمد بن يوسف الخوارزمى فى كتاب «مفاتيح العلوم» (طبعة ج . فان

فلوتن فى لَـيْدنِ سنة ١٨٩٥ وهـذا الـكتاب ألف ما بين سنة ٣٦٥ ، ٣٨١، ص ١١٤٣ وكل المخطوطات متفقة فى حذف: «محمد بن»: «ويُـسَـمِّى عبدُ الله بن المقفع الجوهر « عينا » ، وكذلك سمى عامة المقولات وسائر ما يذكر فى فصـول هذا الباب بأسماء اطَّـرحها أهل الصناعة فتركتُ ذكرها وبينت ماهو مشهور فيما بينهم» . ونستطيع أن نضيف إلى ملاحظة الأستاذ كِرَوْس القيمة فيما يتعلق باستعمال لفظ « عين » بمعنى جوهر فى الـكتب غير الفلسفية وبخاصة فى كتب الـكلام والتصوف أن الفقهاء يستعملونه أيضا . فمثلا أبو اسحق الشيرازى (المتوفى سـنة ٤٧٦ هـ (فى كتاب «المهذَّب» (طبعة القاهرة سنة ١٣٣٣ جـ ١ ص٣٥٩) حينما يفرق بين البيع البـاطل والبيع الصحيح يقول : الأعيان ضربان : نَجِس وطاهر(١) .

ويظهر لى أن الأسـتاذ كروس يغالى فى استنتاجه من كون محمـد ابن عبد الله بن المقفع قد استعمل لفظ عين بدلا من اللفظ الفارسى المعرب جوهر لترجمة مقولة οὐσία الأرسطية أن هـذا دليل على أنه استخدم الأصل اليونانى لا الفهلوى . فمن المحتمل أن يكون محمد قد تعلق باستعمال المتكلمين الأوائل الذين خصصوا لفظ جوهر للجوهر الفرد البسـيط أعنى الذرة واستعملوا لفظ عين للجوهر الناشئ عن اجتماع ذرات من نوع

(١) ومن المعانى الشائعة فى لغة التشريع للفظ عين معنى الشيء المعين المشخص كما يتبين من المـادة ١٥٩ من « المجلة العثمانية » فى تعريفها له ، فى أسفل النصوص القديمة : « العين الشيء المعين المشخص كبيت وحصان وكرسى وصرة حنطة وصرة دراهم حاضرتين فكلها من الأعيان » . وهذا هو نفس المعنى الذى نجده فى المصطلحات النحوية حينما يأتى اسم العين (أو اسم الذات) أى الاسم الدال على شيء مشخص أو كائن حقيقى فى مقابل اسم المعنى أو الاسم الدال على فـكرة أو معنى مجرد .

واحد أو حتى من أنواع مختلفة . ومن هنا يفهم أن مقولة οὐσία الأرسطية لا يمكن أن تكون جوهراً[١] .

---

(١) وأختم القول بملاحظة صغيرة بمناسبة اسم خليل مَردُم الذى يذكره ف . جبرييلى ص ١٩٧ و ٢٣٨ ، تعليق ٥ ص ٢٤٥ . وهذا الاسم يجب أن ينطق مَردَم وهو اسم عائلة مشهورة بدمشق منها طائفة أسماؤها على وزن مَفعَل (وفى لهجة أهل البادية : مِفعَل) وهى أسماء شائعة فى سوريا فيها اختلطت أوزان مَفعَل ومُفعَل ومُفعِل : مثل مَظْهر ؛ مَسْعد ؛ مَكرَم ؛ مَطلق ؛ مَلحَم ؛ ومثل البدويين : مِشْصَلح ؛ مِسعَد ؛ مِرْصد ؛ مِدْلج ؛ مِفلح ؛ مِحجم ؛ مِذود ، مِزْعل ؛ مِصلط وغير ذلك .

أوج الالحـــاد

ابن الراوندي*

لپاول كرَوْس

الإهداء

إلى هـ . هـ . شيدَر

إجلالا واعترافاً بالجميل

— ١ —

مقـــدمة

تتجه الدراساتُ الإسلاميةُ فى عناية شديدة إلى بحث القرنين الثالث والرابع ؛ هذين القرنين اللذين كان فيهما طابعُ الرجل الإسلامى ما يَزال فى تطورٍ تتنازعُه القوى المتعارضةُ لطبعه بطابَعها الخاص . وإدراكُ هـذه الاتجاهات ، وتقريرُ العواملِ الفعاله الخارجية والمقاومات الشديدة التى أثارتها هذه العوامل ، كلٌّ هـذا سيكون الواجبَ الرئيسيَّ للبحث العلمى لزمان طويل .

(*) نشرت هذه المقالة باللغة الألمانية « فى مجلة الدراسات الشرقية » RSO ، المجلد رقم ١٤ (١٩٣٤) تحت عنوان : — *Beiträge zur islamischen Ketzer geschichte*.

كانت مسألةُ المسائل فى القرن الثالث تشكيلَ الإسلام من ناحية الكلام والعقيدة . ولقد أبان نيبَرْج للمرة الأولى فى بحوثه عن القوى الفعالة فى حركة المعتزلة عما كان لهاتيك الدوائر التى وقفت موقف العداء إزاء العقيدة الإسلامية ، من أهمية عظيمة فى تكوينها وتشكيلها[١] . ومع هذا فلم يبق لدينا إلا قليل من الآثار الكتابية التى فيها حاولَتْ التعبيرَ عن نشاطها وحركاتها . أما أن العصور المتأخرة تركتها فى عالم النسيان فذلك بيّن لا خفاء فيه ؛ ومع ذلك فمعظم آثار كفاح المعتزلة وعلى العموم الكفاح الإسلامى الأول قد ضاعت . وكل ما لدينا عنها يرجع إلى كتابات متأخرة ترمى إلى تشويه صورتها الحقيقية . والحالات التى فيها حُفظت الآثار الآصلية نادرة جداً . وهأنذا أقدم فيما يلى أثراً أصلياً من هذا النوع أبقاه القَدَرُ الغريب مجهولاً حتى اليوم ألا وهو «كتاب الزمرذ» لابن الراوندى الملحد[٢] .

لم يُعْرَف أبو الحسين أحمد بن يحيى بن اسحق الراوندى ، وهو من أشهر ملاحدة القرن الثالث ، عن كثب إلا منذ بضع سنين . وكتاب «الانتصار» للخياط[٣] الذى اكتشفه وطبعه سنة ١٩٢٥ الأستاذ نيبرج

---

(١) انظر على الخصوص : *Der Kampf zwischen Islam und Manichäismus*, OLZ, 1929, Sp. 425 f. (النزاع بين الإسلام والمانوية) ؛ وانظر أيضا مقدمة نيبرج لكتاب «الانتصار» ص٤٦ وما يليها ؛ كذلك م . جويدى M. Guidi : *La Lotta tra l'Islam e il Manicheismo* (Roma, 1927) (النزاع بين الإسلام والمانوية) ؛ هـ . هـ . شيدر H.H. Schaeder فى *Die Antike* IV (1920) p. 261 f. ؛ نفس المؤلف فى ZDMG, NF, VII, 1928, p. LXXVII f. .

(٢) القراءة الصحيحة لهذا الاسم تبعاً للأستاذ هـ . رتر H. Ritter: *Der Islam*, XIX (1930) p. 1 f. اعتمادا على ابن الجوزى هى : «ابن الريوندى» . وفى كتاب الانتصار يسمى : «ابن الروندى» ، لأنها ، فى النص الذى أمامنا ، دائما هكذا .

(٣) هـ . س . نيبرج : «كتاب الانتصار والرد على ابن الروندى الملحد» ، القاهرة سنة ١٩٢٥ .

وهو رد على كتاب « فضيحة المعتزلة » لابن الراوندى يكاد يحوى النص الكامل لهذا الكتاب الأخير .

و « فضيحة المعتزلة » هذا كان تحليلا نقديا لمذهب المعتزلة من وجهة نظر الشيعة الرافضة وجواباً عن كتاب الجاحظ « فضيلة المعتزلة » . ولقد اكتشف ه . رتر فى كتاب التاريخ لابن الجوزى المسمى باسم « المنتظم فى التاريخ » مقداراً من المقتطفات من كتاب آخر لابن الراوندى هو كتاب « الدامغ » وهو طعن فى القرآن . وقد نشرها مرفقة بترجمة لها [(١)] .

وبمعرفتنا لهذه النصوص كسبت الأخبار التى وردت عرضاً فى «الفهرست» لابن النديم وابن خلكان والمرتضى وغيرهم معنى جديداً . وعلى الرغم من هذا كله فإنا لا نعرف إلى الآن إلا الشىء القليل عن حياته وأطوار حياته العقلية ، حتى إن تاريخ حياته ووفاته لم يثبتا قطعا .

أما الاقتباسات الكثيرة من «الزمرذ» الذى فيه تجاسر ابن الراوندى فى سخرية عنيفة على زعزعة ركن الأركان فى الإسلام ، ألا وهو نظرية النبوة ؛ أقول أما هذه الاقتباسات فمحفوظة فى « المجالس المؤيدية » للمؤيد فى الدين هبة الله بن أبى عمران الشيرازى الإسماعيلى ، داعى الدعاة فى عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . ومؤيد هذا (الذى ظُن منذ زمن بعيد أن كتبه قد ضاعت ، ولكن أكثرها وجد منذ زمن قليل فى خزانة حسين الهمدانى) أحد الظواهر الفذة فى أدب الفاطمية . وقد ولد فى شيراز وعمل فى الأقاليم الإسلامية الشرقية إلى حوالى سنة ٤٣٨ ؛ ثم رحل بعد هذا إلى مصر حيث أظهر نشاطاً عقليا وسياسيا كبيراً إلى حوالى سنة ٤٧٠ حين توفى . وهو نفس داعى الدعاة الإسماعيلى الذى حفظ لنا ياقوت مراسلاته

(١) H. Ritter, *Philologica, V, in, Der Islam*, XIX 1930, p. ff.

مع المعرى[١] . ومن بين مؤلفاته العديدة « سيرة » لنفسه هى أقدمُ وأثمنُ ما فى الأدب الإسلامى جميعه فى هذا الباب ؛ وله كذلك ديوان ضخم . أما أهم كتبه «فمجالسه»[٢] وتبلغ ثمانية مجلدات تحتوى على ثمانمائة مجلس أعنى محاضرات ألقاها مؤيد فى دار العلم بالقاهرة . ومحتوى هذه المجالس متنوع أشد التنوع . ففيها يشرح مسائل العقيدة الإسماعيلية ، وفيها يعالج المسائل السياسية والدينية . وفى أحيان كثيرة كان يقرأ على السامعين فصولا من كتب إسماعيلية قد ضاعت ، مضيفا إليها تعليقات وشروحا من عنده[٣] . فتارة يذكر نص مراسلاته مع المعرى ، وأخرى يعرض كتاب داعٍ اسماعيلى ، غير مذكور الاسم ، فيه ردٌّ على كتاب « الزمرذ » لابن الراوندى . أما كتاب الداعى فمخطوط بتمامه . وما فيه من اقتباسات كثيرة من كتاب « الزمرذ » يكفى لمعرفة محتوى هذا الكتاب الأخير بدقة كافية . والمخطوطة التى أطلعنى عليها صديق الدكتور حسين الهمدانى حديثة جداً ولكنها جيدة نسبياً ؛ وما فيها من أخطاء النسخ يمكن إصلاحه بسهولة[٤] .

والنص التالى فى المجلد الخامس من «المجالس المؤيدية» ص ٦٣ — ٨٨ .

---

(١) انظر ، بعد ، الفصل السابع .

(٢) إن شاء القارئ تفاصيل فى هذا الموضوع فليرجع إلى مقالة حسين الهمدانى: *The History of the Ismaili Dawat and its literature during the last Phase of the Fatimid Empire,* JRAS, 1932, pp. 126—136، وليراجع أيضا : W. Ivanow, *A Guide to Ismaili Literature* (London 1933) p. 48, hr. 154.

(٣) أنظر أيضا ، بعد ، الفصل الثامن .

(٤) واجب على أن أشكر الأستاذ الدكتور عبد العليم على مقدار كبير من تصحيحات النص .

— ٢ —

النص

المجلس السابع عشر من المائة الخامسة من المجالس المؤيدية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله المانّ على ذوى الاسترشاد ، من أهل الرشاد ، والآحاد والأفراد ، الذين أورثهم الكتاب . إذ اصطفاهم من العباد ، وجعلهم مطفئين بنور توحيده نارَ الإلحاد . وصلى الله على خير من مشى فوق الأرض المهاد ، ونشأ تحت السبع الشداد ، محمد أمجد الأمجاد ؛ وعلى وصيّه علىّ الرفيع العماد ، الطويل النجاد ، صفوة الركّع والسجّاد ؛ وعلى الأئمة من ذريته غيث البلاد ، المشار إليه بقوله سبحانه إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد .

معشر المؤمنين ! جعلكم الله بعلائق الدين متعلقين ، ومن خشية ربّهم مُشْفِقين[2] . إنه وقع إلى أحد دعاتنا تصنيف صنفه ابن الراوندى عن ألسنة البراهمة فى ردّ النبوات ، وإبطال مراتب من أقامهم الله (تع) لتبليغ كلامه ورد الرسالات . فأجاب عنه بما رماه فيه بقاصمة الظهر ، إبطالا لما أتى به من صريح الكفر . ونحن نقرأه عليكم ، ونسوق فائدته إليكم بمشيئة الله وعونه .

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الناجى من استدلّ عليه بأنبيائه عليهم السلام فهم له* مسلمون . المستبصر من طلب الاستبصار من جهتهم إذ ص٦٤ الملحدون عنهم عمون ، الموضح سبيل الهداية بهم ليحق الحق ويبطل الباطل

---

(١) العناوين مكتوبة فى المخطوطة بالحبر الأحمر ؛ وفى أحيان كثيرة كان يغفلها الناسخ .

(٢) سورة ٢٣ : ٥٧ .

ولو كره المجرمون . صلى الله على من ختمت نبوتهم[١] به خاصة وعليهم عامة ، وعلى التابعين لهم بإحسان ، الذين لهم دريئة ايمان .

أما بعد ، فإنه وقعت إلينا رسالة عملها ابن الراوندى وسماها «الزمرذة»[٢] ونسبها إلى البراهمة فى دفع النبوات ، وذكر فيها حججا يحتج بها مثبتوها فى إثباتها ، وحججاً يحتج بها نافوها[٣] فى نفيها ، فوقع الغنى عن إعادة قول المثبتين الذين هم إخواننا فى الدين ، ووجب اقتصاص أقوال النافين والإجابة عنهم بما نستمد التوفيق فيه من رب العالمين (سبحنه) .

<قال ابن الراوندى>[٤] : «إن البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحنه على خلقه ، وإنه هو الذى يُعرف به الرب ونعمه ومن أجله صح الأمر والنهى والترغيب والترهيب . فإن كان الرسول يأتى مؤكداً لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر فساقط عنا النظر فى حجته وإجابة دعوته ، إذ قد غنينا بما فى العقل عنه ؛ والإرسال على هذا الوجه خطأ . وإن كان بخلاف ما فى العقل من التحسين والتقبيح و*الاطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته» . هذا نص كلامه . ص٦٥

الجواب وبالله التوفيق : أما قوله : ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحنه على خلقه ، فنقول : إنه قَطْعٌ على قول لم يحرّره . وذلك أن العقل كامن فى الصورة البشرية كمون[٥] النار فى الزناد ، فلو بقى ما بقى فى مضماره عادماً لمن يستخرجه ويستدرجه لم يقع انتفاع به كالنار الكامنة فى

(١) نبوتهم : فى الأصل ، بنبوتهم . (٢) الزمرذة : فى الأصل الزمردة .
(٣) نافوها : فى الأصل ، نافروها .
(٤) قال ابن الراوندى : غير موجود بالأصل .
(٥) كمون : فى الأصل ، كون .

الحجر والحديد لا يُستنفع بها ولا يُحظى بطائل من خيرها ما عدمت القادحَ. والذى يقع من الفعل المكمون فى الصورة الآدمية موقع قادح الزناد هم الأنبياء صلى الله عليهم الذين دفعهم هذا الدافع وأنكر مقاماتهم، فهم أولى بأن[1] يسمّـوا عقلا، لاستخلاصهم المعقول من الصورة البشرية وإخراجهم إياهم من حد القوة <إلى الفعل>[2]، وهم نعم الله سبحنه على خلقه والذين بهم يصل العبد إلى معرفة ربه. فليعكس المسألة يرَ فيه خيراً كثيراً.

وسوى[3] هذا فيقال للمدّعى إنه بجناح عقله يجد فى آفاق المعارف مطارا، ويقيم[4] لنفسه من المجد بمعرفة مغيبات الأمور مناراً: معلوم أن صورتك الجسمية مخلوقة مهيأة للنطق، مقصود بها ما يقصده صانع البوق والأشياء المصوّتة فى صنعته من تجويف أو توسيع موضع وتضييق موضع، وتخليص الصوت من ضيقة الحلقوم وتقبّله باللهاة والعبارة عنه باللسان وتفصيله بالشفتين وتصيير الأسنان[5] عوذاً عليه. فيا من أزيحت علته فى هـذه ص٦٦ الأدوات كلها ما منعك عن أن تقوم بعد ذلك من تلقاء نفسك متكلما، وعن مستدرج الكلام منك لفظاً لفظاً مستغنيا؟ فإذا لم تنهض للكلام الذى هو أقرب متناولا إلا بمُنهِض، فكيف تنهض بعقلك إلى معرفة التوحيد ومعالم الدار الآخرة إلا بمنهض، وذلك المنهض هو النبي صلى الله عليه وآله الذى تنكره وتجحد نبوته وتقول إن فى عقلك ما يغنى عنه؟

وكلام آخر: معلوم أن <فى> البصر[6] صنع الله سبحنه فى ظاهر الصورة يبصر به الإنسان مبصَرات الدنيا، والعقل صنعه سبحنه فى باطنها

---

(١) بأن: فى الأصل، أن.
(٢) إلى الفعل: سقط فى الأصل.
(٣) وسوى: سوا.
(٤) ويقيم: أو يقيم
(٥) الأسنان: الانسان.
(٦) فى البصر: أيجب حذف «فى»؟

يبصر به الأمور المعقولة الغائبة عن الحس ، وتأملنا البصر إذا قام ليبصر لا ينهض بنفسه إلا بحامل يحمله خارج عنه من ضوء شمس أو قمر أو نار ، وإذا عدم الحال من هذه الأصناف المذكورة لم يبصر شيئا وإن كان فى غاية الصحة والقوة . فوقع الحكم من ذلك على أن العقل إذا نهض للمعالم الخفية عن الحس احتاج كذلك إلى حامل يحمله ونور من خارج بإزاء الشمس والقمر والنجوم والنار ، فإلا لم يجد* نفوذاً فى أقطار سموات المعلومات ، وإن كان العقل فى غاية الصحة والقوة . فذلك النور الخارج الحامل للعقل والمريش لسهمه والمنفذ[١] له فى أقطار السموات والأرض هو النبى صلى الله عليه وآله أنت له منكر وبه جاحد .

ص٦٧

وسيتلى عليكم ما بقى فيما يلى هذا المجلس . جعلكم الله من التابعين للأدلة ، كما جعلكم نخبة أهل الملة ، والحمد لله الذى هدانا لقصد السبيل ، وعصمنا من الضلال والتضليل ، وصلى الله على رسوله المبعوث بالحق المبين والكتاب المستبين ، محمد بن أبى طالب صاحب التأويل ؛ وعلى الأئمة من ذريته الأبرار ، الرفيعى[٢] الأقدار ، وأعراف الله بين الجنة والنار ، وسلم تسليما ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

المجلس الثامن عشر من المائة الخامسة من المجالس المؤيدية

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى هدانا بمحمد صلى الله عليه وعلى آله الصراط المستقيم ، وآتاه سبعاً من المثانى والقرآن العظيم ، وجعله لسان صدق أبيه إبراهيم ، وأيده بوصى جعله لأمثال شرعه الترجمان ، يتوجه نحوه معنى القول من الرحمن ، الرحيم الرحمن ، علم القرآن* ، خلق الإنسان

ص٦٨

(١) المنفذ : المنقذ . (٢) الرفيعى : الرفيع .

علمه البيان على بن أبي طالب الذى هز أعطاف المنبر إذا أطلق من فوقه اللسان ، وزلزل منكب الميدان ، إذا غشى الميدان ، صلى الله عليهما ، وعلى الأئمة من ذريتهما ، الذين رفع الله لهم المكان ، وأتاهم بوارثة جدهم العز والسلطان .

معشر المؤمنين ! جعلكم الله من إذا استعان به أعان ، وزادكم بصيرة بنور الإيمان ، قد أتاكم شعبان شهر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الذى عظم شأنه ، وأعلى على مكان الأنبياء مكانه ، بشيراً بين يدى شهر رمضان ، الذى هو شهر الله سبحانه ، فطهروا أجسامكم فى هذه الأشهر المباركة من دون المعاصى ، وتحرزوا بالعبادتين العلمية والعملية مالك النواصى ، ولا تمرن بكم من ساعاتها ساعة ، إلا وقد طرزت أكامها من طاعتكم طاعة .

وقد سمعتم ما قرئ عليكم من الجواب فيما احتج به ابن الراوندى فى إبطال النبوات وتعطيل الرسالات ، ووعدتم بسوق باقيه إليكم ونشر الفائدة عليكم ، تهذيباً لنفوسكم وإصلاحاً لأديانكم ، وعصمة من الاغترار بفساد المفسدين وإلحاد الملحدين ، وتثبيتاً على ما تستوجبون به نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة ، يثبت الله* الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ص٦٩

قال المجيب : معلوم أن الناس متفاوتون فى عقولهم تفاوتاً عظيماً ، فقوم نسناس لهم من الإنسانية صورتها قط ، وقوم سكان جبال ومواضع غامضة ورعاة بقر وغنم وهم أصلح حالا فى قربهم من سكة العقل ، وقوم هم عامة البلدان وهم أقرب حالا ، وقوم خواص ، وقوم علماء وأخيار ؛ فلا يزال الشيء يُخَلَّص ويَنْسَبِك حتى ينتهى إلى الصفوة التى لا يشوبها الكدر وهم الأنبياء عليهم السلام الذين تنكرهم أيها الجاحد وتجحد مقاماتهم ؛ فهم

يقبلون على تابعيهم فى استخلاصهم من الـكدر وإحالتهم إلى جوهر الصفاء ، ويؤثرون فيهم تأثير الجمر فى الفحم الأسود المظلم بإحالته إلى جوهرة وإفادته من نوره وتخليصه من سواده . وبعض هذا البلاغ جواب لمن انتهج مناهج الصواب دون من طَبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وأما قوله : أن الرسول (عليه السلام) أتى بما كان منافراً للعقول مثل الصلاة وغسل الجنابة ورمى الحجارة والطواف حول بيت[1] لا يسمع ولا يبصر والعدو بين حجرين لا ينفعان ولا يضران ، وهذا كله مما لا يقتضيه عقل فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق* بين أبى قبيس وحرى ، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت ، وقوله بعد ذلك إن الرسول شهد للعقل برفعته وجلالته فلِمَ أتى بما ينافره إن كان صادقا .

ص٧٠

فنقول وبالله التوفيق : إن الرسول صلى الله عليه وآله بعثه الله سبحانه لينشأ النشأة الآخرة كما أن الوالدين ينشآن أولادهما النشأة الأولى . فنعتبر[2] أحوال الوالدين وأفعالهما بمواليدهما ونحمل قضية الرسول عليه السلام < عليهما > ونزن بميزانهما[3] . وقد وجدنا الوالدين موضوعهما قطع الأولاد عن العادة البهيمية ، وكسبهما[4] الأخلاق الإنسانية ، استخلاصاً للنطق منهما وهو ما يقع الفرقان به بين البهائم وبينها[5] ، وإفادةً للحياء وحسن الشمائل التى لا قِبَل للبهائم بمثلها ؛ ولو أنهم كفوا عن رياضتهم هذه الرياضة لخرجوا أشباه البقر والغنم . نقول إن الأنبياء صلوات الله عليهم يسلكون بتابعيهم الذين ينشأونهم النشأة الثانية للدار < الآخرة >[6] مسلك الآباء والأمهات بأولادهم

(١) بيت : البيت (٢) أولادهما : أولادها . فنعتبر : فتعتبر .
(٣) ونحمل : وتحمل . عليهما : سقط فى الأصل . ونزن : وتزن . بميزانهما : بميزانها (٤) وكسبها : وكسبهما . منها : منهما
(٥) بينها : بينهما (٦) الآخرة : سقط فى الأصل

فيخرقون عليهم العادات الطبيعية ويعلمونهم الأخلاق الملكوتية و<لما>[1] كان خارجا عن العادات الطبيعية أن يقوم أحد إلى طهارة ويتوجه إلى قبلة ويقوم بصلاة يقصد بجميعها عبادة ربه سبحانه ؛ أوجب الرسول صلع* ذلك ص٧١ كله خرقا للعادات[2] الطبيعية وتمييزاً للصور البشرية : بأن تقوم فى كل يوم وليلة خمس أوقات لعبادة ربها والاعتراف بنعمة معبودها والاستمداد من رحمة ربها ؛ وأوجب عليها زكاة مالها ليعود بفضل ما عند غنيها على فقيرها خرقا للعادات البهيمية ؛ وأوجب أن تصوم شهراً عبادة لربها خرقا للعادات البهيمية العاكفة طول زمانها على علفها ؛ وأوجب حج بيت الله الحرام ،ومثل ذلك على من يريد الوصول إلى محبوبه فيحتاج أن يقطع إليه الشقة ويحتمل دون الوصول إليه المشقة وجعل فيه الإحرام والإحلال والطواف والسعى والوقوف بعرفات وغير ذلك أرضاعا حسنة حكيمة يعرفها الراسخون فى العلم خلاف ما ظنه الملحد فقال فيه ما قال .

وفيما أوردناه كفاية لمن كان منصفاً لنفسه محكماً لعقله . وسنورد عليكم ما بقى من السؤال والجواب فيما يلى هذا[3] المجلس بمشيئة الله وعونه . جعلكم ممن يستعين به من الشيطان الرجيم ، ويمشى بالاستدلال بأدلة دينية سوياً على صراط مستقيم . والحمد لله الذى سما عن مسمى الأوهام ، وعلا عن معراج الأفكار إليه والأفهام وصلى الله على نبيه المختوم به النبوة أحسن ختام ، محمد خير الأنام وعلى وصيه القرم* الهمام على بن أبى طالب الهمام ، ص٧٢ وكشاف الكرب العظام ، وعلى الأئمة من ذريته الصفوة الكرام الذين

---

(١) لما : سقط فى الأصل

(٢) للعادات : للعبادات

(٣) هذا : من

افترض طاعتهم وولاءهم ذو الجلال والإكرام وسلم تسليما ؛ حسبنا الله ونعم الوكيل .

<المجلس التاسع عشر من المائة الخامسة من المجالس المؤيدية[١]>

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله مبدع ذى العرش المجيد الذى خرس اللسان عنه فى تجريد التوحيد ، إذ كان أجلّ ماينعت به من نعوت العبيد . وصلى الله على أشرف من لاح له بارق الوحى والتأييد ، محمد صاحب المقام المحمود وعلى صنوه العميد ، وباعه المديد ، وبأسه الشديد على بن أبى طالب صفوة العُلىَ المجيد ؛ وعلى الأئمة من ذريته السادة الصيد ، الأمجاد الأجاجيد .

<معشر المؤمنين>[٢] جعلكم الله ممن وفقهم للقول السديد والفعل الرشيد . قد سمعتم مافرئ عليكم من أسئلة[٣] الملحد وأجوبتها مايهتك أسرار الملحدين ، وينظم شمل أبناء الدين ، المهتدين بالأنبياء عليهم السلام المؤيدين ؛ ونحن نتلو عليكم ما بقى من السؤال والجواب بما نسأل الله تعالى الهداية فيه للرشاد والصواب .

قال الملحد فى شأن المعجزات والدفع فى وجوهها : إن الخاريق شتى ، وإن فيها مايبعد الوصول إلى معرفته ويدق عن المعارف * لدقته وإن أُورد أخبارها بعد ذلك عن شرذمة قليلة يجوز عليها المواطأة فى الكذب .

فالجواب عن ذلك : أن المحقّين لا يستصحون النبوات إلا من المعجزات العلمية دون <تسبيح>[٤] الحصى وكلام الذئب وغير ذلك مما هو طلْبَةُ[٥] من قصُر باع علمه وفهمه مشفوعة تلك بالنصوص كما قال

(١) غير موجود بالأصل

(٢) معشر المؤمنين : غير موجود بالأصل (٣) أسئلة : أسولة

(٤) تسبيح : سقط فى الأصل . (٥) طلبة : طلبته . مشفوعة ؟

سبحانه حكاية عن المسيح عليه السلام : « وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » فهذا هو النص الجلى الذى كان ينتقل خبره[(١)] من واحد إلى واحد حتى انتهى إلى بحيراء الراهب الذى كان التق[(٢)] بأبى طالب وهو مسافر يومئذ إلى الشام ، ومحمد صلى الله وآله فى صحبته فقال له : إن ابن أخيك هذا هو النبى الذى بشر به المسيحُ عليه السلام ؛ فاحذر[(٣)] عليه من اليهود أن يغتالوه . فلما ظهر النبى صلى الله عليه وآله تسرع إليه سلمان الفارسى من فارس مسلما له ومؤمنا به من دون معجزة أقامها ؛ وآمنت به خديجة بنت خويلد وعلى بن أبى طالب وأبو بكر بن قحافة ، ولما أظهر يومئذ معجزا ؛ وهذه عمدة النبوات وقانونها . وأما تسبيح الحصى وكلام الذئب وما يجرى مجراها فلا ينكره العقول . فأما من كانت نفسه أشرف النفوس فجسمه بمجاورة * نفسه أشرف الأجسام ، ومن كان فى نفسه وجسمه ص٧٤ بهذا الكمال فى الشرف لم يكن مستحيلا أن يصدر عنه ما يخرق العادة من إعجاز لا قِبَلَ للبشر بمثله .

وأما قوله فى القرآن : إنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها ، وتكون عدة من تلك القبيلة أفصح من تلك القبيلة ، ويكون واحد من تلك العدة أفصح من تلك العدة إلى حيث قال : وهَبْ أن باع فصاحته طالت على العرب ، فما حكمه على العجم الذين[(٤)] لا يعرفون اللسان وما حجته عليهم ؟

فالجواب عن ذلك : أن الكلام ألفاظ مقدَّرة على معان ملائمة لها ، والكلام كالجسد والمعنى فيه روحه . ومعلوم أن الأجساد من حيث كونها

(١) خبره : خيره (٢) التقى : التقا
(٣) فاحذر : فاحذره (٤) الذين : الذى

أجسادا لا تتفاوت تفاوتا كثيرا ؛ فإنها وإن رجح بعضها على بعض من حيث استقامة النظم وحسن الهندام فهو أمر قريب ، وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس التي هي المعاني . فإن نفسا واحدة تقع بوزان الخلق كلهم من حيث افتقار النفوس إليها والحاجة إلى الامتياز[(١)] منها . والقرآن فهو كلام هو بمثابة الجسد ومعناه روحه الذي كنى الله سبحانه <عنه>[(٢)] بالحكمة ، فلم يذكره في موضع من الكتاب إلا قرنه بالحكمة ، وقد قاربت أيها الخصم بالاقرار * بكونه معجزا من حيث لفظه للعرب الذين هم أهل اللسان ، ثم أردفته بقولك : فما الحجة على العجم الذين ليسوا من اللسان في شيء ؟ فنقول : إن في معناه المكني عنه بالحكمة التي قدمنا ذكرها ما يقوم به الحجة على كل من تفتق بالكلام لسانه على جميع اللغات وسائر (اللغات) العبارات ، والحجة فيه أن ما كان ظاهره الذي هو بمنزلة الجسد الذي لا يتفاوت بعضه على بعض كثير تفاوت بهذه المثابة من الإعجاز ، فما يقال في معناه الذي هو بمنزلة نفس شريفة تفتقر النفوس إليها كلها ، فأين موقعها من الإعجاز .

ص٧٥

وسيتلى عليكم ما بقي فيما يلي هذا المجلس بمشيئة الله وعونه . جعلكم الله ممن انتفع بسمعه وبصره وجرى من الدين على أحسن منهاجه وأيسره[(٣)] ، والحمد لله الذي علا عن أن يكون موهوما ، وسما عن أن يكون معلوما أو موسوما . وصلى الله على من جعله للعالمين نذيرا ، وأقامه في سماء الدين سراجا وقمراً منيرا ، محمد الشفيع لأمته يوم يجد كل امرئ كتاب عمله منشورا . وعلى وصيه وترجمان دينه ومظهر حججه وبراهينه ، علي بن أبي طالب

---

(١) الافتياز : لعله الانقياد [لعله : الامتيار]

(٢) عنه : سقط في الأصل ؛ قارن س ٧ (٣) أيسره : يسره

خارق الصفوف فى يوم صفينه . وعلى الأئمة من ذريته الأطهار الزاكين الأخيار ، * أعراف الله بين الجنة والنار وسلم تسليما . حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل . ص٧٦

<المجلس العشرون بعد المائة الخامسة من المجالس المؤيدية[1]>

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى أطلع بالأئمة من آل محمد صلى الله عليه وعليهم من سمـاء الرسالة نجوما جعلهم لشياطين الملحدة والزنادقة رجوما . فلا يغلب قدر الله تعالى فى اصطفائهم غالب . فإن طلب إدراك شأوهم فيما لهم من المادة الإلـهية تعب الطالب . لاَ يَسمَّعونَ[2] إلىَ الملأِ الأعلَى ويُقْذَفُونَ مِنْ كلِّ جَانِب . دُحُوراً ولَهُمْ عَذَابٌ واصِبٌ . إلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثَاقِبٌ[3] . وصلى الله على أبهر الأنبياء برهانا وأظهرهم شأنا ، وأرفعهم عند الله مكانا ، محمد الذى أنزل عليه قرآن ؛ وعلى وصيه سيف التنزيل ، ولسان التأويل ، على بن أبى طالب صنو الرسول ، وكفؤ البتول ؛ وعلى الأئمة من ذريتـه أعـلام الشريعة ، وشفعاء الشـيعة ، الذين اختصهم الله فى الإمامة بالدرجات الرفيعة .

معشر المؤمنين ! جعلـكم الله للحق نبعاً ، كما أبانـكم عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . قد سمعتم ما ألقى إليكم من كلام الملحد والجواب عنه ما ينفى الشـبه ، ويزيل العمى والعمه ؛ ووعدتم بسوق ما بقى <من>[4] ذلك إليكم ، وإفاضة الفائدة عليكم . قال الداعى فى الجواب عن رد الملحد على ص٧٧

---

(١) غير موجود بالأصل
(٢) يسمعون : يستمعون
(٣) سورة ٣٧ : ٨ — ١٠
(٤) من : سقط فى الأصل

آية المباهلة (١) وأسبابها ومعنى قوله سبحانه : فَتَمَنَّوا الموْت إن كُنتم صَادِقينَ (٢) وما يجرى هذا المجرى من الآيات <التى> ذَكَرَها : إنه إن كانت معانيها مستقرة بينه وبين خصمه كان له الطريق للرد عليها والدفع فى وجهها . فإن قال خصمه : إن معانيها غير متضمنة شروط حسابك بطل الرد كله وضاع تعبه : وكمثل ذلك حكم رده على قوله : «وَما كُنْتَ تَتْلُو (٣) مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتاب» (٤) الآية ومايعلقه (٥) بقوله «لَتَدْخُلنَّ المسجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاء اللهُ (٦)» بأن ذلك رجماً بالغيب لا قطعاً على مايريد كونه. فمن حرص الخصم على الرد ساق تأويل (٧) المقامات فى جملتـه غيرَ معتبر ؛ وموضع العيب فى ذلك ظاهر .

وأما قوله فى رد المعجزات التى من جملتها حديث الميضأة وشاة أم معْبَد وحديث سُراقة (٨) وكلام الذئب وكلام الشاة المسمومة ؛ وما قاله فى أن النبى (صلى الله عليه وآله) دفع فى وجه ملتين عظيمتين متساويتين اتّفقا على صحة قتل المسيح (عليه السلام) وصلبه فكذبهما . وإن كان سائغاً أن يُبطل ذلك الجمهور* العظيم المتكاثر العدد وينسبها إلى الإفك والزور كان ص٧٨ الشرذمة القليلة من نَقَلة (٩) هذه الأخبار عنه أمكن وأجوز بحجة الوضع الذى وضعه والقانون الذى قنَّنه فى المباهتة والمكابرة .

فالجواب عن ذلك : أننا كنا سقنا إلى القول فى شأن هـذه الأمور

---

(١) سورة ٣ : ٦١
(٢) سورة ٢ : ٩٤ ؛ ٦٢ : ٦
(٣) تتلو : تتلوه
(٤) سورة ٢٩ : ٤٨
(٥) يعلقه : تعلقه . بأن : فإن
(٦) سورة ٤٨ : ٢٧
(٧) المقامات : المقامات
(٨) معبد : معيد . سراقة : سواقة
(٩) نقلة : ناقلة؛ قارن ص ٩٠ س ٩

وكونها مستغنى عنها عند خواص الناس ، وأن سلمان الفارسى رحمة الله عليه شق إليه أعطاف الأرض لما كان عنده من الإعلام دون أن طالبه بمعجزة ، وأن خديجة بنت خويلد وورقة بن نوفل وعلى بن أبى طالب وأبا بكر بن قحافة سبقوا إلى إجابة دعوته بلا سبب من هذه الأسباب كلها ، وقد غنينا عن الارتكاص فى تتبع كلامه فى ذلك بابا <بابا> وإجابته عنه . فقد أجبناه جملة واحدة .

فأما قوله : إنه دفع فى وجه أمتين عظيمتين اتفقا ، على تضادهما، فى صحة قتل المسيح (عليه السلام) وصلبه وكذبهما على كثرة العدد ووفور السواد ، فتكذيب نقلة أخبار معجزاته أولى فأولى أخذاً على منهاجه وبناء على أساسه. فالجواب عن ذلك قول القائل :

فكم من عائب[1] قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم[2] .

موضوع كلام المتكلم فى كون المسيح عليه السلام بشراً يأكل* ص٧٩ الطعام فى مضماره وجوب الموت والقتل عليه وجميع ما يعرض للصورة البشرية ، قال القائل أو لم يقل . وفى مضمار[3] قول القائل إنه كان إلٰهاً نفى الموت والقتل عنه ، قال القائل أو[4] لم يقل . وقوله سبحانه: «وما قتلوه وما صلبوه» إخبار عن حقيقة حاله أنه عند الله سبحانه حى مرزوق يوافق ذلك قوله فى موضع : «وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً

---

(١) عائب : غائب

(٢) هذا البيت المتنبي ، انظر ديوانه طبع ديترتسى (برلين سنة ١٨٦١) ص ٣٣٩ :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

(٣) مضمار : مضماره (٤) أو : أم

بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[1] » . وهو كما قدمنا ذكره إخبار عن حقيقة حالهم دون مجازها ، والعقلاء يطلقون القول على العالم الفاضل العاقل أنه حى وإن كان ميتاً ، وعلى البليد الجاهل أنه ميت وإن كان حياً . وإذا كانت الصورة هذه فقد تعلق الملحد بما لا علاقة له به .

وسيتلى عليكم ما بقى فيما يلى هذا المجلس بمشيئة الله وعونه . جعلكم الله ممن نزه عن الشُّبَه دينه . وأخلص فى يقينه . والحمد لله الذى احتجب عن درك الأوهام ، وقدرته فى مصنوعاته خافقة الأعلام . وصلى الله على رسوله خير الأنام ، محمد الآتى بدين الإسلام ، الداعى إلى دار السلام ؛ وعلى وصيه الصوام القوام ، على بن أبى طالب أسد الضرغام ؛ وعلى الأئمة من دينه الكرام ، عليهم وعليه أفضل التحية والسلام ؛ وسلم* تسليما . حسبنا الله ونعم الوكيل . ص٨٠

المجلس الحادى والعشرون من المائة الخامسة من المجالس المؤيدية

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله خالق الإنسان وفاتق اللسان ، منه بالبيان . فبجسمه مشقوق من طينة الأنعام ، وبنفسه متجوهر بجوهر الملائكة الكرام . فإن صبا إلى الأعلى ، لحق بالأعلى ؛ وإن آثر الحياة الدنيا ، لحق بالسفلى . يقول الله سبحانه ذامًّا لمن نكس صورته من الجاهلين : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ[2] » وصلى الله على أشرف ذوى الإحساس حسًّا وأجلّ ذوى النفوس نفساً ، محمد الطالع من سماء الرسالة شمساً ؛ وعلى قمره المنير ، وصى دينه والوزير ، على ابن أبى طالب المفروضة طاعته فى يوم الغدير . وعلى الأئمة من ذريته السادة

(١) سورة ٣ : ١٦٩ (٢) سورة ٩٥ : ٤ ، ٥

القادة . الشهداء على الناس من قِـبَل عالم الغيب والشهادة .

معشر المؤمنين ! حيـّا كم الله من فضله بالزيادة، وختم أعمالـكم بالسعادة؛ قد سمعتم ما قرأى عليكم من مناظرات الملحد والإجابة عنها بمـا يرميه بِحِـجَارَةٍ مِنْ سِـجِّيلٍ[١] ويجعل كيدهم فى تضليل[٢] . وأنتم تسمعون باقى أسئلته[٣] وأجوبتها .

قال الملحد : إن الملائـكة الذين أنزلهم الله تعالى فى يوم بدر لنصرة النبى (صلى الله عليه وآله) بزعمكم* كانوا مغلولى الشوكة قليلى البطشة على كثرة عددهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين ، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلا . وقال بعد ذلك : أين[٤] كانت الملائـكة فى يوم أُحُـد لما توارى النبى (صلى الله عليه وآله) ما بين القتلى فزعا ؛ وما باله لم ينصروه فى ذلك المقام ؟ !!

ص٨١

فالجواب على ذلك : إن الـكلام خاص وعام ، وإن العوام الذين لا يعرفون غير الأجسام والأشخاص إذا خوطبوا على جوهر الملائـكة وتعرّيهم من الطين وتجرّدهم عن الأشخاص تخبلوا وتزلزلوا[٥] ؛ وإذا كان النبى صلى الله عليـه وآله مبعوثاً إليهم ومندوبا[٦] لسياستهم فلا بد له من أن يكلمهم بمـا يعرفون وعلى حسبما تسعه قوة قبولهم واحتمالهم ، يدرجهم قليلا قليلا إلى كلام الحقائق وعلم الدقائق . وهـذا من جلالة النبوة والنبى صلى الله عليه وآله بأن يتكلم بلسان واحد فيأخذ منه العقل بنصيبه . وقد وضعهم[٧] الملحد من حيث أراد أن يضعهم . ليَـجْعَـلْ الله كلمة الذين

---

(١) سورة ١٠٥ : ٤
(٢) قارن سورة ١٠٥ : ٢
(٣) أسئلته : أسولته
(٤) أين : لئن
(٥) تخبلوا : تخيلوا
(٦) مندوبا : مندربه
(٨) وصفهم : وضعهم

كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا . وفى ذلك أعنى فى[1] حديث الملائكة من أسرار الحكمة ، وهو خاف عليه ومعلوم أن القادر على قبض الأرواح مستغن عن إسراء السرايا للمقاتلة ، وإنما هذه رموز .

ص٨٢ * وأماقوله فى إخبار النبى (صلى الله عليه وعلى آله) عن بيت المقدس وإعطائه علامته للناس أنه مخترق بذلك لأنه يمكن مسيره إليه من مكة ومشاهدته له والعود من ليلته لقرب المسافة بين مكة وبينه . فالجواب أن بصيرة الملحد فى علومه مثل بصيرته بالطريق ما بين مكة وبيت المقدس . وكفى بذلك جهلاً وسخنة عين .

وأماحكايته عن بعض دافع النبوات : أن الكلام مستملى عن الوالدين صاعدا قرنا فقرنا إلى مالا نهاية له فليس للخلق أول . فهذا كلام من ترقى من حد دفع النبوات إلى القول بقدم العالم . وشبه ذلك بأصوات الطيور وبلوغها غرضها فيه ، وأنه إذا كان موجودا فى الطيور مايفعل ذلك كان فى الناس أمكن وجودا . فهذا تشبيه باطل لأن أصوات الطيور وسباحة الإوز وتعلق الطفل المرضع بالثدى مما ذكر جميعها طبيعة فيها والكلام لا يصح إلا بمكلِّم أو مفهم ؛ وهذا غلط كبير .

وأما قوله لمن يقول بالنبوات : خبرونا عن الرسول كيف يفهم مالا تفهمه الأمة . فإن قلتم إنه بإلهام ففهم الأمة أيضا بإلهام ، وإن قلتم بتوقيف فليس فى العقل توقيف . فالجواب عن ذلك : أن جسد الإنسان * أكثره ص٨٣ لحم وقلبه لحم يجانس جملة جسده باللحمية . غير أنه بيت الحياة والفضل ، وعنه تنتشر الحياة فى الجسد كله . وهذا أمر مشهور . وكذلك مثابة الرسول صلى الله عليه وعلى آله فى الناس، محله محل تلك القطعة من اللحم من الجسد

---

(١) فى : من

كله التي هي أميره ورئيسه وبيت حيوته[١] ومستمدّها من معدنها ومفرقها فيه وفي أعضائه وأعضاله .

وأما قوله في النجوم : إن الناس هم الذين وضعوا الأرصاد عليها حتى عرفوا مطالعها ومغاربها ولا حاجة بهم إلى الأنبياء في ذلك . فلو كان الناس قادرين على مثل ماقاله لكانوا قاصري القدرة عن الكلام[٢] . فهم عن وضع الأرصاد على النجوم أعجز لولا النبي الذي يخبر عن السماء .

وسيتلى عليكم ما بقي فيما يلي هذا المجلس بمشيئة الله وعونه . جعلكم الله ممن نزّهه عن الشك والشرك ، وفرق بينه وبين أهل الزور والإفك . والحمد لله الذي نزل بالحق قرآنه ، ووضع للقسط ميزانه ، وصلى الله على رسوله الذي شيد في الرسالة بنيانه، محمد الذي رفع فوق مكان الأنبياء مكانه ؛ وعلى وصيه الذي وفاه بنفسه في الكربات وصانه ، على بن أبي طالب الذي* ص٨٤ آتاه الله من لدنه سلطانه ، وجعله بين الحق والباطل فرقانه ؛ وعلى الأئمة من ذريته الذين جعلهم الله فروع المجد وأغصانه ، أئمة يلي كل منهم في زمانه زمانه ، وسلم تسليما . حسبنا الله ونعم الوكيل .

المجلس الثاني والعشرون بعد المائة الخامسة من المجالس المؤيدية

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي جعل موضوع الدنيا على الصفو والإكدار ، والتأليف بين الأطهار والأقذار ، والمتقين والفجار ، لعله أوجب تكوّنها في هذا المضمار ، فلا يحيط بها علماً إلا ذوو الأيدي والإبصار ، المستمدون من مشكاة الأنوار . وصلى الله على أرفعهم قدراً في الأقدار ، محمد المصطفى المختار ، المبعوث بالإعذار والإنذار ، وعلى وصيه على

(١) حيوته : حيوتها (٢) القدرة عن الكلام : الكلام عن القدرة

الكرار ، قسيم الجنة والنار ؛ وعلى الأئمة من ذريته الأبرار ، ذوى المجد المتعالى المنار .

معشر المؤمنين ! جعلكم الله من المقتفين منهم للآثار ، والمتلقين لأوامرهم بالائتمار . وورد فى الأخبار : أن الغول خلق يغتال الناس ويهلكهم ويرمى فى الآجراف والآبار ، وأن كثرة بأسه على الأعزاب والصبيان . وجاء فى الخبر بتصديق ذلك : لا تغول الغيلان إلا الأعزاب والصبيان .

ص٨٥ وقالوا إن سبب* ذلك أن تظهر فى صورة المرأة الحسناء ، وتعترض للأعزاب فتحركهم الشهوة فيتبعونها فتنكب بهم عن الطريق الجادة إلى المجاهل حتى ترميهم فى البئر أو الجرف . ويؤثر عن النبى صلى الله عليه وآله : إذا تغولتكم الغيلان فأذنوا بالصلاة تهتدوا[١] إلى الطريق . وهذه كلها أمثال مضروبة ؛ والمعنىُّ فيها أهل الإلحاد والزنادقة الذين يغتالون الناس بصدهم عن سواء <السبيل>[٢] ورميهم فى أطباق جهنم والمعنى فى القول أن كثرة[٣] سطوتهم على الأعزاب والصبيان أنه يتبع من لم يثبت له قدم من جهة العلم ، فهو ذو صبوة وحداثة فى دينه ، وأما تمثله بالمرأة الحسناء فإنه عنى به أنه تمثل له بصورة[٤] الدنيا التى تتشبة بالمرأة الحسناء والأعزاب طالبوها ومشتهون لها . ويقال < فى >[٥] الخبر : إن المسيح عليه السلام اعترضت له الدنيا فى صورة امرأة حسناء ذات حلل وحلى وجمال ، فقال لها : ما أنت ؟ قالت أنا الدنيا . قال : وماهذه الخرق ؟ قالت: هى زخارفى أُغرُّ بها أزواجى وخطابى . قال لها : أنظرى هل أنا من أزواجك أو خُطّابك . فقالت : لا ، ولكنه

(١) تهتدوا : تهدوا (قارن ص ٩٧ س ٦)
(٢) السبيل : سقط من الأصل (قارن ص ٩٧ س ٨)
(٣) كثرة : كثر (قارن ص ٩٦ س ٥)
(٤) بصورة : صورة (٥) فى : سقط فى الأصل

لا بد لك من نظرة إلىّ . قال المسيح ع م : قد طلقتك ثلاثاً ، قال أهل التفسير : عنت بقولها لا بد لك من نظرة * إلىّ [عنت به] أن طعامك ص٨٦
وشرابك وثيابك كله منى . وكمثل ذلك قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه : يا دنيا طلقتك ثلاثاً . أوردنا ذلك[1] أنه كله تأكيد لقولنا : لا تغول الغيلان غير الأعزاب والصبيان . وأما قول رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا تغوّلتكم الغيلان فأذنوا بالصلاة تهتدوا للطريق ، فالمعنى فيه أنه إذا اعترض ملحد أو زنديق أو أحد من رؤساء الضلالة يريد أن يصدكم عن سواء السبيل فأذنوا بالصلاة ، يعنى عودوا إلى فناء الدعوة التى هى دعوة الحق والمؤذنين الذين هم الدعاة إلى الله بإذنه والعلماء والربانيين ، تهتدوا إلى الطريق وترشُدوا وتعصموا من كيد الشيطان .

وكان أُورد عليكم من كلام الملحد ابن الراوندى والجواب عنه ما بقيت منه بقيه يسيرة ووُعدتم بسوقها إليكم وإيرادها عليكم .

قال ابن الراوندى على سبيل الهزء : إنه يلزم من يقول بالنبوة أن ربهم أمر الرسول أن يُعلمهم صوت العيدان ؛ وإلا فمن أين يعرف أن أمعاء الشاة إذا جفّت وعلقت على خشبة فضربت جاء منها صوت طيب ؟ !

فالجواب عن ذلك أن الغرض فى هذا القول الشناعة القبيحة وإلا فالشىء موضوع * على أصل قوى . قال بعض الحكماء : لا يصح أن ص٨٧ يحصل عندنا شىء ولما يكن أصله موجودا[2] فى الخلقة . فإنه لما كان للحركات أصوات وجب أن تكون[3] حركات الأفلاك التى هى أصل الحركات أطيب الأشياء أصواتا فإن الأغانى استحسنت منها ، وقُدرت على هيئتها بالحكمة

---

(١) أوردنا ذلك الخ : النص غير واضح ؛ ولعله يجب أن يقرأ « لأنه » بدلا من « أنه » (٢) موجودا : موجود (٣) تكون : يكون

المستفادة من الأنبياء عليهم السلام وإلا فمن أين ! ؟

وقدسقنا جواب الرسالة الموسومة «بالزمردة»[١] وهى خزفة مكسورة حسبما فتح الله تعالى لنا فيه ، ونحن نقول قولا يشهد الله سبحانه على حقه وصدقه : إن ابن الراوندى الذى عمل الرسالة مصيبته بعقله أعظم من مصيبته بدينه ، فإنه تتبع الأنبياء عليهم السلام ، الذين هم ملوك الديانات ، بالنقص ، ومعلوم أنه لو كانوا على ما يقوله الملحدون مبطلين فى النبوة ، لـكان فيهم من المنفعة الظاهرة فى سياسة الخلق وتحصين دمائهم وأموالهم ومنع قويهم[٢] عن ضعيفهم ما يمنع عن تنقّصهم وثلبهم . وتوكيل هذا الملحد عن البراهمة فى هذا الباب بزعمه لا يوجب له منهم ثوابا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل المحصول منه إحداد شفار القتل لنفسه لو كان حيا وأَلسن اللعن والخزى إليها ميتا . فإن ص٨٨ الذى أتعب خاطره* وسره فى شىء يكون نتيجته فى الحياة الذل والقتل ، وفى الممات الخزى واللعن ، لخاسر الصفْـقة ظاهر الشِّقوة : ﴿قُلْ هل نُـنَبِّئُـكُمْ[٣] بالأَخْسَرِينَ أَعمَـالاً الَّذِين ضلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدُّنيـا وهُمْ يَحسَبون أَنهُم يُحسِـنُون صُنعاً﴾[٤] .

جعلـكم الله من الملحدين براء ، ولأوليائه أولياء . والحمد لله الذى سمك للدين سماء وشيد له بناء . وصلى الله على من حل فى النبوة قرارة الشرف ، وتبوّأ من المجد فى أمنع الـكنف : محمد الآتى بمعانٍ مؤتلفة فى قول مختلط ؛ وعلى وصيه الذى عنده علم الـكتاب وفصل الخطاب : على بن أبى طالب أسد يوم الطعان والضراب ؛ وعلى الأئمة من ذريته كهف الولىّ ، وعصمة النجىّ ، والنجوم المهتدى بها فى ظلمات البحر اللجىّ ؛ وسلم تسليما . حسبنا الله ونعم الوكيل م ؟

---

(١) بالزمردة : بالزمرذة (٢) قويهم : قوتهم (٣) ننبئكم : أنبئكم

(٤) سورة ١٨ : ١٠٣ — ١٠٤

شذرات كتاب « الزمرذ »

لا يبدو مؤلف المجالس فى النص السابق إلا قليلا . إذ ليس له إلا الديباجة والخاتمة فى كل مجلس . وهما يحتويان على حمد الله والصلاة على النبى والإشادة بعلى وأئمة الفاطمية الذين يعنيهم وعظ مؤيد . إلا أن ديباجة المجلس الأخير (رقم ٤٢٢) طويلة مفصلة فيها يشبه الملاحدة والزنادقة ، ومن بينهم ابن الراوندى ، بالغيلان التى تغتال الناس وتضلهم سواء السبيل . ولكى يحذر سامعيه منهم ويُبَيِّن لهم كيف يتقى المرء حججهم يقرأ مؤيد عليهم كتابَ الداعى .

وهذا الكتاب يشغل الجزء الأكبر من المجالس رقم ٤١٧ إلى ٤٢٢. وما يردُّ به فيه على أقوال ابن الراوندى أعظم بكثير مما اقتبسه من كتابه . وهأنذا أورد قطعاً مختارة من كتاب الداعى : فمن رقم ٣ إلى رقم ١٨ اقتباسات مباشرة من كتاب «الزمرذ» ؛ أما رقم ١٠ فهى أقوال للداعى على مواضع من الكتاب لا تقتبس بنصها ؛ بينما رقم ١ ديباجة مؤيد ، ورقم ٢ مقدمة الداعى ، ورقم ١٩ نظرة عامة للداعى على ابن الراوندى وكتابه . ونختم ذلك باقتباسات أخرى من كتاب « الزمرذ » مأخوذة من مؤلفين آخرين ، خصوصا الخياط وابن الجوزى .

— ١ —

معشر المؤمنين[١] : جعلكم الله بعلائق الدين متعلقين ؛ وَمِن خشيةِ

---

(١) بهذا يخاطب السامعين ، فى كل المجالس ؛ وكذلك فى المجالس المستنصرية المعاصرة لهاتيك والتى تنسبها التقاليد الإسماعيلية إلى بدر الجمالى (انظر «دائرة المعارف الإسلامية» المجلد الأول ص ٥٨٢ وما يليها) . وانظر كذلك H. F. Hamdani, =

رَبِّهِم مُشفِقين (١) . إنه وقع إلى أحد دعاتنا تصنيف صنفه ابن الراوندى عن ألسنة البراهمة فى رد النبوات ، وإبطال مراتب من أقامهم الله (تع) لتبليغ كلامه ، ورد الرسالات . فأجاب عنه بما رماه فيه بقاصمة الظهر (٢) ، إبطالاً لما أتى به من صريح الكفر . ونحن نقرؤه عليكم ، ونسوق فائدته إليكم بمشيئة الله وعونه (ص ٧٩ ، س ١١ وما يليه) .

— ٢ —

[قال الداعى] : إنه وقعت إلينا رسالة عملها ابن الراوندى ، وسماها « الزمردة » (٣) ، ونسبها إلى البراهمة فى دفع النبوات . وذكر فيها حججا يحتج بها مثبتوها فى إثباتها ، وحججا يحتج بها نافوها فى نفيها . فوقع الغنى عن إعادة قول المثبتين الذين هم إخواننا فى الدين (٤) ، ووجب اقتصاص أقوال النافين والإجابة عنهم بما نستمد التوفيق فيه من رب العالمين سبحانه . (ص ٨٠ ، س ٣٠ وما يليه)

— ٣ —

قال ابن الراوندى : « إن البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند

Some unknown Ismaîli Authors and their works, JRAS, 1933, p. 377= وانظر أيضا W. Ivanow, *A Guide to Ismaili Literature* (London, 1933), p. 50. Nr. 170 .

(١) سورة ٢٣ : ٥٧

(٢) انظر : Dozy, *Suppl.* II, p. 360

(٣) يكاد فى جميع الكتب أن يسمى باسم كتاب « الزمرذ » (وفى « المنتظم » لابن الجوزى : زمرد) ؛ أما هنا فى الشذرة رقم ١٩ فيسمى : كتاب الزمردة (وفى المخطوطة الزمردة) . وكذلك فى « معاهد التنصيص » (انظر نيبرج ، « كتاب الانتصار » ، المقدمة ص ٢٧) ؛ أما أنا فقد التزمت التسمية : كتاب الزمرذ .

(٤) انظر الثامن فى مبدئه .

خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه ، وأنه هو الذى يعرف به الرب ونعمه[١] ، ومن أجله صح الأمر والنهى والترغيب والترهيب . فإن كان الرسول يأتى مؤكدا لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر ، فساقط عنا النظر فى حجته ، وإجابة دعوته . إذ قد غنينا بما فى العقل عنه . والإرسال على هذا الوجه خطأ . وإن كان بخلاف ما فى العقل من التحسين والتقبيح والإطلاق والحظر ، فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته» .
(ص ٨٠ ، س ٨ وما يليه)

— ٤ —

[قال الداعى] : وسوى هذا فيقال المدّعى ، «إنه بجناح عقله يجد فى آفاق المعارف مطارا ، ويقيم لنفسه من المجد بمعرفته مغيبات الأمور منارا[٢]»
(ص ٨١ س ٧ وما يليه)

— ٥ —

وأما قوله (ابن الراوندى) : «إن الرسول (عليه السلام) أتى بما كان منافراً للعقول مثل الصلاة ، وغسل الجنابة ، ورمى الحجارة[٣] ، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر ، والعدو بين حجرين[٤] لا ينفعان ولا يضران[٥] : وهذا كله مما لا يقتضيه عقل : فما الفرق بين الصفا والمروة[٦] إلا كالفرق بين أبى قبيس وحرى[٧] ، وما الطواف على البيت إلا كالطواف

---

(١) انظر بعد ص ١١٦ (٢) انظر بعد ص ١١٧
(٣) فى الحج (٤) الركن والمقام
(٥) انظر الفصل رقم ٦
(٦) الصفا والمروة جبلان صغيران بمكة بينهما يكون « السعى » .
(٧) جبلان بمكة يلعبان دوراً مهما فى السيرة (انظر « دائرة المعارف الإسلامية » تحت هذين اللفظين) ؛ وهنا بمعنى جبلين من جبال بلاد العرب أيا كانا . وفى المخطوطة =

على غيره من البيوت[١] » . (ص ٨٤ س ٥ وما يليه)

— ٦ —

وقال (ابن الراوندى) بعد ذلك : « إن الرسول شهد للعقل برفعته وجلالته[٢]، فَلِمَ أتى بما ينافره إن كان صادقاً ؟» (ص٨٤ ، س ٩ ومايليه)

— ٧ —

قال الملحد فى شأن المعجزات والدفع فى وجوهها : « إن المخاريق شتى . وإن فيها ما يبعد الوصول إلى معرفته ، ويدق عن المعارف لدقته ، وإن أورد أخبارها بعد ذلك عن شرذمة[٣] قليلة يجوز عليها المواطأة

= حرى التى يقول عنها ياقوت لعلها بجانب حراء « معجم البلدان » ، طبع ڤستنفلد ج ٢ ص ٢٢٨) .

(١) وهناك ملحد آخر هو الثغورى (انظر الفصل التاسع فى نهايته) يذكر الأبيات الآتية التى تعبر عن ازدراء مناسك الحج ، (ولعلها لأبى العلاء) :

عَجِبْت لِكسرَى وأتباعِه وغَسْلِ الوُجوه بِبَول البقرْ
وقيصرَ لما سَوَى ساجداً لِما صَنعَته أكفُّ البَشرْ
وعُجْب اليهود برَب يُسَرُّ بسَفْك الدماء وَشم القتَرْ
وقوم أتوْا مِن أقاصِى البلاد لحلق الرءوسِ ولثمِ الحَجرْ

وبمعنى مختلف عن ذلك كل الاختلاف قال الحلاج (معتمداً على روايات قديمة) إن المرء يستطيع أن يستعيض عن مناسك الحج بشعائر رمزية فى أى مكان كان (انظر : L. Massignon, *La Passion d'al-Hosayn ibn Mansour al-Hallaj*, I, p. 275 ff.) وقد حكم قضاته على هذا الرأى بأنه زندقة (*ibid.*, p. 279) . وقد سمى ابن سبعين الفيلسوف المتصوف الأندلسى المسلمين الذين يتشددون فى الطواف حول الكعبة باسم : حُمرُ المدار (أى الحمير الذين يدورون فى الساقية) ؛ انظر ابن قيم الجوزية ، كتاب « مدارج السالكين » الجزء الأول (طبعة القاهرة سنة ١٣٣١) ص١٤٣ (أشار إلى ذلك الأستاذ ماسينيون) . وفيما يتعلق بما يقوله عبد المسيح الكندى بنفس المعنى انظر الفصل السادس .

(٢) انظر بعد ص ١١٦ تعليق ٢

(٣) انظر بعد ص ١١٩ تعليق ٤

فى الـكذب » . (ص ٨٦ ، س ١٤ وما يليه)[١] .

— ٨ —

[قال الداعى] : وأما (معجزة) تسبيح الحصى[٢] وكلام الذئب[٣] وما يجرى مجراها فلا ينكره العقول . (ص ٨٧ ، س ٩ وما يليه) .

— ٩ —

وأما قوله فى القرآن : « إنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها ، وتكون عدة من تلك القبيلة أفصح من تلك القبيلة ، ويكون واحد من تلك العدة أفصح من تلك العدة ... وهَبْ أن باع فصاحته طالت على العرب ، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان وما حجته عليهم[٤] ؟! » (٨٧ س ١٤ وما يليه)

— ١٠ —

قال الداعى فى الجواب عن رد الملحد على آية المباهلة (سورة ٣ : ٦١) وأسبابها ، ومعنى قوله سبحانه : « فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »

---

(١) انظر بعد ص ١١٩ وما يليها .

(٢) قارن مثلا : على بن ربَّن الطبرى ، كتاب « الدين والدولة » (طبعة ا . منجانا القاهرة سنة ١٩٢٣) ص ٣١ ؛ البغدادى ، « الفرق بين الفرق » ص١١٤ ، ص ٣٣٤ .

(٣) انظر كذلك ص ٨٦ س ١٨ ؛ كذلك شذرة رقم ١١ . ونحن هنا بصدد ما ذكره أهبان بن أوس الأسلمى (وعلى رواية أخرى : أهبان بن الأكوع) من أنه لقى ذئباً أثناء الصيد يخبره بظهور النبي . ولذلك سمى باسم : مكلم الذئب . انظر « طبقات » ابن سعد (طبعة ليدن سنة ١٩٠٨) ، ج ٤ ، ٢ ، ص ٤١ (وهناك أيضا أخبار معجزات أخرى تتعلق بحيوانات تنطق) ؛ كذلك ، نفس الكتاب ج ١ ، ١ ، ص١١٤ ؛ على بن ربَّن الطبرى ، « الدين والدولة » ص٣٢ ؛ عبدالمسيح الكندى « الرسالة » ص٦٤ (انظر الفصل السادس هنا) ؛ ت . أندريه ، « شخصية محمد » ص٥١ .

(٤) طعن فى إعجاز القرآن ؛ انظر بعد ص ٩ والفصل الخامس .

(٢ : ٩٤ ؛ ٦٢ : ٦) ، وما يجرى هذا المجرى من الآيات التى ذكرها : إنه إن كانت معانيها مستقرة بينه وبين خصمه ، كان له الطريق للرد عليها ، والدفع فى وجهها . فإن قال خصمه : إن معانيها غير[1] ما تضمنته شروط حسابك[2] ، بطل الرد كله وضاع تعبه . وكمثل ذلك حُكم رده على قوله : «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ» الآية (٢٩ : ٤٨) ، وما يعلّقه بقوله : لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ (٤٨ : ٢٧) ، بأن ذلك رجماً بالغيب لا قطعاً على ما يريد كونه[3] . فمن حِرْصِ الخصم

(١) لا يذكر الداعى هنا ويا للأسف نص طعن ابن الراوندى فى الآيات القرآنية . ولعله يدور فى نفس الميدان الذى فى كتاب «الدامغ» (انظر *Der Islam*, XIX (1930) p. 13f.) وسنفصل القول فيما بعد فى السبب الذى من أجله اختار ابن الراوندى هذه الآيات بالذات (ص ١٢١ وما يليها) — كذلك لا يذكر الداعى المعنى الذى يفهمه من هذه الآيات . وإنما يقتصر على لوم خصم ابن الراوندى ، الذى يرى الداعى أن تفسيره الخاطئ لهذه الآيات أعطى فرصة قيمة لابن الراوندى للطعن فيها . وتبعاً لتحفظه الذى لاحظناه من قبل (انظر بعدُ الفصل التاسع) لا يذكر هنا ولا فيما يلى تفسيره (أى التفسير الاسماعيلى) لهذه الآيات . ولا نستطيع أن نفهم تماماً أن المقصود بالخصم هنا وفى الجزء الثانى من الشذرة هم مثبتو النبوة الذين يضعهم ابن الراوندى نفسه فى كتاب «الزمرذ» فى مقابل البراهمة ؛ ولكن يحتمل جدا أن يكون المقصود بذلك مؤلفا إسلاميا حاول قبل مؤلف الرد أن ينقض كتاب « الزمرذ » وكان نقضه أساس الكتاب الذى أمامنا . انظر فيما يتعلق بهذه المسألة ما ذكرناه فى الفصل الثامن .

(٢) أى أن معانيها على خلاف ما تظن .

(٣) تعتبر هذه الآية من علامات نبوة محمد (انظر التعليق الأول على شذرة رقم ١١) كمثال على إخباره بغيبات الأمور التى وقعت فعلا فى أثناء حياة النبى (انظر مثلا على ابن رَبَّن الطبرى ، الكتاب المذكور ص ٣٤) . والتنبؤ المقصود هنا هو فتح مكة — وهنا يتعلق ابن الراوندى بالعبارة الصغيرة : « إن شاء الله » ، فيقول إن الذى هنا ليس تنبؤاً وإنما هو زعم ورجم بالغيب (انظر كذلك سورة ١٨ : ٢٢ وخصوصا Lane I, p. 1048) — قارن كذلك : أبو حاتم الرازى ، كتاب «أعلام النبوة» ص ١٧٨ حيث يقال بعد ذكر هذه الآية بعينها : «فإن قال قائل : فلم استثنى فى هذه =

على الرد ساق تأويل المقامات فى جملته غيرَ معتبر ؛ وموضع العيب فى ذلك ظاهر (ص ٨٩ س ١٩ وما يليه)[١]

— ١١ —

وأما قوله (ابن الراوندى) فى رد[٢] المعجزات التى من جملتها حديث الميضأة[٣] وشاة أم[٤] معبد وحديث سراقة[٥] وكلام الذئب[٦] وكلام الشاة[٧] المسمومة . (ص ٩٠ س ١٠ وما يليه)

— ١٢ —

وما قاله (ابن الراوندى) فى أن النبى (صلى الله عليه وآله) دفع فى وجه

= الآية حتى قال . «إن شاء الله آمنين » ، فإن الاستثناء يقع فى أشياء يقع فيها الشك . فقد احتج الملحدون بذلك . قلنا الخ » .

(١) لتوضيح هذه الشذرة كلها انظر بعد ص ١٢١ وما يليها .

(٢) هاجم ابن الراوندى فى كتاب «الزمرذ» مسألة المسائل فى علم النبوة الإسلامى وأعنى بها مسألة المعجزات . وكل الكتب التى تبحث فى هذا العلم تخصص فصلا لها . انظر ما سنقوله ص ١١٨ وما سنذكره من الكتب هناك . أما فيما يتعلق بنقض عبد المسيح الكندى لمذهب المعجزات الإسلامى فانظر بعد الفصل السادس .

(٣) انظر «رسالة» عبدالمسيح الكندى ص ٦٧ ؛ كذلك Tor Andrae, *Die Person Muhammeds*, p. 74 (شخصية محمد فى مذهب أمته وعقيدتها تأليف تور أندريه) .

(٤) انظر « طبقات » ابن سعد جـ ٢ ص ١٥٥ ؛ جـ ٨ ص ٢١١ ؛ « سيرة » ابن هشام (طبعة فستنفلد) ص ٣٣٠ ؛ Andrae, a. a. O., p. 48 .

(٥) أى سُراقة بن جُشْعُم ؛ انظر « سيرة » ابن هشام ص ٣٣١ وما يليها ؛ وكذلك أبو حاتم الرازى ، «أعلام النبوة» ، ص ١٦٤ ؛ قارن أيضا A. Sprenger, *Das Leben und die Lehre des Moh.* II, p. 547 (اشپرنجر ، « حياة محمد ودينه »)

(٦) انظر التعليق الثانى على الشذرة رقم ٩

(٧) انظر على بن ربن الطبرى ، كتاب «الدين والدولة» ص ٣٣ ؛ عبد المسيح الكندى ، «الرسالة» ص ٦٥ ؛ Andrae, a. a. O., p. 56 ؛ «سيرة» ابن هشام ص ٧٦٤ .

ملتين[١] عظيمتين متساويتين اتفقا على صحة قتل المسيح (عليه السلام) وصلبه فكذبهما[٢] . « وإن كان سائغا أن يُبطِلَ ذلك الجمهورَ العظيم المتكاثر العدد ، وينسبهما إلى الإفك والزور ، كان رد الشرذمة[٣] القليلة من نقلة[٤] هذه الأخبار عنه أمكن وأجوز ، بحجة الوضع الذى وضعه والقانون[٥] الذى قنّنه فى المباهتة والمكابرة[٦] » . (ص ٩٠ س ١١ وما يليه[٧])

— ١٣ —

قال الملحد : « إن الملائكة الذين أنزلهم الله تعالى فى يوم بدر لنصرة النبى (صلى الله عليه وآله) بزعمكم ، كانوا مغلولى الشوكة قليلى البطشة على كثرة عددهم ، واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين . فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلا » . وقال بعد ذلك : « أين كانت الملائكة فى يوم أُحُد لما توارى النبىُّ (صلى الله عليه وآله) ما بين القتلى فزعا ، وما

---

(١) النصارى واليهود .

(٢) إشارة إلى سورة النساء : ١٥٧

(٣) انظر بعد ص ١٢٠

(٤) يمكن أيضاً أن نحتفظ بما هو مكتوب فى المخطوطة « ناقلة » إذ نصادف مثل هذه القراءة لدى القرقسانى ؛ انظر I. Friedländer, *Qirqisàni's Polemik gegen den Islam, in, Frestschrift* I. *Goldziher* (Strassburg 1911) p. 109, note 4.

(٥) ومما هو جدير بالملاحظة أن ابن الراوندى يسمى ما اشترعه النبى باسم « قانون » . ولا بد أن يكون استعمال لفظ « قانون » نادراً فى الكتب الدينية القديمة ونصادفه لدى مؤلف الرد ص ٨٧ س ٩ . ويقصد بلفظى « قانون » و « وضع » اللذين يحس ابن الراوندى أنهما غريبتان (« وضع » مأخوذة من ترجمة لفظ Θέσις اليونانية) نوعاً من السخرية .

(٦) طعن فى « الإجماع » .

(٧) فى ص ٩١ س ٧ — ٩ صورة أخصر لهذه الشذرة .

باله لم ينصروه فى ذلك المقام[١] ؟! » (ص ٩٣ س ٦ وما يليه)

— ١٤ —

وأما قوله (ابن الراوندى) فى إخبار النبى (صلى الله عليه وعلى آله) عن بيت المقدس وإعطائه علامته للناس ، إنه مَخْرَق بذلك ؛ لأنه يمكن مسيره إليه من مكة ، ومشاهدته له ، والعود من ليلته ، لقرب المسافة بين مكة وبينه . فالجواب أن بصيرة الملحد فى علومه ، مثل بصيرته بالطريق ما بين مكة وبيت المقدس وكفى بذلك جهلاً وسُخْنة عين[٢] (ص ٩٤ س ٤ وما يتلوه)

— ١٥ —

[قال الداعى] : وأما حكايته عن بعض دافع النبوات : « إن الكلام مستملى عن الوالدين صاعدا قرنا فقرنا إلى ما لا نهاية له ، فليس للخاق أول[٣] » ... وشبه ذلك بأصوات الطيور ، وبلوغها غرضها فيه ، وأنه إذا كان موجودا فى الطيور ما يفعل ذلك ، كان فى الناس أمكن وجوداً . فهذا تشبيه باطل : لأن أصوات الطيور ، وسباحة الإوزّ ، وتعلق الطفل المرضع بالثدى مما ذكر ، جميعها طبيعة فيها ؛ والكلام لا يصح إلا بمكلّم ،

---

(١) فيما يتعلق بما يقوله به عبد المسيح الكندى مشابهاً لهذا ، انظر بعدُ الفصل السادس .

(٢) انظر بعد ص ١١٨ تعليق ١ .

(٣) كما يذكر الداعى ، يقول ابن الراوندى بمذهب قدم العالم . وقد تناول ابن الراوندى هذه المسألة بالتفصيل فى كتاب « التاج » ، (انظر الخياط ، كتاب « الانتصار » ص ٢ ، ص ١٧٢ وما يليها ؛ كذلك الأشعرى ، قارن W. Spitta, *Zur Geschichte Abu,l Hasan al-Ashari* (Lpzg. 1876), p. 68 unten. [من تاريخ أبى الحسن الأشعرى] ، متخذا وجهة نظر الدهرية .

أو مفهم ، وهذا غلط كبير . (ص ٩٤ س ٩ وما يليه[١]) .

— ١٦ —

وأما قوله (ابن الراوندى) لمن يقول بالنبوات : « خبرونا عن الرسول كيف يفْهم ما لا تفهمه الأمة : فإن قلتم إنه بإلهام ، ففهم الأمة أيضا بإلهام ؛ وإن قلتم بتوقيف ، فليس فى العقل توقيف[٢] » . (ص ٩٤ س ١٦ وما يليه)

— ١٧ —

وأما قوله (ابن الراوندى) فى النجوم : « إن الناس هم الذين وضعوا الأرصاد عليها حتى عرفوا مطالعها ومغاربها ، ولا حاجة بهم إلى الأنبياء فى ذلك » . (ص ٩٥ س ٣ وما يليه[٣])

— ١٨ —

قال ابن الراوندى على سبيل الهزء : « إنه يلزم من يقول بالنبوة ، أن ربهم أمر الرسول أن يُعلمهم صوت العيدان . وإلا فمن أين يُعرَف أن أمعاء الشاة إذا جفّت وعُلّقت على خشبة فضُربت ، جاء منها صوت طيب ؟ ! » . (ص ٩٧ س ١٣ وما يليه)

— ١٩ —

وقد سقنا جواب الرسالة الموسومة «بالزمردة» . وهى خزفة مكسورة

---

(١) يناقش ابن الراوندى هنا الرأى القائل بأن اللغات ترجع إلى الأنبياء .

(٢) انظر ص ١٢٣ وما يليها .

(٣) فيما يتعلق بتصديق ابن الراوندى بالنجوم ، انظر كتاب « الانتصار » للخياط ص ١٠٣ .

حسبما فتح الله تعالى لنا فيه . ونحن نقول قولا يشهد الله سبحانه على حقه وصدقه : إن ابن الراوندى ، الذى عمل الرسالة ، مصيبته بعقله ، أعظم من مصيبته بدينه[١] . فإنه تتبع الأنبياء عليهم السلام ، الذين هم ملوك الديانات ، بالنقص . ومعلوم أنه لو كانوا على ما يقوله الملحدون ، مبطلين فى النبوة ، لكان فيهم من المنفعة الظاهرة فى سياسة الخلق ، وتحصين دمائهم وأموالهم ، ومنع قويهم من ضعيفهم ، ما يمنع عن تنقُّصهم وثلبهم . وتوكيل هذا الملحد عن البراهمة فى هذا الباب بزعمه[٢] ، لا يوجب له منهم ثوابا فى الدنيا ولا فى الآخرة . بل المحصول منه ، إحداد شفار القتل لنفسه ، لو كان حيا ، وأَلْسُن اللعن والخزى إليها ميتا . فإن الذى أتعب خاطره وسره فى شىء ، يكون نتيجته فى الحياة الذل والقتل ، وفى الممات الخزىَ واللعنَ — لخاسرُ الصفْقة ظاهر الشّقوة . « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخسرِين أَعمَالاً : الَّذِينَ ضَلَّ سَعيُهُمْ فِى الْحَيوٰة الدُّنْيَا وَهُمْ يَحسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحسِنُونَ صُنْعاً » (١٨ : ١٠٣ ، ١٠٤) . (ص ٩٨ س ٢ وما يليه)

---

(١) وبمثل هذا يحكم الخياط (كتاب « الانتصار » ص ١٧٣ س ٦) على ابن الراوندى « وما ضررت بذلك غير نفسك » — ويقول البلخى عن ابن الراوندى (شذرة « الفهرست » ، WZKM. IV, p. 226 [ص ٤ س ٢٢ الطبعة المصرية] = « معاهد التنصيص » ، نيبرج الكتاب المذكور ص ٢٦) : « وكان علمه أكثر من عقله » . ويظهر أن هذه العبارة كانت تضرب مثلا للعقليين والملاحدة . فيقال مثلا عن أحمد بن الطيب السَّرخسى (« الفهرست » ص ٢٦١ س ٢٦) : « وكان الغالب على أحمد بن الطيب ، علمه لا عقله » ، وتقول لنا الروايات (كتاب « الأغانى » ، الجزء الثامن عشر ص ٦٧ ؛ ابن خلكان ، جـ ٢ ص ١٢٥) إن ابن المقفع تعجب من زيادة عقل الخليل ابن أحمد على علمه بينما تعجب الخليل من زيادة علم ابن المقفع على عقله (لم يفسر ف . جبريلى *L'Opera di Ibn el-Muqaffa*, RSO, XIII, p. 246 هذه الرواية تفسيراً صحيحاً كل الصحة) .

(٢) أى أن ابن الراوندى ادعى آراءه الإلحادية على البراهمة .

القطع الأخرى

— ٢٠ —

ومنها (أى كتبه) كتاب يعرف بكتاب « الزمرذ » ذكر فيه آيات الأنبياء عليهم السلام كآيات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم ، فطعن فيها وزعم أنها مخاريق ، وأن الذين جاؤا بها سحرة مُمَخْرِقون ، وأن القرآن من كلامٍ غير حكيم ، وأن فيه تناقضاً وخطأ وكلاما يستحيل ؛ وجعل فيه بابا ترجمه « على المحمدية خاصة » يريد أمة محمد صلى الله عليه .
(الخياط : كتاب « الانتصار » ص ٢ وما يليها) .

... وبوضعك كتاب « الزمرذ » تطعن فيه على الرسل وتقدح فى أعلامها وبوضعك فيه باباً ترجمته : « على المحمدية خاصة » فهذا مذهبك وهو قولك[1]
(الخياط ، نفس الكتاب ص ١٧٣) .

— ٢١ —

قال المؤلف (ابن الجوزى) : ورأيت بخط أبى الوفا بن عقيل ، قال : كان الخبيث ابن الريوندى قد سمى كتابه الذى اعترض به على الشريعة الإسلامية المعصومة عن اعتراض مثله من الملحدين كتاب «الزمرد» . فأخذ أبو على الجبانى (هكذا !) يعيبه فى تسميته بالزمرد ، ويذهب إلى أنه أخطأ وجهل فى تلقيب العلم بالجواهر ، وأن أهل العلم لا يعيرون العلوم أسماء ما دونها ؛ والجواهر ناقصة بالإضافة إلى العلوم . فأزرى عليه بذلك ظناً منه أنه قصد تلقيبه بالزمرد إعارة له اسم النفيس من الجواهر . قال ابن عقيل : فوجدنا فى بعض كلامه من كتاب آخر ما أبان به عن غير ذلك مما ظنه أبو على . فقال :

---

(١) يشابه هذا ما هو موجود ص ١٥٥ من الكتاب نفسه .

« إن للزمرد خاصة هى أنه إذا رآه الأفعى وسائر الحيات عَمِـيَتْ » . قال : « فكان قصدى أن الشُّـبَه التى أودعتها الـكتاب تُـعْمِى حجج المحتجين » . فاعتقد ما أورده عاملا فى حجج الشرع حسب ما أثر الزمرد فى حدق الحيات (ابن الجوزى : « المنتظم فى التاريخ » نشره هـ رتر فى « مجلة الإسلام » ، Der Islam المجلد التاسع عشر سنة ١٩٣٠ ص ٣ س ٩ وما يليه)[١] .

— ٢٢ —

نجد فى كلام أكثم بن صيفى[٢] أحسن من : « إنا أعطيناك الـكوثر » (سورة ١٠٨ : ١) (الـكتاب السالف : ص ٤ س ٩ — ١٠)[٣] .

— ٢٣ —

إن الأنبياء وقعوا بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب . (الـكتاب السالف : ص ٤ س ١٠ — ١١)[٤] .

— ٢٤ —

وقوله (أى النبى) لعَـمّار[٥] : تقتلك الفئة الباغية ، فإن المنجم يقول مثل هذا . (الـكتاب السالف : ص ٤ س ١٥)[٦] .

---

(١) انظر بعد ص ٦ — وتذكر هذه القطعة بنص مشابه فى كتاب « معاهد التنصيص » (انظر نيبرج ، الـكتاب المذكور ص ٢٧) بوصفها اقتباسا مباشرا من كتاب الزمرذ .

(٢) انظر رتر فى هـذا الموضع — كذلك I. I. Reiske, *De Aktamo philosopo arabico* (Lpzg. 1759)

(٣) انظر ص ١٢١ .

(٤) كذلك فى « معاهد التنصيص » (انظر نيبرج ص ٢٧) : « إن الأنبياء كانوا يستعبدوون الناس بالطلاسم » .

(٥) انظر رتر فى هذا الموضع .

(٦) كذلك « معاهد التنصيص » فى الموضع المذكور .

— ٢٥ —

قال أبو على الجبائى : « . . . ووضع كتاباً فى الطعن على محمد صلى الله عليه وسلم وسماه « الزمرذ » وشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعة عشر موضعاً من كتابه ونسبه إلى الكذب ، وطعن فى القرآن » (ص ٥ س ١ — ٣).

— ٢٦ —

وقد كان ابن الريوندى وأبو عيسى محمد بن هارون الوراق الملحد أيضاً يترامیان بكتاب « الزمرذ » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن (ص ٣ س ٥ — ٨) .

٣ — تأليف الكتاب

بافتراضنا أن مؤلف الرد سرد المقتبسات من كتاب « الزمرذ » بنفس الترتيب الموجود فى النص الأصلى للمؤلف فإننا نستطيع أن نرتب القطع المختلفة المنفردة مع الأجزاء الرئيسية التالية من الكتاب هكذا :

١ — سمو العقل على النقل (الشذرة رقم ٣ ، ٤) .

٢ — نقد الإسلام :

(ا) الإسلام والشريعة الإسلامية تتناقض مع العقل (رقم ٥، ٦)

(ب) معجزات محمد :

(a) فروض عامة (رقم ٧) ؛

(b) تواريخ المعجزات (رقم ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤) ؛ ومن بين المعجزات التى يعدها المسلمون دلائل على نبوة محمد القرآن نفسه ؛ نقد إعجاز القرآن (رقم ٩، ١٠).

(حـ) نقد التواتر فى الإسلام (رقم ١٢) .

٣ — العلم ضد النبوة .

(ا) الكلام الإنسانى حادث بطبعه (رقم ١٥) ؛ ولا يرجع فى أصله إلى الأنبياء (رقم ١٦) .

(ب) والفلك والموسيقى (رقم ١٧ ، ١٨) لا يرجعان فى أصلهما إلى الأنبياء .

وعلى هذا النحو تترتب القطع الأخرى الباقية . فالقطعة رقم ٢٢ تتصل بنقد عقيدة إعجاز القرآن (رقم ٢ ، ب ، b) ورقما ٢٣ ، ٢٤ من المحتمل أن يرتبطا بالجزء الثالث الرئيسى . وهذا كله يتفق مع ما يرويه الخياط (رقم ٢٠) من أن الكتاب يحوى « بابا ترجمه « على المحمدية خاصة » . ولهذا فمن المحقق أن الجزء الثانى الرئيسى هو الذى استثار الجبائى أيما استثارة (رقم ٢٥). والجزءان الأول والثالث اللذان فيهما يفصل القول فى سمو العقل وفى معظم الأنبياء موجهان ضد عامة الأديان القائلة بالوحى .

وعنوان الباب الذى ذكره الخياط باسم « على المحمدية خاصة » يحتاج إلى عناية أكبر . فالخياط يذكر فى كتابه كتاب «الزمرذ» فى مواضع ثلاثة ، وفى كل مرة يشير إلى هـذا العنوان بحسبانه فضيحة للمؤلف[١] . ومن الكفر فى نظر المسلم أن يرى دينه يسمى إلى اسم صاحب الديانة . فابن الراوندى يريد من هذا أن يؤكد أنه لا يعد من الأمة الإسلامية أعنى أنه يقف موقف البراهمة . ولهـذا فإن تسمية الأوربيين للاسلام والمسلمين

---

(١) انظر القطعة رقم ٢٠ — أما أن الخياط كان يرى فى هذا العنوان فسقاً كبيراً فذلك جلى كل الجلاء ، حتى إنه يضيف إلى ما يقول الكلمات التفسيرية الآتية : « يريد أمة محمد صلى الله عليه » ، وفى الموضعين الآخرين اللذين فيهما يذكر كتاب «الزمرذ» (ص ١٥٥ — ١٧٣) لا يعطى دليلا آخر على شناعة الكتاب غير عنوان هذا الباب .

باسم المحمدين والمحمدية بها نوع من الاستهزاء أو على الأقل كان فى الأصل بها ذلك .

وابن الراوندى يذكر آراءه الخاصة على لسان البراهمة ، وسنبحث فى فصل من الفصول التالية بأى حق فعله . وبهذه المناسبة نقول إن ملاحظة مؤلف الردّ مهمة ، وهى أن ابن الراوندى أورد فى كتابه حجج من يقولون بالنبوة وكذلك حجج من ينكرونها (البراهمة — رقم ٢) . ويقول أيضا إنه أعرض عن إيراد ما بكتاب ابن الراوندى من حجج للأولين ويذكر بصراحة أن مقتبساته تقدم الكتاب فى صورة ناقصة .

ولنقارن ذلك بالكتاب الوحيد الذى يكاد يكون قد حفظ بأكمله لابن الراوندى وهو «فضيحة المعتزلة» . ففى هذا الكتاب أيضاً لا يعرض ابن الراوندى آراءه عرْضا بل يفصلها أثناء جداله مع المعتزلة الذين يذكرون مذاهبهم مع اقتباسات كثيرة مفصلة . ويجب علينا أن نستنتج ، فى احتمال قوى، مما يذكر فى القطعة رقم ٢ ، أن آراء الكتاب كانت مصوغة فى قالب أسئله وردود بين البراهمة والمسلمين أى المؤمنين بالنبوة . وغنى عن البيان أن مؤيدى النبوة يبدون هناك فى صورة نحيلة[1] .

وليس من المحقق أن تفسير اسم « كتاب الزمرذ » (رقم ٢١) موجود حقاً فى الكتاب نفسه . والملاحظة التى نجدها عرضا لدى الكتّاب الإسلاميين من أن الأفاعى تسيل عيونُها[2] إذا وقع بصرها على الزمرذ ،

(١) لبداية القطعة رقم ٣ علاقة محتملة بطريقة تأليف الكتاب هاتيك . فخصوم البراهمة الذين هم موضوع الحديث هنا «إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا» لا يمكن أن يكونوا غير مؤيدى النبوة القائلين بصحتها ؟ وعلى العكس من ذلك فإن ورود لفظ « خصم » فى القطعة رقم ١٠ يحتمل تفسيره على وجه آخر ؟ انظر الفصل الثامن .

(٢) قزوينى: كتاب «عجائب المخلوقات» (طبعة ڤستنفلد) ٢٢٧ (تبعا للرازى) ؟ —

سيستخدمها ابن الراوندى ليقارن بها تأثير الكتاب فى القراء المؤمنين . وكنا نود أن نرى ملحوظة مثل هاتيك فى مقدمة الكتاب . ولكن ابن عقيل الذى يذكرها فى ثنايا نص ابن الجوزى يقول صراحة إنه لم يقرأها فى رد الجبائى الذى استخدمه ولكنه أخذها من كتاب آخر لابن الراوندى[1] ،

= التيفاشى : كتاب « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » ، انظر ا . رَيْنيرى بِشْيا A. Raineri Biscia : « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار لأحمد التيفاشى » (بولونيا سنة ١٩٠٦) ص ٣٣ . ابن البيطار : كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (طبعة بولاق ١٢٩١) ج ٢ ص ١٦٧ (تبعا للرازى) ؛ وانظر أيضا ل . لكلير *Traité des simples*, Notes et extraits المجلد ٢٥ (باريس سنة ١٨٨١) ص ٢١٧ . كتاب « غاية الحكيم » المنسوب إلى المجريطى (طبعة هـ . رتر ، ليپتسك سنة ١٩٣٣) ص ٣٩٧ . واقتباسات القزوينى وابن البيطار عن الرازى هى عن كتابه « الخواص » (مخطوطة القاهرة ، فرع الطب رقم ١٤١ ؛ وتوجد نسخة حديثة لدى مجمع تاريخ الطب والعلوم الطبيعية ببرلين) حيث يُرجع إلى ابن ماسويه كأقدم مصدر . وهاك النص كما فى النسخة ص ١٤ « زمرذ : قال ابن ماسويه : إن وقع عين الأفعى على الزمرذ الفائق سالت عينها على المكان » . ومثل ذلك ما يقوله جابر ابن حيان فى كتاب «الخواص» (مخطوطة ولى الدين رقم ٢٥٦٤) ص ١٨ فى أسفل : « ومنها أن الأفعى البلوطى الرأس إذا رأى الزمرذ الخالص عمى وسالت عينها لوقتها وحيا سريعا » ، وعلى العكس من ذلك لايحوى كتاب «الأحجار» لأرسطو أى ذكر لهذا الفعل الغريب للزمرذ (انظر يوليوس روسكا ، كتاب الأحجار لأرسطو ص ١٣٤ ، طبعة هيدلبرج سنة ١٩١٢) . والبيرونى هو الوحيد الذى لا يصدق هذه المسألة . ففى كتابه «الجماهر فى معرفة الجواهر» (مخطوطة سراى : فرع الطب رقم ٢٠٤٧) ص ٢٤٩ يقول : « ومنها ما أطبق الحاكون عليه من سيلان عيون الأفاعى إذا وقع بصرها على الزمرذ حتى دوّن ذلك فى كتب الخواص وانتشر على الألسنة وجاء فى الشعر .... ومع إطباقهم على هذا لم يستقر [الصواب : تسفر] التجربة عن تصديق ذلك ؛ فقد بالغت امتحانه بما لا يمكن أن يكون أبلغ منه من تطويق الأفعى بقلادة زمرذ ومن فرش سلته به وتحريك خيط أمامه منظوم منه مقدار تسعة أشهر فى زمانى الحر والبرد ولم يبق إلا تكحيله به ؛ فما أثر فى عينيه شيئاً أصلا إن لم يكن زاده حدّة بصر » .

(١) لم يصل إليه إلا عن طريق رد على هذا الكتاب . انظر الفصلين السابع والثامن .

ومايقوله عبدالرحيم العباسى من أن هذا الاقتباس موجود فى كتاب «الزمرذ» نفسه ، لا قيمة له بإزاء القول السابق ، ذلك لأن معرفته بكتاب «الزمرذ» صادرة عن كلام ابن الجوزى ، وعلى هذا فدقة أقواله مشكوك فيها : والواقع هو أن ابن الراوندى عبر بنفس الكلمات التى ذكرناها آنفاً فى كتاب له متأخر عن كتاب «الزمرذ» .

وممكن جداً أن تكون إحدى عبارات ديباجة الكتاب قد حُفظت لنا . فمن المستطاع أن يكون مؤلف الرد قد أراد فى الاقتباس الشعرى رقم ٤ أن يعبر عن إهابة ابن الراوندى القوية بالعقل . ومع هذا فيبقى من غير الواضح لماذا كانت هذه العبارة مسجوعة (مطارا ، منارا) . فلا مؤلف الرد ولا ابن الراوندى يستعمل السجع . ومع ذلك فنستطيع أن نزعم فى شىء من اليقين أن العبارة كانت موجودة فى مقدمة كتاب ابن الراوندى التى كانت مكتوبة بالسجع . فإن مدح العقل كان مذكوراً هناك حقاً[1] .

٥ — تحليل محتوى الكتاب

يبدأ ابن الراوندى كتابه بالعقل الإنسانى فيمدحه ويسهب فى إطرائه بحسبانه السبيل الوحيد للمعرفة (قطعة رقم ٤). وعلى هذا فلا بد لخصومه أن يتفقوا معه على أنه أعز ما يملك الإنسان ، وأنه الملجأ الوحيد لتقويم الأشياء (رقم ٣ فى المبدأ) بل إن الرسول نفسه قد شهد بسمو العقل (رقم ٦)[2] والعقل هو الذى يمتحن قيمة النبوة : فإما أن تتفق تعاليم النبى

---

(١) فيما يتعلق بالنثر المسجوع فى الكتابات الإسلامية انظر أقوال ج . برجشترسر فى *Islamica* المجلد الرابع سنة ١٩٣٠ ص ٢٨٥ وما يليها .

(٢) لعله يشير إلى الحديث المروى مبكراً الذى يمثل العقل كأول ما خلق الله . انظر : اجناتس جولدتسيهر : «العناصر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية فى الحديث» =

مع العقل وحينئذ فلا لزوم لها ؛ وإما أنها تتناقض وإياه وحينئذ فهى باطلة (رقم ٣) . ووحىُ محمدٍ المزعومُ فى تعارض وتناقض مع العقل شنيع (رقم ٦) . إذاً فما معنى هذه الأوامر الدينية العديدة المفروضةِ على المسلم من وضوءٍ وصلاةٍ وطوافٍ حول الكعبة وزيارة للأماكن المقدسة ؟ هنا يضع ابن الراوندى نفسه فوق أحكام الشريعة الإسلامية فى إزدراء وجرأة غريبة (رقم ٤) .

وفكرة الوحى إذا قوّمناها بمعيار العقل دنست وشاهت . وهناك أناس يرجعون مصدر العلوم والفلك والموسيقى (رقم ١٧ ، ١٨) وحتى الكلام الإنسانى (رقم ١٥) إلى الأنبياء ولكن هذه ليست فى حاجة إلى قوة فوق قوى الإنسان ، وكما يقول ابن الراوندى فى كتاب آخر اسمه «الفريد» لم يدَّعِ إقليدس وبطليموس النبوة مطلقا[1] .

فالأنبياء فى نظر ابن الراوندى ليسوا إلا سحرة مُمَخْرِقين (رقم ٢٢ — ٢٣) ؛ والمعجزات التى تروى عن محمد قائمة على الأكاذيب التى اخترعها

= « مجلة الدراسات الآشورية » المجلد الثانى والعشرون سنة ١٩٠٩ ص ٣١٨ وما يليها [انظر هذا البحث كتابنا : « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » ص ٢١٨ — ٢٤١ ، القاهرة سنة ١٩٤٠] وهو يذكر كثيرا فى القرن التاسع ، مثلا جابر ابن حيان فى كتاب « الموازين الصغير » (برتلو ، «الكيمياء فى العصور الوسطى » المجلد الثالث ، ص ١٠٥ من النصوص العربية) ؛ أحمد بن حائط (المتوفى حوالى سنة ٢٣٠) تبعاً لما يقوله الشهرستانى فى « الملل » ص ٤٤ س ٦ وما يليه ، والبغدادى فى كتاب «الفَرْق» ص ٢٦١ س ١ وما يليه ؛ أبو عبد الله محمد بن على الترمذى (المتوفى سنة ٢٨٥) ، كتاب « الأكياس والمغترين » (مخطوطة دمشق ، المكتبة الظاهرية فرع التصوف تحت رقم ١٠٤ ؛ ولدى مكتبة الدولة البروسية ببرلين صورة شمسية منها) ، ورقة ب ؛ الراغب الأصفهانى : كتاب « تفصيل النشأتين » (بيروت سنة ١٣١٩هـ) ص ١٥ — وفيما يتعلق بتقدير المعتزلة للعقل انظر مثلا اجناتس جولدتسيهر : «اتجاهات المفسرين المسلمين » ، ص ١٣٦ .

(١) «الإسلام» *Der Islam* المجلد التاسع عشر سنة ١٩٣٠ ص ١٢ وما يليها .

المتأخرون ولفّقوها (رقم ٧ ؛ كذلك رقم ٨ ، ١١)[١] . هذا إلى أن بعض هذه المعجزات مضحك لدرجة أنها لا يمكن أن تروى بهذا الوصف . وما أضعف شوكة هؤلاء الملائكة الذين حاربوا فى صف محمد والمسلمين فى فى يوم بدر ! وأين كان هؤلاء الملائكة فى يوم أحد ؟ (رقم ١٣) .

والسبب الذى يمكن افتراضه لتعليل عناية ابن الراوندى بنقد معجزات محمد هو أنها منذ زمان متقدم كان تعتبر برهانا ساطعاً على نبوته ، وقد شغلت فعلا المركز الأول فى البحوث الكلامية فى النصف الأول من القرن الثالث[٢] . لقد أقبل أهلُ السنة من المسلمين على أخبار العامة عنها وعنوا بتصنيف مؤلفات خاصة فيها . وأفرد على ابن رَبَّن الطبرى للمعجزات فصلا خاصا فى كتاب «الدين والدولة»[٣] ، ويذكر ابنُ سعد فى الجزء الأول من «طبقاته» كلّ ما وصل إليه من روايات عنها تحت عنوان : علامات النبوة . ونجد لدى الجاحظ المرة الأولى عنوان : « دلائل النبوة »[٤] ، وهو العنوان

---

(١) لم يبق لدينا معظم نص نقد ابن الراوندى للمعجزات . ومؤلف الرد يقتصر على سرد ما نقضه ابن الراوندى من أخبار . ولهذا فإن المؤلف لم يذكر نقد ابن الراوندى لمعجزة الإسراء (رقم ١٤) . أما افتراض جهل ابن الراوندى للبعد بين مكة وبيت المقدس فلا يصدق قطعاً . فهنا كما فى مواضع أخرى شوء فهم مقصود لأقوال ابن الراوندى . فما كان للخياط فى رده على فضيحة المعتزلة أن يذر هذا اللوم .

(٢) فيما يتعلق بتاريخ معجزات الرسول انظر ى . هوروفتس فى مجلة «الإسلام» المجلد الخامس ص ٤١ وما يليها — وسأعتمد فيما يلى خصوصا على بحوث ت . أندريه : « شخصية محمد فى مذهب أمته وعقيدتها » (ستكهولم سنة ١٩١٧) ص ١٠٣ وما يليها .

(٣) طبع الأستاذ ا . منجانا ، بالقاهرة سنة ١٩٢٣ ص ٢٩ وما يليها .

(٤) وفى نفس الموضوع كذلك كتابا الجاحظ اللذان اقتبس منهما فى كتابه «الحيوان» (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣) ج ٦ ص ٥ : وهما كتاب « الحجة فى تثبيت النبوة » وكتاب « الفرق بين النبي والمتنبى ، والفرق ما بين الحيل والمخاريق وبين الحقائق الظاهرة والأعلام الباصرة » .

الذى سنراه يتكرر كثيرا فى العصور التالية[١] . وعلى العكس من ذلك لم يكن المعتزلة يسرفون فى إعطاء أهمية كبرى للمعجزات . « هم لم ينكروها على الإطلاق ؛ لكنهم اعترضوا على استغلالها كبرهان على بعثة الرسول ، ووجهوا هذه الاعتراضات فى الوقت نفسه إلى أهل السنة الذين ناصبوهم العداء »[٢] . ورفض النَّظَّام خصوصا هذا النوع من المعجزات بوصفه غيرَ متفق مع الإسلام[٣] .

وكان للنقد العنيف الذى أثاره ابن الراوندى ضد التواتر[٤] ، نظيرُه فى موقف المتطرفين من المعتزلة الذين أنكروا قيمة « التواتر » البرهانية . فكانوا يقولون (تبعاً للايجى)[٥] : من الممكن أن يكذب واحد من بين

---

(١) انظر على الخصوص كتاب « دلائل النبوة للبيهقى » ، طبعه فى أبسالا الأستاذ نيلاندر Nyllander سنة ١٨٩١ ؛ كذلك الماوردى : كتاب «أعلام النبوة» (طبعة القاهرة سنة ١٣١٩) ، وأبو حاتم الرازى : كتاب «أعلام النبوة» (مخطوطة الهمدانى) .

(٢) تبعا لما يقوله ت . أندريه فى نفس الكتاب السابق الذكر ص ١٠٩ ؛ انظر على الخصوص البغدادى : « الفرْق بين الفرَق » ص ٣٣٤ .

(٣) انظر كذلك الفصل السابع فى نهايته — أما المعتزلة المتأخرون فليسوا متطرفين إلى هاتيك الدرجة فيما يتعلق بهذه المسألة . وحينما يقال إن الجبائى كان يؤمن بمعجزات مثل تسبيح الرمال وتأوه جذع النخلة وكلام الحمل المشوى (انظر أندريه نفس الكتاب ص ١٨ ؛ وهو لا يذكر المصدر ويا للأسف) فلعل هذه الرواية ترجع إلى رد الجبائى على كتاب الزمرذ لابن الراوندى . إذ لا مندوحة له من الوقوف فى صف المؤيدين للمعجزات فى حربه مع ابن الراوندى ؛ انظر أيضاً التفريق الشيق بين معجزات العمل ومعجزات العلم للمؤلف الاسماعيلى للرد الذى لدينا ؛ وانظر بعدُ الفصل التاسع .

(٤) حارب الأشعرى ابن الراوندى فى كتابه المسمى باسم : « كتاب النقض على ابن الراوندى فى إبطال التواتر وفيما يتعلق به الطاعنون على التواتر » — س . ف . إشْپتا : « من تاريخ أبى الحسن الأشعرى » (ليپتسك سنة ١٨٧٦) ص ٧٧ رقم ٧٣ .

(٥) انظر أندريه ، نفس الكتاب ، ص ١٠٩ من أسفل — فيما يتعلق بالنظام انظر على الخصوص البغدادى : « الفرق » ص ١٢٨ وما يليها .

رجال التواتر . وتبعاً لهذا فمن الممكن أيضا أن يكذبوا جميعا لأن كذب الجميع ما هو إلا كذب واحد بمفرده . ولهذا فإن اللفظ الذى يستخدمه ابنُ الراوندى فيما يتعلق بهذا وهو : « المواطأة على الكذب » قد أحدثه المعتزلة من قبل(١) . أما أن طابع هجوم ابن الراوندى يختلف عن موقف المعتزلة من حيث المبدأ ، فذلك مما لا يحتاج إلى تبيان .

وهذا الإنكار نفسُه يتعدى التواتر إلى «الإجماع» . فما أمر به النبى من الأخذ بالإجماع قائم على أساس باطل : لأن المسلمين الذين يتفقون فى مسألة دينية أو سُنّة ما ، إن هم إلا شرذمة قليلة بالقياس إلى مجموع الأمم التى تدين بدين موحى به مثل اليهود والنصارى(٢) .

ومن بين القطع التى فيها يُنقَد مذهبُ المعجزات الإسلامى تلك التى فيها يكون القرآنُ هدفاً لسخرية ابن الراوندى . والقرآن من بين المعجزات التى يتخذها المسلمون برهانا على نبوة محمد بل هو أجل هذه المعجزات خطراً . وابن الجوزى يقول فى إشارته المختصرة إلى كتاب الزمرذ : « ثم يبدأ بالطعن فى القرآن ويزعم وجود أخطاء لغوية به »(٣) . ومن قبل

---

(١) انظر على الخصوص اجناتس جولدتسيهر فى مجلة «الاسلام» جـ ٣ ص ٢٣٤ وما يليها — والاصطلاح : « المواطأة » نجده كذلك فى نقد اليهود العقلى لمعجزات المسيح ، لدى الجاحظ فى كتابه الرد على النصارى (« ثلاث رسائل للجاحظ » طبع ا . فنكل I. Finkel ، القاهرة سنة ١٩٢٦) ص ٢٣ س ٨

(٢) المسألة هنا هى مسألة صلب المسيح . ويمثل ما يقول ابن الراوندى يقول محمد بن زكريا الرازى (فى كتاب « أعلام النبوة » لأبى حاتم الرازى ، مخطوطة حسين الهمدانى ص ١٣٦) : « إن القرآن يخالف ما عليه اليهود والنصارى من قتل المسيح (عليه السلام) . لأن اليهود والنصارى يقولون إن المسيح قتل وصلب والقرآن ينطق بأنه لم يقتل ولم يصلب وأن الله رفعه إليه» .

(٣) مجلة «الإسلام» المجلد التاسع عشر سنة ١٩٣٠ ص ١٢ .

اشتغل ابنُ الراوندى بنقد القرآن فى كتابه «الدامغ» . وقد حفظ لنا ابن الجوزى شواهدَ من هذا النقد . أما فى كتاب «الزمرذ» فيهاجم ابنُ الراوندى نظرية إعجاز القرآن(١) ويقول إن فصاحة أكثم بن صيفى تفوق فصاحة القرآن (رقم ٢٢) ؛ وحتى لو سلمنا بأن معرفة النبى للغة العربية تفوق معرفة جميع العرب ، فهل تقوم دعوى الإعجاز البيانى للقرآن حجةً على من ليسوا بعرب ؟ ! (رقم ٩) . وهذه القطعة مثال قوى للهجمات العنيفة التى قامت بها دوائرُ الملاحدة ضد القرآن ، تلك الهجمات التى أدت إلى تكوين عقيدة إعجاز القرآن . ولا نستطيع أن نفهم مكانةَ هـذه المسألةِ الخطيرةَ فى علم التوحيد الإسلامى ، إلا بحسبانها دفاعاً عن نقد عنيف ، مثل نقد ابن الراوندى .

ويشير إلى نفس هذا الاتجاهِ ما هاجمه ابن الراوندى من الآيات التى عنى بها (دون تفصيل ويا للأسف) مؤلفُ الرد (فى القطعة العاشرة) والتى يرى فيها المسلمون دليلا آخر على إعجاز القرآن . والنَّظَّام ، كما نعرف من كتاب «الانتصار»(٢) — وهو أكثر المتكلمين جرأة وحرية فكر — قد قال « إن نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة للنبى صلى الله عليه»(٣) وإن تحدىَ النبى للإنس

---

(١) ارجع فى هذا إلى اجناتس جولدتسيهر ، «الدراسات الإسلامية» المجلد الثانى ص٤٠١ وما يليها ؛ نفس المؤلف : «اتجاهات المفسرين المسلمين» ص١٢٠ وما يليها ؛ ت . أندريه ، نفس الكتاب ص ٩٤ وما يليها ؛ عبد العليم ، إعجاز القرآن فى مجلة «الحضارة الإسلامية» *Islamic Culture* (حيدر آباد — الدكن) سنة ١٩٣٣ ، ١ و ٢ ، وبطريقة مشابهة لطريقة ابن الراوندى يهاجم قرقسانى نظرية إعجاز القرآن : انظر ا . فريد لیندر معارضة قرقسانى للاسـلام ، فى «مجموع أبحاث مقدمة إلى اجناتس جولدتسيهر» (اشتراسبورج سنة ١٩١١) ص١٠٥ وما يليها . فيما يتعلق بعبد المسيح الكندى ، انظر بعدُ الفصل السادس .

(٢) طبعة نيبرج ص ٢٧ .

(٣) مصدر هذا كتاب «فضيحة المعتزلة» لابن الراوندى ، ولكن لا داعى =

والجن (سورة ١٧ ، آية ٩٠) لا يتعلق بالناحية التأليفية والنظم ، والدليل على أن القرآن منزّل من عند الله إنما هو (كما يذكر الخياط بحق فى رده على ابن الراوندى) فى محتواه : ففى القرآن أخبار عن الغيوب التى وقعت حقا فيما بعد[1] . ويذكر الخياط[2] من بين الشواهد التى أوردها النظام لإثبات ما يقول ، الآيتين اللتين جعلهما ابن الراوندى فى كتاب « الزمرذ » موضوعاً لسخريته ونقده . هاتان الآيتان هما آية المباهلة (سورة رقم ٣ ، آية ٥٤) ثم آية : فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُم صادقين (سورة رقم ٢، آية ٨٨ ؛ ورقم ٦٢ ، آية ٦) . وهكذا الحالُ فى الآيات الأخرى التى هاجمها ابنُ الراوندى فى القطعة رقم ١٠[3] . ويرفض ابن الراوندى نظرية إعجاز القرآن من ناحيتى النظم والمعنى .

ويتصل بطعنه فى أن القرآن منزل من عند الله مايقوله فى القطعتين رقمى ١٥ ، ١٦ متعلقا بزعمهم أن اللغات ترجع إلى الأنبياء الذين تلقَّوْها عن الله بوحى منه . وموقف ابن الراوندى من هذه المسألة يتجلى بوضوح فى القطعة رقم ١٥ . فهو يرى أن اللغة من طبيعة الإنسان ولها نظيرها فى أصوات الحيوان . والطفل يتعلم اللغة من أهل البيئة المحيطة به ؛ وتلك عملية لا مبدأ لها . أما الرأى القائل بأن اللغات تقوم على الوحى فيعارضه ابن

= للشك فى صحة هذا القول لأن الخياط يشير بدوره إليه وفى رده عليه لايذكر إلا بأى معنى فهم النظام مسألة إعجاز القرآن فى الواقع فحسب — وهذا المذهب متفق مع كل ما نعرفه عن النظام ويتمشى مع رفضه لأخبار المعجزات (انظر قبل) . وقارن كذلك الأشعرى ، « مقالات الإسلاميين » (طبعة رتر) ص ٢٢٥ س ١١ .

(١) كتاب « الانتصار » ص ٢٧ س ١٦ : « فأحدها ما فيه من الإخبار عن الغيوب » .

(٢) نفس الكتاب ص ٢٨ فى أعلاها .

(٣) انظر التعليق رقم ٣ ص ١١٤ .

الراوندى فى القطعة رقم ١٦ . ولا مندوحة لنا لفهم هذه المسألة عن وضعها فى موضعها من العقائد الإسلامية .

وليس لدينا ويا للأسف آراءُ المتقدمين فى مسألة تفسير نشأة اللغات . وأقدم خبر وصل إلى علمى فيما يتعلق بهـذه المسألة هو هذه الفقرة التى هى أمامنا الآن لابن الراوندى . ولابد أن تكون هذه المسألة قد بحثها المتكلمون والنُّحاة منذ عهد بعيد ، وتفسير الآية : وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها (سورة ٢ ، آية ٢٩) ، بمعنى أن الله أعطى لآدم اللغةَ ، أقول هذا التفسير قديم . والمتقدمون من النُّحاة كانوا على اتصال ، ولو عن طريق غير مباشر ، بالمسألة التى شغلت اليونان : هل اللغات بالطبع φύσει أو الوضع والاصطلاح Θέσει . والسيوطى يعرض المسألة عرضاً مُفَصَّلا فى الفصل الأول من كتاب «المُزْهِر» (طبعة القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ) معتمداً فى الغالب على المصادر القديمة ولو أن أقدمها هما أبو هاشم الجبائى وأبو الحسن الأشعرى . وهنا نصادف نفس المصطلحات التى نجدها فى قطع ابن الراوندى[1] . وعنوان هذا الفصل لدى السيوطى هو (ص ٥) : «فى بيان واضع اللغة وهل هى توقيف ووحى أو اصطلاح وتواطؤ» .

ومما هو جدير بالذكر أنه إلى جانب الأشعرى قال النحويان المشهوران ابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) ، وابن جِنّى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) ، بما قال به أهل السنة والجماعة من أن اللغات توقيف من الله . قال ابن فارس فى «المزهر» للسيوطى ص ٦ : « ولعل ظانّـا يظنّ أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف ، إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد ؛ وليس الأمر كذلك ؛

(١) فيما يتعلق بوضع هـذه المسألة فى موضعها من الناحية الكلامية انظر كتاب «عذاب الحلاج» للأستاذ ماسينيون ص٦٩٨ وما يليها ، وبخاصة ص ٧٠١ .

بل وقّف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلّمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علّم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبياً نبياً ما شاء الله أن يعلّمه ، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله . . . . . فلا نعلم لغة من بعده حدثت »[١].

وعلى العكس من ذلك « ذهبت المعتزلة إلى أن اللغات بأسرها ثبتت اصطلاحاً »[٢]. ورأيها ذو صلة بعيدة بنظرية الوضع (Θέσει) السوفسطائية ، ولو أنها لم تنظر إلى هـذه المسألة من الناحية الفلسفية البحتة التى تتعدى دائرة القرآن وفى وقوف ابن الراوندى موقف المعارضة إزاء رأى أهل السنة ، إنما يقترب من المعتزلة . وهنا لا ينكر أنه كان فى البدء معتزلياً ، ولـكنه فى جوابه عن هـذه المسألة قد ترك أساس الإسلام وربط مسألة اللغة بمسألة قدم العالم[٣] .

وقولهم « توقيف » الذى أوردناه بمعنى « تعليم (إلـهى) » تقريباً[٤] ،

---

(١) هذه الفقرة بأكملها مأخوذة من كتاب « فقه اللغة » لابن فارس (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٨) ص ٥ وما يليها ؛ وفى نفس الـكتاب ص ٧ يقول ابن فارس إن الـكتابة توقيف كذلك .

(٢) «المزهر» للسيوطى ص ١١ س ١٤ — وانظر أيضا ص ٩ س ١٥ .

(٣) انظر ص ١٠٧ تعليق ٣ .

(٤) انظر ماسينيون ، نفس الـكتاب ص ٧١١ « أكان هـذا المنح (منح استعمال الأسماء ، ذلك الاستعمال الذى منحه الله للانسان) قد عُمل مرة واحدة دون ماتغير ؟ هـذا ما يقول به أصحاب « التوقيف » المعدود أنه ثروة تنتقل من جيل إلى جيل دون أن تتغير » . ومن أجل هذا فإن ماسينيون يشتق « توقيف » خطأ من « وَقَف » . — قارن كذلك جوجوييه Goguyer ، الفية ابن مالك (بيروت سنة ١٨٨٨) ص٣٣٣ ؛ سعيد الـكرمى ، فى «مجلة المجمع العلمى العربى» ، المجلد الأول (دمشق سنة ١٩٢١) ص ١٢٩ .

مأخوذ من قولهم وَقَّف فلاناً على كذا أى أطلعه عليه . قال ابن فارس : « وقَّف الله عز وجل آدمَ عليه السلام على ما شاء أن يُعَلّمه إياه »[١]، ومن المرجح أن هذا الاصطلاح قديم ، إذ نصادفه لدى محمد بن زكريا الرازى الذى أنكر ، بطريقة مشابهة لطريقة ابن الراوندى ، النظرية القائلة بأن اللغات توقيف من عند الله .

وبجانب القائلين بالتوقيف يوجد فى القطعة رقم ١٦ من يفسرون اللغة بأنها إلهام . والإلهام مترادف عادةً مع الوحى ؛ وابن جنى فى بحوثه اللغوية الفلسفية يستعمل لفظ الإلهام بمعنى التوقيف والوحى تماماً دون ما أدنى فرق[٢] . ولعله كان هناك فرق ضئيل بينهما من زمن بعيد[٣] ؛ لكن يظهر أن استعمال لفظ إلهام بمعناه العام من أن الناس جميعاً لا يدركون العلوم إلا بإلهام ، إنما احتفظ به لأول مرة فى اصطلاح الشيعة والفلاسفة فحسب . وفى كتاب «الانتصار» أن من الشيعة من يقول بالإلهام « يزعم أن الناس جميعاً لا يدركون العلوم إلا بالإلهام »[٤] . وابن الراوندى إنما يتخذ هذا الاستعمال .

وفى كتاب « أعلام النبوة » الذى ذكرناه كثيراً يورد أبو حاتم الرازى الإسماعيلى عرضاً مفصّلا للفرق بين «الإلهام» بالمعنى العام وبين «الوحى» ؛

---

(١) انظر الصفحة السابقة تعليق ١ .

(٢) انظر السيوطى ، الكتاب المذكور ص ٦ س ٢١ وما يليه ، وقارن ص ٩ س ٥ .

(٣) انظر ماسينيون ، نفس الكتاب ص ٧٥٣ .

(٤) كتاب « الانتصار » ص ١٥٣ . — فى مقابل الأئمة والأنبياء الذين يتلقون الوحى مباشرة .

ويعترض على ما يقوله محمد بن زكريا الرازى[١] الذى استخدم هـــذا الاصطلاح عينه . وختاماً أعرض قطعـة الرازى القيمة التى تتفق مع أقوال الرازى حتى فى تفاصيلها[٢] : « أخبرونا بأى لغة وقف أول إمام من أئمتكم على اللغات ؟ وهل فى ذلك بد من الرجوع إلى الإلهام ؟ على أن إماماً لو عرف لغة ثم أراد أن يعرّفها الناس لما قدر على ذلك إذا لم تكن عندهم سابقةً ، فليس بدٌ من الرجوع إلى الإلهام بتةً بتة — هذا قول الملحد » .

٦ — كتاب « الزمرذ » ودفاع الكندى

والأفكار التى عرضها ابنُ الراوندى فى كتاب « الزمرذ » مطبوعةٌ بشخصيته كلَّ الانطباع ، كما يستبين من تحليلنا السابق لهذا الكتاب . وتكاد تدل كل قطعة من القطع المحفوظة لدينا على أن ابن الراوندى كان فى البدء معتزليا ، وهذا العنصر يطبع أقواله بطابع خاص[٣] . وعلينا من جهة أخرى أن نزعم وجود نظائر لطعنه فى الأديان المنزّلة لدى غيره من الملاحدة وخصوصا هؤلاء الذين يسميهم صاحب «الفهرست»[٤] باسم : « المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة » . ولم يبق لدينا ويا للأسف من

---

(١) انظر الفصل التاسع .

(٢) كتاب « أعلام النبوة » ، (مخطوطة حسين الهمدانى) ص ٢٤٥ .

(٣) يقول الخياط فى كتاب «الانتصار» ص ١٥ : « فويل صاحب الكتاب ! كيف يعيب المعتزلة وهو يلجأ فى كتبه كلها إلى كلامها ومسائلها وجواباتها ، عجزاً منه عن أن يأتى بكلام غير كلامها أو سؤال غير سؤالها ! » .

(٤) «الفهرست» ص ٣٣٨ س ٦ .

كتبهم ما يستحق الذكر . ولذا يستحيل علينا أن نمتحن جدة ابن الراوندى فى تفصيل . ولقد اكتشفتُ مؤلفاً إلحاديا للطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازى ، محفوظاً فى ردّ اسماعيلى عليه[١] . وأنا قد أشرت من قبل كثيرا إلى هذا الكتاب الذى يوقفنا على علاقة وثيقة بينه وبين أقوال ابن الراوندى . ومع هذا كله فمحتوى الكتابين مختلف من أساسه ، وبمقارنتهما يستبين أن ابن الراوندى يمتاز بالسير على سُنَّة الكلام وبلغته يتكلم ، بينما يتناول الرازى مساوئ الأديان بالطعن والنقد الشديد من وجهة نظر الفلسفة .

أما النظائر الحقيقية لكتاب « الزمرذ » فنجدها فى مؤلف هو آخر ما يمكن تصورها فيه ، وذلك هو الدفاع النصرانى المشهور الذى كتبه عبد المسيح الكندى . ومن الجائز ألا يكون هذا الكتابُ هو الوحيدَ ، وأن توجد كتب أخرى فى هذا الباب تصلح المقارنة . ومع هذا كله فلم ينشر حتى اليوم إلا قليلٌ من كتب التناظر بين النصارى واليهود والمسلمين[٢] ،

---

(١) فى كتاب «أعلام النبوة» لأبى حاتم الرازى الاسماعيلى (انظر و . إفانوف ، «دليل أدب الاسماعيلية» ص ٣٢ وقارن بذلك ، مجلة الدراسات الاسلامية سنة ١٩٣٣ ص ٤٨٥) . والمقصود هنا هو كتاب مخاريق الأنبياء لمحمد ابن زكريا الرازى . وآمل أن أقدر على تقديم بحث فى هذا الكتاب .

(٢) انظر م . اشتينشنيدر ، كتب التناظر والدفاع ، فى مجلة : « بحوث لمعرفة الشرق » المجلد السادس رقم ٣ . أما كتاب ى . فرتش ، الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى E. Fritsch : *Islam und Christentum in Mittelalter* (برسلاو ، سنة ١٩٣٠) الذى أشار إلى به الأستاذ شيدر ، فيبحث أولا وبالذات فى مناظرة المسلمين للمسيحية ، وهو لهذا لا يتعلق بموضوعنا . (قارن ر . اشترتمان ، R. Strothmann « مجلة المستشرقين لنقد الكتب O L Z » ، رقم ٨٧٢) . انظر كذلك ج . جراف Graf ، مناظرات النصارى للاسلام ، فى «الكراسات الصفراء» *Gelbe Hefte* سنة ١٩٢٦ ص ٨٢٥ وما يليها ، والكتب المذكورة هناك .

ولذا لم يكن بُدٌّ من الاقتصار على هذا المؤلَّف وحده فى بحثنا هذا .

أما كتاب الكندى فقد طُبع للمرة الأولى منذ عشرات السنين وقام بالبحث فيه موير[1] . مؤلفه نسطورى يَدَّعى أنه عاش فى بلاط المأمون الذى لا بد أن تكون عواطفه نحو المخالفين فى الرأى والعقيدة قد احتملت نقد المؤلف العنيف للاسلام . وأقدم شاهد على وجود هذا المؤلَّف ، البيرونى ، الذى يذكره فى تاريخه تحت عنوان : «جواب النصرانى عبد المسيح بن اسحق الكندى على كتاب عبد الله بن اسماعيل الهاشمى[2]» . ولهذا فإن تحديد عصره التقريبى ممكن . غير أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نشك فى أنه أُلِّف فى أول القرن الثالث . وسأبحث بعدُ فى المسائل الأدبية المتعلقة بدفاع الكندى ، وأناقش أولا سلسلة من الفقرات المتصلة بكتاب «الزمرذ» عن قرب . أما فيما يتعلق بصلة هذه الفقرات بعضها ببعض فأكتفى بأن أحيل إلى تصنيف محتويات الكتاب لدى موير .

يتحدث الكندى فى عرضه لأعلام النبوة عن معجزات محمد (ص ٦٤ وما يليها) . ولكن هذا الموضع عينه من كتاب « الزمرذ » لم يحفظ لنا إلا باختصار (قطعة رقم ٨ ، ١١) ، ولهذا فنحن لانستطيع مقارنتهما مقارنة دقيقة . ومما يسترعى الانتباه أن أخبار المعجزات التى يرفضها الكندى إما لاضطراب فى روايتها أو لاستحالة وقوعها فى ذاتها ، هى عينها التى يذكرها ابن الراوندى فى كتاب « الزمرذ » . فأخبار الذئب الذى كلم أهبان بن أوس الأسْلَمى (ص ٦٤) ، وشاة أم معبد ، والشاة المسمومة والميضأة

---

(١) و . موير ، « دفاع الكندى » W. Muir: *The Apology of al-Kindi* لندن سنة ١٨٨٢ . انظر فيما يتعلق بكتب أخرى مادة : كندى ، للأستاذ ماسينيون فى « دائرة المعارف الإسلامية » المجلد الثانى ص ١٠٩٧ — وأنا أستخدم النص تبعا لطبعة القاهرة سنة ١٨٩٥ .

(٢) « التاريخ » *Chronologie* ، طبعة سخاو (لندن سنة ١٨٧٨) ص ٢٠٥ .

هذه الأخبار كلها يوردها المؤلف فى تفصيل متناولا إياها بالتهكم المر[١].

وصلة أخرى تتعلق بمسألة إعجاز القرآن (ص ٨٩) . وعبارتها فى هذا متشابهة تماما ، مع هذا الفرق وهو أن ابن الراوندى يمتحن مسألة تفضيل اللغة العربية على غيرها من اللغات بينما يُزْهى الكندى بأنه عربى صريح ويفسر تأثير القرآن بأن « الأنبـاط والأسقاط والعجم والمغفلين والأغبياء الذين لا معرفة لهم باللسان العربى » هم الذين ينخدعون بدعوى إعجاز القرآن من ناحية نظمه[٢] .

ومما يسترعى النظر حقا نقدُ الكندى لشعائر الإسلام الواحدة تلو الأخرى . إذ ينظر إليها تارةً من وجهة نظر النصارى ، ويؤكد أن المسيح ألغى شريعة موسى (ص ٩٨ وما يليها) : فالختان والوضوء الخ ليست فرائض واجباً على المرء اتباعها ، وإنما أقصى ما تبلغ إليه أنها عادات جارية[٣]. وطوراً يناقض لوازم عقيدة العقل الإسلامية : والكندى يقف طويلا عند هذه المسألة ؛ ولو أن العقل ليس هو نقطة الابتداء فى منهجه فى التفكير ، كما هى الحال لدى ابن الراوندى ، فإن له مكانة عظمى عنده .

وهأنذا أورد النقطة المتعلقة بالحج والبقـاع المقدسة (ص ١٠٣ وما يليها) ، وهى تذكرنا بما يقوله ابن الراوندى .

« وأما دعوتك لى إلى حج بيت الله الذى بمكة ورمى الجمار والتلبية

---

(١) انظر الترجمة لدى موير ص ١٤ وما يليها .

(٢) « وإنما هذه الحجة المبهرجة هى دعوى مدلسة تجوز على الأنباط والأسقاط والعجم والمغفلين والأغبياء الذين لا معرفة لهم باللسان العربى ، وإنما هم فيه دخلاء » .

(٣) ص ١٠٠ : « فليس يفعل ذلك لأنه سنة واجبة وفريضة لازمة عليه لايحل له إلا القيام بها ، بل يفعله على سبيل العادة الجارية عند أهل الزمان والتشبه بأهل دهره الذى هو مقيم بين أظهرهم » .

وتقبيل الركن والمقام ، فسبحان الله ما أعظم هذا الكلام ! لقد جئت بأمر فَرِيّ كأنك تكلم صبياً أو تخاطب غبيا أو تجادل عييًّا ! فليت شعرى أليس هو الموضع الذى عرفناه جميعا حق معرفته ، ووقفنا على أصول أسبابه ، وكيف كانت القصة فى ثباته وكيف جرى أمره إلى هذه الغاية ؟ أولا تعلم أن هذا فعل الشمسية والبراهمة الذى يسمونه النُّسكَ لأصنامهم بالهند ؟ فإنهم يفعلون فى بلدهم هذا الفعل بعينه الذى يفعله المسلمون اليوم من الحلق والتعرى ، الذى يسمونه الإحرام والطواف ببيوت أصنامهم إلى هذا الوقت على هذه الحالة . فلم تزد عليه أنت شيئا ، ولا نقصت منه ذرة . فإنك أخذته بذلك الفعل ، الذى سميته النسك ، متمسكا بتلك العادة محتذيا تلك السبل . إلا أنك تفعله فى السنة مرة واحدة فى وقت مختلف . وأولئك يفعلونه فى السنة مرتين فى دفعتين معروفتين عند دخول الشمس أولَ دقيقة من الحَمَل وهو الربيع ، وفى دخولها أولَ دقيقة من الميزان وهو الخريف . ففى الأول لدخول الصيف وفى الثانى لدخول الشتاء . فهم يُضَحُّون كما تضحى أنت ؛ وينسُكون كنسكك لأصنامهم وإنذارهم . فهذا سبب حجك ونسكك ومقامك تلك المقامات وفعالك تلك الأعجوبات . وأنت وأصحابك عالمون أن العرب كانت تنسُك هذه المناسك وتفعل هذه الأفعال فى قديم الزمان منذ بَنَت هذا البيت . فلما جاء صاحبك بالإسلام لم نره زاد فى هذه الأفعال ، ولا نَقَص منها شيئاً . غير أنه لبعد الشقة وطول المسافة

---

(١) انظر كذلك ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٢٨ فى منتصفها ، ص ١٣٠ فى أعلاها . وفكرة « العقل » هنا مأخوذة بمعنى معتزلى (انظر بعد فى مستهل الفصل التاسع من هذا البحث) كما يستخدم كتاب الكندى غالبا اصطلاحات المعتزلة التامة التكوين فى القرن الثالث .

وتخفيف المؤونة ، جعله حَجة واحدة في السنة . وأسقط من التلبية ، ما كان فيه شناعة ، والقصة هي تلك القصة بعينها التي تفعلها السَّمَنية[1] والبراهمية ببلاد الهند إلى هذه الغاية ، وتنسك فيها لأصنامها . وإني لأستصوب قولاً لعمر بن الخطاب ، وقد وقف على الركن والمقام ، فقال : « والله لأعلم أنكما حجران لا تنفعان ولا تضران ؛ ولكني رأيت رسول الله يقبّلكما ، فأنا أقبلكما كذلك » . فإن كان الرواة الصادقون الذين رووا هذه الرواية عنه كذَبوا عليه فقد صدقوا في ما حكوه عن هذين الحجرين ، وإن كانوا صدقوا عنه أنه قال ذلك فلقد قال قولا حقاً . فكيفما أردت القول أيها الحبيب لم يخرج عن قانون الحق . فأما ما يريد العائب أن يعيب به من يحلق شعر رأسه ويتعرى ويعدو ويرمي بالجَمَرات ، فهذا فعل من قد عزب عقله وأنكر فهمه ، ومن يتخبطه الشيطان فقد نجد مساغاً للعيب وموضعاً للثلب . ولقد احتججنا لكم عند من ثلبكم بهذا وقلنا إنما يفعلونه من جهة التعبد وليس في التعبد عيب ، فأجابنا أن الله عز وجل حكيم ولم يتعبد خلقه بالسنن الفاحشة الشنيعة التي تنفِر الطباع منها ويستسمجها العقل ، بل بالسنن التي يستحسنها العقل ويفضلها ... فهل ترى أصلحك الله ورضي عنك أن تدعوني إلى مثل هذا الذي تستشنعه البهائم وتستقبح فعْله ؟ فإني أظن بغير شك أنها لو سئلت فأُذِن لها في النطق لأخبرتنا بقبح هذه الأفعال واستشناعها إياها وأعلمتنا

---

(١) في الأصل : الشمسية ، ويمكن تفسيرها بمعنى عُبَّاد الشمس ، ولكن الأرجح والأوضح أن نقرأ بدل « الشمسية » « السمنية » أو « الشمنية » Σαμαναῖοι . ويذكر المؤلف اسم « سمانية » بجانب « براهمة » عند سرده للفرق المختلفة ص ١٢٩ ؛ ولعله يجب علينا أن نقرأ هناك أيضا « السمانية » . — وهذه المواضع تتصل بأقواله الكثيرة في تاريخ الأديان ؛ تلك الأقوال التي تعتمد على كتابات معتزلة القرن الثالث في تاريخ الأديان .

لو أجبنا إلى دعوتك أنا قد ظلمنا تمييزنا وطباعنا ... وأما قولك أنك تنظر إلى حَرَم رسول الله وتشاهد تلك المواضع المباركة العجيبة ، فقد صدقت أكرمك الله فى قولك إنها مواضع عجيبة ! وأى عجب أعجب من تلك المواضع عند ذوى العقول والتمييز التى يرتكب فيها ما يرتكب من ظلم العقل والتمييز الذى فضل الله به الإنسان على سائر البهائم وأنعم به عليه ! »(١) .

وهذه القطعة تذكرنا كثيراً بما يقوله ابن الراوندى فى القطعة رقم ٥ من كتاب « الزمرذ » ، حتى يكاد المرء يشعر بأنه يميل إلى الزعم بأن إحداهما تعتمد على الأخرى من الوجهة الأدبية . والاختلاف الرئيسى هو فى أن البراهمة يبدون لدى ابن الراوندى كممثلين لمذهب العقل ، بينما يتحدث الكندى عنهم وعن السمنية بوصفهما فرقتين صَنَفَّدتهما الشعائر الدينية وأوامرها .

والنظائر تذهب إلى أبعد من ذلك . ففى القطعة رقم ١٣ يسخر ابن الراوندى قائلا لِم لَمْ يأت الملائكة لمعونة المسلمين فى يوم أُحُد ، ويعرض الكندى (ص ٤٤ وما بعدها) فى تهكم شديد غزوات النبى التى ليست إلا غارات للسلب والنهب ، كما هى عادة العرب . أما انتصار بدر الذى يشير إليه ابن الراوندى أيضاً فيتناساه الكندى عمداً ، لكنه يكتب عن هزيمة أُحُد فى تفصيل (ص ٥٠ = ص ٥٥ من طبعة القاهرة سنة ١٩١٢) :

« فأما غزوة أُحُد وما أصيب فيها من كسر رباعيته السفلى اليمنى وشق شفته وثلم وجنته وجبهته ، الذى ناله من عتبة بن أبى وقاص وما علاه به ابن قميئة الليثى بضربة قطعت إصبعه ، فهذا خلاف الفعل الذى فعله الرب مخلص العالم ، وقد سلّ رجلٌ بحضرته على رجلٍ سيفاً فضربه على أذنه

---

(١) [من ص ١١٣ — ١١٦ ، طبعة القاهرة سنة ١٩١٢ — مع بعض تصحيحات للنص من عندنا] .

فاقتلعها . فلما نظر المسيح مخلصنا إلى ذلك من فضله عمد إلى الأذن فردها إلى موضعها فعادت صحيحة كالأخرى (لوقا ٢٢ : ٥) ؛ وإلا حيث أصاب يد طلحة ما أصابها وقد وقاه بنفسه فلو دعا ربه فرد يده إلى ما كانت عليه من صحتها لكانت هذه من إحدى علامات النبوة . وأين كانت الملائكة[١] عن معونته ووقايته من كسر ثنيته وشق شفته ودمى وجهه ...؟ » .

وأخيراً فلنقارن كذلك قطعةً من كتاب آخر إلحادى لابن الراوندى هو كتاب « الدامغ » ، بفقرة مماثلة لها فى « رسالة » عبد المسيح الكندى . فإن من القطع التى حفظها لنا ابن الجوزى (فى كتابه « المنتظم فى التاريخ ») من كتاب «الدامغ» القطعة الآتية : « ولما وَصَفَ (محمد فى القرآن) الجنة قال : فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه (سورة ٤٧ : ١٥) وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهيه إلا الجائع ؛ وذكر العسل ، ولا يطلب صِرْفاً ؛ والزنجبيل ، وليس من لذيذ الأشربة ؛ والسندس ، يفرش ولا يلبس ؛ وكذلك الاستبرق ، الغليظ (سورة ٤٤ : ٥٣) من الديباج . قال ومن تخايل أنه فى الجنة يلبس هذا الغلظ ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الأكراد والنبط » .

وإنا لنجد مثل هذه الأفكار لدى الكندى (ص ٩١) : « فلا تظلم ، أصلحك الله ، عقلك وتبخس تمييزك حقه بغلبة سلطان الهوى الجائر والعصبية . فإنه إنما يجوز مثل هذا على الأغمار والجهال والآفنين وأهل النقص فى الرأى الذين لا عقل لهم ولا معرفة عندهم ، ولم يتخرجوا بمطالعة الكتب ومعرفة أصول الأخبار المتقدمة ، فهم همج كأجلاف الأعراب المعتادين لأكل الضب والحرباء ؛ قد ربوا على الفقر والمسكنة وشقاء العيش

---

(١) يشبه مايقوله فى ص ٤٦ (ص ٥١ من طبعة سنة ١٩١٢) : « فما رأيت امرأ من الملائكة أعانهم » .

فى البوادى والبرارى تسفعهم سمائم الصيف وزمهرير الشتاء وهم فى غاية الجوع والعطش والعرى . فحيث لوح لهم بذكر أنهار خمر ولبن وأنواع الفاكهة واللحم الكثير والأطعمة والجلوس على الأسرة والاتكاء على فُرُش السندس والحرير والاستبرق ونكاح النساء اللواتى هن كاللؤلؤ المكنون واستخدام الوصائف والوصفاء والماء المعين المسكوب والظل الممدود التى هى صفات منازل الأكاسرة ، وقد وقع هذا فى خَلَدِهم — وكان بعضهم قد رأى ذلك فى اجتيازهم ومسيرهم إلى أرض فارس — فاستطاروا فرحاً وظنوا أنهم قد نالوه فعلا عند سماعهم إياه قولا وظفروا به فحملوا نفوسهم على محاربة أهل فارس لأخذ ذلك منهم وظفرهم به .. فحاربوا أمة نجسة قذرة كانت قد طغت على الله وتجبرت فسلط جل وعز عليهم من لم يفكروا فيه قط فقتلوهم ... وكذلك حكم الله وفعله بالقوم الظالمين ينتقم ببعضهم من بعض ، ومثل الأنباط والأسقاط الذين لا خلاق لهم إنما غذوا بالشقاء وربوا مع البقر فى السواد ... »

ولا أجسر على الفصل فى مسألة عما إذا كانت صلة رسالة الكندى الوثيقة بكتاب « الزمرذ » تقوم على رابطة أدبية : فهذه المسألة لا يمكن الإجابة عنها طالما لم تبحث رسالة الكندى من ناحية صحة نسبتها إليه بحثاً دقيقاً . أما موير ، أول من اشتغل بها ، فقد أيَّد صحتها على أساس الأدلة التاريخية ، وتبعه فى ذلك كازانوڤا[١] وسيمون[٢] ومنجانا[٣] وغيرهم . وعلى العكس

---

(١) پول كازانوڤا : « محمد ونهاية العالم » ، باريس سنة ١٩١٣ ص ١١٠ وما يليها

(٢) ج . سيمون : « الاسلام والتبشير المسيحى » ، جوترسلو سنة ١٩٢٠ ص ١٠

(٣) ا . منجانا . دراسات ودبروك *Woodbruke Studies* ، فى تقرير مكتبة ريلند *Bulletin of the John Ryland Library* ، منشستر ، المجلد الثانى عشر سنة ١٩٢٨ ص ١٤٨ وما يليها .

من ذلك قال ماسينيون فى مادة « كندى » بدائرة المعارف الإسلامية (المجلد الثانى ص ١٠٩٧) بعدم صحتها مستدلا على ذلك ببراهين ليست حاسمة تماماً . وكذلك يتساءل جراف[١] عما إذا لم يكن هذا الكتاب منحولا[٢] . وليس لى أن أقطع برأى فى هذا الموضوع إذ لا يستطيع ذلك إلا من له إحاطة تامة بالمسائل المسيحية العربية ومعرفة دقيقة بالمسائل الدينية من الناحية التاريخية . ومع هذا كله فإنى أعتقد أن البحث الدقيق سيقدم لنا البرهان على أن رسالة الكندى هذه لم تؤلَّف ، كما تذكر الرسالة نفسها ، فى أيام المأمون وإنما أُلِّفت بعد ذلك بكثير فيما يقرب من مُبتَدأ القرن الرابع . فإذا ما ثبت هذا البرهان وقام على أساس قويم فلن يقف شىء فى طريق زعمنا أن مؤلف هذا الدفاع قد اعتمد على كتاب « الزمرذ » أو الكتب الإلحادية المشابهة له . أما إذا اعتبرنا النظائر الموجودة بين كتاب الزمرذ والرسالة وحدها ، فذلك لا يكفى تماماً لتحمل عبء مثل هذا البرهان . ويجب علينا أن نذكر أنه ليس لدينا إلا شذرات قليله من كتاب «الزمرذ» ولو كان قد حفظ بأكمله ، إذاً لكثرت النظائر من غير شك .

أما إذا كان المؤلف قد أخذ حقاً عن كبار الملاحدة المسلمين فى القرن الثالث فمن السهل تفسيرُ حدة براهينه وعنفها ، تلك البراهين التى لا نكاد نجد لها

(١) ج . جراف : التناظر المسيحى ضد الاسلام ، فى مجلة « الكراسات الصفراء » *Gelbe Hefte* سنة ١٩٢٦ ص ٨٢٨ .

(٢) قارن أيضا د . هـ بانت D· H. Baneth فى مجلة « تربيس » (أورشليم) المجلد الثالث العدد ١ ص ١١٥ الذى حاول أن يثبت عدم صحة الكتاب ببراهين جديدة . فهو يلاحظ أن الهاشمى فى دفاعه عن الإسلام يظهر المسيحية فى معرض حسن بينما يقلب المؤلف لرسالة الكندى قواعد الإسلام الثابتة . ولا نستطيع أن نفسر ذلك إلا على أساس أن مؤلف الرسالة الكندية قد شوه هذا الدفاع عن الاسلام . — ومن جهة أخرى أعتقد أن القراءة النزيهة لمقدمة الكتاب تكفى للدلالة على عدم صحة « رسالة » الكندى .

نظيراً فى كتب التناظر المسيحية . ونحن حينئذ بإزاء واقعة متشابهة ، فى الإسلام الحديث ، حيث يُهيب المدافعون عن الإسلام فى استدلالاتهم على انحطاط المسيحية بنقد الحضارة الأوربية .

٧ — البراهمة فى كتاب « الزمرذ »

كان لكتاب «الزمرذ» أثره الواضح فى الإسلام . فبينما نُسِىَ اتجاهه الخاصُّ نسيانا تاما بقيت ذكرى إحدى مسائله محفوظة . ولم يكن لهذه المسألة من قبل إلا دور ثانوى .

ذكرى ابن الراوندى مذهبه وآراءه على لسان البراهمة[1] . واستحضارٌ بسيط لما نعرفه عن البراهمة وبخاصة ما يذكره المؤلفون المسلمون عنهم ، يبين لنا إلى أى حد بعدت الصلة بين مذهب كتاب « الزمرذ » ومذهب البراهمة . ومن المحتمل كل الاحتمال أن ابن الراوندى لم يتصل اتصالا مباشرا بالمذاهب الهندية . ويقول البيرونى — هذا العالم المسلم الوحيد الذى كان له إلمام تام بأحوال الهند وضعه فى كتاب «الهند»[2] — يقول هذا العالم فى مقدمة كتابه[3] إن المؤلفين الإسلاميين الذين كتبوا عن أديان الشعوب الأعجمية لم تكن لديهم معلومات صحيحة ، وقد نقل كل منهما عن الآخر دون تحقيق ، اللهم إلا إيرانشهرى[4] الذى تحدث عن أديان الأمم المختلفة بطريقة خاصة واعتماداً على بحثه الخاص . إلا أن أخباره مع ذلك عن الهند لا تتفق وما يتطلبه البحث

(١) انظر القطعة رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ١٩

(٢) كتاب «الهند» (تحقيق ماللهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة) ، طبعة سخاو سنة ١٨٨٧ ، والترجمة سنة ١٨٨٨ .

(٣) ص ٦ من الترجمة

(٤) سأفصل القول عن هذا المؤلف فى مناسبة أخرى .

العلمى . إذ قد اعتمد فى ذلك غالبا على أقوال أحــد المتقدمين عليه ألا وهو زُرْقان[١] . ولم يبق لدينا ويا للأسف شىء من مؤلفات إيرانشهرى ولا زرقان . غير أنه من الممكن أن يكون المعينُ الذى استقى منه المؤلفون الذين عاشوا قبل البيرونى هو فى النهاية هذين الرجلين .

ويفرد المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» فصلا خاصا عن مذاهب أهل الهند[٢] ويذكر بخاصة اسمى كاتبين يظهر أنهما مصدر هذا الفصل وهما أبو القاسم (عبد الله بن أحمد) البلخى (الـكعبى)[٣] «كتاب عيون المسائل والجوابات»، و (أبو محمد) الحسن بن موسى النوبختى[٤] فى كتابه «الآراء والديانات» . وكلاهما من رجال النصف الثانى للقرن الثالث أو أوائل القرن الرابع . وقد عرفنا قطعاً من كتاب النوبختى المذكور ، منذ زمن قليل عن طريق كتاب ابن الجوزى : «تلبيس إبليس»[٥] ؛ وقد طبعها ه . رِتّـر فى مقدمته لـكتاب «فرق الشيعة» النوبختى[٦] ومن بين هذه القطع قطعتان متعلقتان بالبحث فى مذاهب أهل الهنــد بالتفصيل : إحداهما تصف رياضات صوفية[٧] الهند

---

(١) مؤلف فى الفِـرَق مشهور ؛ اعتمد عليه الأشعرى والبغدادى . قارن لوى ماسينيون ، رسالة فى ... Essai ص ٦٤ .

(٢) المسعودى ، «مروج الذهب» طبع بربييه دى مينار (باريس سنة ١٨٦١) الجزء الأول ص ١٤٨ وما يليها

(٣) معتزلى من الطبقة الثامنة (توفى سنة ٣١٩) ؛ انظر بعد ص ١٦٢

(٤) متكلم شيعى فى أواخر القرن الثالث ؛ انظر بعدُ ص ١٦١

(٥) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى : «نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس» (الطبعة الأولى بالقاهرة ســنة ١٣٤٠) ؛ انظر ماسينيون ، مجلة العالم الإسلامى R M M ، المجلد السابع والخمسين ص ٢٥٠ وما يليها .

(٦) «فرق الشيعة» للحسن بن موسى النوبختى (المـكتبة الإسلامية *Bibliotheca Islamica* المجلد الرابع ، استامبول سنة ١٩٣١) ص كب وما يليها .

(٧) قارن أيضا : «رسائل إخوان الصفا» (طبعة بمباى) ، المجلد الرابع ص ١١٢ .

ومجاهداتهم ، والأخرى ملخص لوصف مقالات البراهمة . ويشوقنا أن نقارن كلام النوبختي بأقوال ابن الراوندي عن البراهمة . ففي « تلبيس إبليس » ص ٦٩[1] يقول المؤلف ما نصه : « قال أبو محمد النوبختي في كتاب « الآراء والديانات » : إن قوما من الهند من البراهمة أثبتوا الخالق والرسل والجنة والنار ، وزعموا أن رسولهم ملك أتاهم في صورة البشر من غير كتاب ... وأنه أمرهم بتعظيم النار ، ونهاهم عن القتل والذبائح إلا ما كان للنار ، ونهاهم عن الكذب ، وشرب الخمر ، وأباح لهم الزنا ، وأمرهم أن يعبدوا البقر » .

ولنضع هذه الفقرة — وهذه ملاحظة بين قوسين — إلى جانب ما يقوله الشهرستاني (« الملل والنحل » ، طبع كيورتن) ص ٤٥٠ — ٤٥١ عن الطوائف الهندية الآتية : الباسوية والباهودية والكابلية والبادونية . وهو حتى في التفاصيل يشابه نفس أسلوب قطعة النوبختي المذكورة آنفاً تماماً ، ولا بد أن يكون ملخصا من كتاب « الآراء والديانات » أو يرجع إلى مصدر شبيه بهذه القطعة[2] . وربما كان جزء مما سنذكره بعد عن الشهرستاني مأخوذاً من نفس هذا المصدر .

---

(١) في الطبعة الثانية (القاهرة سنة ١٩٢٨) ص ٦٥ ؛ وفي طبعة رتر ص XXIII .

(٢) يظهر أن القطعة المتعلقة بالباسوية ليست ذكرا مفصلا لتلك الفرقة التي تسمى غالبا لدى ابن الجوزي (النوبختي) باسم البراهمة . ونستطيع مقارنة القطع بوساطة هذه العبارة المكررة كثيرا : «زعموا أن رسولهم ملك على صورة بشر» . ومن الغريب أن ما أوردناه من كلام النوبختي متعلق بمذهب البراهمة ، بينما هو لدى الشهرستاني متعلق بالفرق التي يسميها باسم أصحاب الروحانيات التي يضعها في مقابل البراهمة . ولا نستطيع القطع بالسبب الذي من أجله كان هذا الاختلاف : أهو طريقة الشهرستاني في فصل الأشياء المتصلة ببعضها من أجل حبه لترتيب كتابه وتصنيفه ، أم هو أن ابن الجوزي أخطأ في الرواية ؟

ومن البَيِّن أن ما يقوله النوبختي عن البراهمة أقرب إلى الصواب مما يقوله ابن الراوندى . فالنوبختى لا يتحدث مطلقا عن العقل بوصفه أسمى مبدأ فى الشئون الدينية ولا عن إنكار الكتب المقدسة . وهو يؤكد بشدة أن البراهمة يعرفون الرسل ، والشعائر الدينية التى يقدسونها ، فى رأى المؤلف ، تتناقض مع ما زعمه ابن الراوندى من أن شعائر الأديان المنزلة مخالفة للعقل ومنافية . والبيرونى يقول نفس هذا القول ، ينصف شعائر الطهارة وأوامر الطعام لدى البراهمة فى فصول من كتابه فصل فيها القول تفصيلا ويتحدث عرضاً عن أنبيائهم[1] . وليس بين براهمة ابن الراوندى وبراهمة الهند الحقيقيين من صلة .

وعلى الرغم من هذا كله نجد لدى كثير من المؤلفين الإسلاميين أقوالا عن مذهب البراهمة تتفق تماما مع مايذكره ابن الراوندى . ولدى الباقلانى[2] وابن حزم[3] والبغدادى[4] والغزالى[5] والطوسى[6] والذهبى[7] وغيرهم

(١) الترجمة ، الجزء الأول ص ١٠٦ .

(٢) « إعجاز القرآن » (طبعة القاهرة سنة ١٣٤٩) ص١٠ : « وقد قصر قوم فى هذه المسألة حتى أدى ذلك إلى تحوّل قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها . ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستبصر فيها وجه لها الخ » .

(٣) « الفِصَل » (طبعة القاهرة سنة ١٣١٧) ج ١ ص ٦٩ : « ذهبت البراهمة ... وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبوات . وعمدة احتجاجهم فى دفعها أن قالوا : لما صح أن الله عز وجل حكيم ، وكان مَن بعث رسولا إلى من يدرى أنه لا يصدقه ، فلا شك فى أنه متعنت عابث ، فوجب نفى بعث الرسل عن الله عز وجل ، لنفى العبث والعنت عنه . وقالوا أيضا : إن كان الله تعالى إنما بعث الرسل إلى الناس ليخرجهم بهم من الضلال إلى الايمان ، فقد كان أولى به فى حكمته وأتم لمراده أن يضطر العقول إلى الإيمان به . قالوا : فبطل إرسال الرسل على هذا الوجه أيضا . ومجيء الرسل عندهم من باب الممتنع » . وقد ترجم هذه الفقرة أسين بلاثيوس فى كتابه ، « ابن حزم القرطبى » (مدريد سنة ١٩٢٨) الجزء الثانى ص ١٨٢ .

يسمّى البراهمة باسم «من ينكرون النبوة» فحسب . ونجد لدى الشهرستانى

= (٤) « الفِرَق» بين (طبعة القاهرة سنة ١٩١٠) ص ٣٣٢ : « وقالوا (أى أهل السنة والجماعة) فى الركن السابع المفروض فى النبوة والرسالة بإثبات الرسل من الله تعالى إلى خلقه خلاف قول البراهمة المنكرين لهم مع قولهم بتوحيد الصانع » . انظر كذلك نفس الكتاب ص ٣٤٨ و ص ١١٤ .

(٥) انظر أسين بالاثيوس ، الغزالى : عقيدته وأخلاقه وتصوفه (سرقسطة سنة ١٩٠١) ص ٢٧٩ تعليق ١ . انظر كذلك الغزالى ، « فيصل التفرقة » (طبعة القاهرة سنة ١٣٤٣ فى مجموعة « الجواهر الغوالى») ص ٥٥ : « والبرهمى كافر ... لأنه أنكر مع رسولنا سائر المرسلين » .

(٦) انظر ماكس هورتن : « مذاهب المتكلمين النظرية فى الإسلام » (بون سنة ١٩١٢) ص ٩٢ : « إن الأنبياء يعلمون إما ما هو موافق للعقل وحينئذ فلا لزوم لهم ، وإما ما هو مناقض للعقل وحينئذ فأقوالهم غير مقبولة . وفى كلا الحالين لا لزوم لهم » . — قارن أيضا مكس هورتن : *Die spekulative und positive Theologie des Islam* (Leipzig 1912) ص ٨٦ ، ٨٧ .

ولا يناسب هذا المقام ما ذكره الجاحظ فى كتاب الرد على النصارى (« ثلاث رسائل للجاحظ » ، طبع فنكل ، القاهرة سنه ١٩٢٦) ص ٢٤ س ٣ وما بعده ، عن أهل الهند أنهم لا يمكن الاستشهاد بهم على نبوة محمد أو المسيح ، لأنهم لم يسمعوا بهما مطلقا . وما يقوله الجاحظ فى مكان آخر فى كتابه «حجة النبوة» المطبوع بهامش طبعة «الكامل» للمبرد (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤) ج ٢ ص ٤٤ يختلف عما نحن بصدده تمام الاختلاف » : ... ونحن قد نجد اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية وعُبّاد البددة (فى الأصل المطبوع : المبدرة ؛ ويقصد البوذية) يكذبون النبى صلى الله عليه وسلم وينكرون آياته وأعلامه . » ولفظ « عباد البددة » الذى يترجمه ريزر O. Reser (مقتبسات وتراجم عن كتب الجاحظ البصرى اللغوى المتكلم [١٥٠ — ٢٥٠ هـ] مع نصوص لم تطبع بعد ، ج ١ [اشتوتجارت سنة ١٩٣١] ص ١٢٩) لعله تجب ترجمته بلفظ « عبدة الأوثان » فحسب . — وهذا التصحيح مهم لأنه لم يوجد موضع فيه ذكر البراهمة بحسبانهم منكرى النبوات أقدم من كتاب «الزمرذ» لابن الراوندى — انظر كذلك «رسائل إخوان الصفا» (طبعة بمباى) ج ٤ ص ١٩٦ ، ١٩٨ .

(٧) انظر بعدُ ص ١٤٨ تعليق ٤ . وانظر كذلك ت . دى بور : « تاريخ الفلسفة الاسلامية » (اشتوتجارت سنة ١٩٠١) ص ٩٢ ؛ يوليوس جوتمان J. Guttmann : « فلسفة اليهود » *Die Philosophie des Judentums* (برلين سنة ١٩٢٣) ص ٥٩ ، ٩١ .

ولدى ابن الجوزى ملاحظات كثيرة على البراهمة لابد لنـا من فحصها فحصاً دقيقا .

قال الشهرستانى[١] :

« إلا أن هؤلاء البراهمة انتسبوا إلى رجل منهم يقال له برهام قد مهد لهم نفى النبوات أصلا وقرر استحالة ذلك فى العقول بوجوه ، منها أن قال :

١ — إن الذى يأتى به الرسول ، لم يخل من أحد أمرين : إما أن يكون معقولا ، وإما أن لا يكون معقولا . فإن كان معقولا فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه ؛ فأى حاجة لنا إلى الرسول ؟! وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا : إذ قبول ما ليس بمعقول ، خروج عن حد الإنسانية ، ودخول فى حد البهيمية .

٢ — قد دل العقل على أن الله تعالى حكيم ، والحـكيم لا يتعبد الخلق إلا بما يدل عليه عقولهم . وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً قادراً حكيما وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر ، فننظر فى آيات خلقه بعقولنا ونشكره بآلائه علينا . وإذا عرفناه وشكرناه له ، استوجبنا ثوابه . وإذا أنـكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه . فما بالنا نتبع بشراً مثلنا ؟! فإنه إن كان يأمرنا بما ذكرناه من المعرفة والشكر ، فقد استغنينا عنه بعقولنا ؛ وإن كان يأمرنا بما يخالف ذلك ، كان قوله دليلا ظاهراً على كذبه .

٣ — قد دل العقل على أن للعالم صانعاً حكيما ، والحـكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح فى عقولهم . وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث

---

(١) كتاب « الملل والنحل » ، طبع كيورتن (لندن سنة ١٨٤٦ ؛ طبعة جديدة ، ليبتسك ١٩٢٣) ص ٤٤٥ وما يليها .

العقل : من التوجه إلى [illegible]صوص فى العبادة ، والطواف حوله ، والسعى ورمى الجمار ، والإحرام والتلبية وتقبيل الحجر الأصم ؛ وكذلك ذبح الحيوان وتحريم ما يمكن أن يكون غذاء للانسان وتحليل ما ينقص من بنيته ، وغير ذلك . كل هذه الأمور مخالفة لقضايا العقول .

٤ — إن أكبر الكبائر فى الرسالة اتباع رجل هو مثلك فى الصورة والنفس والعقل يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب ، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً ، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً ، أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً . فبأى تميز له عليك ، وأية فضيلة أوجبت استخدامك ؟ وما دليله على صدق دعواه ؟ فإن اغتررتم بمجرد قوله فلا تمييز لقول على قول ، وإن انحسرتم بحجته ومعجزته فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام ما لا يحصى كثرة ، ومن المخبرين عن مغيبات الأمور من لا يساوى خبره . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

ولا أحسبنى مخدوعا إن زعمت أن مقالات المؤلفين المذكورين آنفاً استقيت من نفس المعين الذى استق منه مقال الشهرستانى هذا . هذا إلى أن الأقوال الموجودة لدى الشهرستانى هى بعينها تلك التى يوردها ابن الراوندى. فعبارة الشهرستانى الأولى ، تلك التى يوردها الطوسى وابن الجوزى بصيغة مشابهة ، تناظر بالضبط ما هو مذكور فى القطعة رقم ٣ من كتاب «الزمرذ» . وهناك أيضاً يتحدث ابن الراوندى عن ضرورة معرفة نعم الله (الشهرستانى العبارة رقم ٢) ، بينما يوضح إنكار الأوامر الدينية الإسلامية (عبارة الشهرستانى رقم ٣) بنفس الأمثلة التى ذكرها ابن الراوندى فى القطعة رقم ٥ . أما الطعن فى المعجزات ورفع شأن العلوم (الشهرستانى : العبارة

رقم ٤ فى نهايتها) ، فكتاب ابن الراوندى مملوء بذلك (انظر بخاصة القطعة رقم ١٧) . وفى القطعة رقم ١٦ ، يشير ابن الراوندى ، على الأقل جزئياً إلى القول بأن الأنبياء ليسوا إلا بشراً وعلى ذلك لا يمتازون على بقية الناس فى شىء (الشهرستانى ، ابتداء العبارة الرابعة) [١]. وقلما يُشك فى أن أقوال الشهرستانى ترجع على الأقل عن طريق غير مباشر إلى مذهب البراهمة المفصل فى كتاب « الزمرذ » .

وفى كتاب « تلبيس إبليس » لابن الجوزى ما يؤيد ما ذهبنا إليه [٢] : فهناك ست شبهات على الأديان المنزلة تذكر على لسان البراهمة دون أن يكون هناك جديد على ما يقوله الشهرستانى [٣].

---

(١) قارن أيضاً اتفاقهم فى المصطلحات وبخاصة فى « مغيبات الأمور » (شهرستانى : ص ٤٢٦ س ٨) .

(٢) أدين بالإشارة إلى هذا الموضع للاستاذ هـ . هـ . شيدر .

(٣) أقوال البراهمة كما يذكرها ابن الجوزى هى : « قال المصنف : وقد ألقى إبليس إلى البراهمة ست شبهات :

(الشبهة الأولى) : استبعاد اطلاع بعضهم على ما خفى عن بعض فقالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم » ، والمعنى ، وكيف اطلع على ما خفى عنكم ؟

(الشبهة الثانية) : قالوا : هلا أرسل ملكا ؟ فإن الملائكة إليه أقرب ومن الشك فيهم أبعد ، والآدميون يحبون الرياسة على جنسهم فيوقع هذا شكا ؛

(الشبهة الثالثة) : قالوا : نرى ما تدعيه الأنبياء من علم الغيب والمعجزات وما يلقى إليهم من الوحى يظهر جنسه على الكهنة والسحرة . فلم يبق لنا دليل نفرق به بين الصحيح والفاسد .

(الشبهة الرابعة) : قالوا : لا يخلو إلا أن تجيء الأنبياء بما يوافق العقل أو بما يخالفه . فإن جاءوا بما يخالفه ، لم يُقبل ، وإن جاءوا بما يوافقه فالعقل يغنى عنه .

(الشبهة الخامسة) : قالوا : قد جاءت الشرائع بأشياء ينفر منها العقل ، فكيف يجوز أن تكون صحيحة ؟ من ذلك إيلام الحيوان .

(الشبهة السادسة) : قالوا : ربما يكون أهل الشرائع قد ظفروا بخواص من حجارة وخشب .

ورواية ابن الجوزى تختلف عن رواية الشهرستانى اختلافاً شكليا فحسب ، إذا ما استثنينا أن الشهرستانى أكثر تفصيلا وأنه يبدو فى نقله معتمداً على مصادر أقدم . هذا الاختلاف الشكلى ينحصر فى أن ابن الجوزى يرد على أقوال البراهمة بردود طويلة بينما لا نجد من ذلك شيئاً عند الشهرستانى . وعلى الرغم من هذا كله فلعل الشهرستانى قد عرف مثل هذه الردود ، ولكنه تركها . إذ أنه بعد ذكره لبراهين البراهمة الأربعة أورد فقرة فيها يدافع أنبياء الأديان المنزلة عن أديانهم وفيها يجيبون بخاصة على البرهان الأخير . أفليس لنا أن نزعم أن الشهرستانى قد استقى آراءه عن البراهمة من مؤلف فيه الرد على هذه الآراء بطريقة مشابهة لما هو لدى ابن الجوزى ؟ أما أن الشهرستانى لا يورد مصدره بتمامه وإنما يقدم لنا ملخصاً عنه ، فذلك يتضح من كلمة : « رسلهم » (ص ٤٤٦ س ٨) التى هى هنا معلقة فى الهواء[1] .

وهذا عينه يقال فى فصل ابن الجوزى عن البراهمة . فهو يدل دلالة واضحة على أنه مأخوذ من كتاب قديم اعتمد بدوره فى عرضه لمذهب البراهمة على ابن الراوندى بطريق غير مباشر على الأقل . وأهم مصدر لكتاب « تلبيس إبليس » أبو الوفاء على بن عقيل[2] (المتوفى سنة ٥١٣) ، الذى يذكر مراراً بهذا الكتاب . ولكن تتلو شبهات البراهمة الست والرد عليها فقرة تبتدئ بقوله : « قال أبو الوفاء على بن عقيل » . لذا يميل المرء إلى الاعتقاد

---

(١) ومما هو جدير بالملاحظة أن الآية : ما هذا إلا بشر مثلكم (سورة ٢٣ آية ٣٤) توجد لدى ابن الجوزى فى براهين البراهمة ، بينما الشهرستانى يذكرها فى الدفاع عن الأنبياء بشكل مغاير بعض الشيء .

(٢) انظر هـ . رتر ، مجلة « الإسلام » المجلد التاسع عشر (سنة ١٩٣٠) ص ١٠ تعليق رقم ٣ .

بأن فصل البراهمة كله لنفس المؤلف السابق الذكر فى الوقت الذى فيه يحيط بكلتا القطعتين (فصل البراهمة والجزء الذى يليه مباشرة) اقتباسان كبيران من النوبختى متعلقان بالبراهمة « الحقيقيين » . فكأن رواية النوبختىّ المتحدة قد فصمت عراها القطعة التى توسطت بينها ، والتى وجدنا من قبل أنها تكوّن وَحْدة .

والجزء المروى عن ابن عقيل هو فى محتواه تال لقطعة البراهمة . إذ فيه يتحدث عن الملاحدة الذين يجحدون الأنبياء ويضعونهم فى صف السحرة والمخرقين . وإلا فإن هذا الجزء خارج عن تأليف كتاب « تلبيس إبليس » . ولو أن الخصم اللدود لابن الجوزى فى هذا الكتاب هم حقاً الصوفية ، فإن الرد الوافى عليهم يبتدئ أولا ص ١٩٥ . والفصل السابق يتعلق بالمذاهب الباطلة للطوائف المختلفة من السوفسطائيين والفلاسفة والدهريين والثنوية وعبدة الأوثان والنار وجاحدى النبوات (أى البراهمة) واليهود والنصارى والصابئة والمجوس والفرق الإسلامية الخ . فليس فى هذا الجزء الأول من الكتاب موضع يتحدث فيه عن الصوفية . ولا يشذ عن هذا إلا الجزء المرويُّ عن ابن عقيل ، والذى ذكرناه آنفاً . أما فى الجزء الثانى فيتحدث عن الصوفية الذين يجسرون على مساواة كرامات الصوفية بمعجزات الرسل ، وما كان لهذه الحقيقة أن تسترعى النظر إذا لم تكن متلائمة مع سياق النص فيما بعد .

وفى ص ٣٨٩ يتكلم كتاب « تلبيس إبليس » عن طائفة من الصوفية

---

(١) « تلبيس إبليس » ص ٦٩ ؛ ص ٧٤ وما يتلوها ؛ وفى هذا الموضع الأخير لا يذكر النوبختى بوصفه مؤلفا إلا فى النهاية (ص ٧٥ س ٢) ولكن بمقارنته مع المسعودى فى مروج الذهب ج ١ ص١٥٦ (الذى أشار إليه رتر فى مقدمته لكتاب فرق الشيعة ص XVII) يتضح أن هذا الموضع كله مأخوذ عن النوبختى .

تجحدالنبوة ، ويلى ذلك كلام طويل عن هؤلاء الصوفية الذين يتهمون سلطان الأوامر والنواهى الدينية وعنها ينحرفون . وأقوالهم مشروحة فى شبهات ست يُرَدُّ عليها فى تفصيل . وعند نهاية هـذا الجزء (أسفل ص ٣٩٥) يروى من جديد عن ابن عقيل . ولا يعنينا محتوى هذه القطعة فى هذا المقام . وعلى هذا فاتفاق هذا الفصل فى التأليف مع الفصل عن البراهمة (ص ٧٠ وما يليها) حتى فى التفـاصيل لا يدع مجالا للشك فى أن هذين الجزئين متصلان بعضهما ببعض . وابن عقيل الذى يجب علينا أن نـَعُدّه فى يقين المصدرَ العام لما كتبه ابن الجوزى يذكر البراهمة كنظير لمن تحدث عنهم من الصوفية الإباحية الذين يجحدون النبوة . إذ قد رُوِى عن البراهمة شىء من هذا القبيل[1] .

وصلنا إذاً فى شىء من التحايل إلى تأييد ما ذهبنا إليه ، من أن فصل ابن الجوزى عن البراهمة يرجع إلى ابن عقيل . وعلينا الآن أن نمعن النظر فى الجزء التالى لفصل البراهمة ، وهو المرویُّ عن ابن عقيل (ص ٧٢) . فى السطر الثالث مباشرة لا يعترضنا إلا اسم « ابن الراوندى ومن شاكله كأبى العلاء »[2] ، بوصفه أكبر ممثل لجاحدى النبوة . وليس من شك فى أن أبا العلاء المذكور هو أبو العلاء المعرى . وقرن اسم أبى العلاء هنا باسم ابن الراوندى يدل دلالة واضحة على الأسباب التى من أجلها ذكر ابن الراوندى هناك . ولقد كان المعرى فى حياته متهما بتشيعه للمذاهب الهندية[3] . إذاً

(١) لعل البيرونى أول من قارن المذاهب الصوفية بالمذاهب الهندية ؛ انظر كتاب الهند للبيرونى ، فى الفهرست تحت كلمة التصوف Sufism .

(٢) انظر كذلك «تلبيس إبليس» ص١١٨ حيث يذكر ابن الراوندى والمعرى سويا .

(٣) انظر بعدُ ص ١٤٨ تعليق رقم ٤ وخصوصا الموضع الموجود لدى الذهبى .

فذكر ابن الراوندى فى هـذا المقام يدل على أن بن عقيل كانت لديه ذكرى غامضة على الأقل لما هو معروف من أن ذكر البراهمة بوصفهم منكرى النبوة إنما يرجع إلى ابن الراوندى . ولقد أخذ ابن عقيل كالشهرستانى من قبل (هو وغيره) آراء البراهمة كما هى مشروحة فى كتاب الزمرذ على أنها صحيحة ، واعتقد أن ابن الراوندى كان يقول بها ما دام قد عرضها ودافع عنها[١] .

ويتفق مع هذا بالدقة ذكر ابن الجوزى فى كتابه «المنتظم فى التاريخ»[٢] اسمَ ابن عقيل كراوية عن كتاب «الزمرذ» . وسنبحث بعدُ عن أى طريق وصل كتاب «الزمرذ» إلى ابن عقيل . ويكفى هنا أن نقول إن ابن عقيل عرف كتاب «الزمرذ» حقيقةً ، وعنه أخذ من أقوال البراهمة .

غير أن نص كتاب « تلبيس إبليس » يثير مسألتين أيضا :

١ — هل أقوال البراهمة هنا مأخوذة بنصها عن كتاب «الزمرذ» أم أن ابن عقيل أورد معنى أقوال البراهمة تقريباً فى اختصار شديد ؟

٢ — هل الرد المفصل على الشبهة السادسة من شبه البراهمة لابن عقيل نفسه أم أخذه عن مؤلف قديم ؟

أما عن السؤال الأول فالجواب سهل . فمقارنة قصيرة بنص الشهرستانى تدل على أن ابن عقيل أوجز أقوال البراهمة إيجازا شديداً نازعاً منها قبل كل شىء تلك الصبغة الجدلية المضادة للاسلام . ويدل على هذا

(١) قارن الكلمات الأولى من هذا الجزء : «صبئت قلوب أهل الإلحاد لانتشار كلمة الحق وثبوت الشرائع بين الخلق والامتثال لأوامرها ، كابن الراوندى ومن شاكله كأبى العلاء » .

(٢) مجلة «الإسلام» ، المجلد التاسع عشر (سنة ١٩٣٠) ص ٣ س ٩ — انظر القطعة رقم ٢١ .

الاتجاه دلالة واضحة العبارة رقم ٥ المتعلقة بأوامر الدين المنافية للعقل . وفى الموضع المناظر (العبارة الثالثة) لدى الشهرستانى يورد المؤلف كأمثلة على ذلك مجموعة من الأوامر الدينية الإسلامية تنافى العقل على حسب مذهب البراهمة . ويتفق هذا الإحصاء فى تفاصيله مع نص ابن الراوندى (القطعة رقم ٣) . أما ابن عقيل فقد أهمل ذكر الأمثلة وأورد مكانها[١] عنصرا يتلاءم كثيرا مع ما يعرفه عن مذهب البراهمة ، فهم يطعنون فيما أمرت به الأديان من إيلام الحيوان . ومن المؤكد أن عبارة « إيلام الحيوان» ليست مأخوذة عن ابن الراوندى . ولكنها من طابع أبى العلاء المعرى الذى يذكره ابن عقيل كملحد بجانب ابن الراوندى . ولقد قال المعرى عن نفسه فى مكاتباته مع داعى الدعاة الفاطمى ، المؤيد فى الدين[٢] ، التى طبعها مرجوليوث[٣] ، وفى قصائد عدة إنه نباتى ، وإنه يحرم أكل اللحم وقتل الحيوان عامة . والناس يرجعون هذا التفكير إلى ما كان للمعرى من ميل إلى المذاهب الهندية[٤] . وتعبيره الخاص عن هذا المبدأ الذى ينكره هو :

---

(١) ولهذا فإن عبارة : « من ذلك إيلام الحيوان » تظهر أنها مضافة من ناحية النظم .

(٢) هذا هو بعينه مؤلف « مجالسنا » هذه ؛ ونص هذه المكاتبات محفوظ فى المجالس ، كما أشرنا إلى ذلك آنفا .

(٣) «مجلة الجمعية الأسيوية الملكية» سنة ١٩٠٢ — ٣٣٢ ، والنص مأخوذ عن ياقوت ، «إرشاد الأريب» جـ ١ ص ١٩٤ وما يليها ؛ انظر بعد ص ١٥٩ تعليق ٣ .

(٤) انظر فيما يتعلق بالمسألة برمتها : ر . ا . نكلسون ، «دراسات فى الشعر العربى» ص ١٣٦ وما يليها . ومن بين المؤلفين الإسلاميين انظر على الخصوص : الذهبى فى ترجمته للمعرى فى كتابه « تاريخ الإسلام » (طبعها ر . س . مرجوليوث فى كتابه رسائل المعرى (*Anecdota oxoniensia*, Semitic Series, Part X, Oxford. 1898) حيث يقول ص ١٢٣ س ٢٦ وما بعده : « من عجيب رأى أبى العلاء تركه تناول كل مأكول لا تنبته الأرض شفقة بزعمه على الحيوانات حتى نسب إلى التبرهم ، وأنه يرى رأى =

« إيلام الحيوان » . وهو تعبير يصادفنا كثيرا فى رسائله[١] . وقد اتخذه ابن عقيل متذكرا أبا العلاء .

وهذا العنصر نفسه يظهر فى رده على هذه المسألة (أسفل ص ٧١) التى تتعلق بأمر الدين بقتل الحيوان وأكل لحمه فحسب[٢] . ومن هذا كله نستطيع أن نقول إن كل الردود على مقالات البراهمة هو لابن عقيل وأن نجيب بهذا المعنى على المسألتين الموضوعتين آنفاً .

ولكننا إذا أمعنا النظر أكثر فى هذه الأجزاء المختلفة وصلنا إلى نتيجة أخرى هى أن ابن عقيل كانت لديه صورة للرد تصرف فيها بحرية لا تقل عن حريته مع أقوال البراهمة نفسها[٣] .

ـــــــــــــــ

= البراهمة فى إثبات الصانع وإنكار الرسل وتحريم الحيوانات وإيذائها حتى الحيات والعقارب » ؛ انظر كذلك مرجوليوث ، نفس الكتاب صXXXVI ؛ ل . ماسينيون : « رسالة فى أصل المعجم » *Essai* ص ٦ ؛ ومن الصعب أن نقطع برأى فى مسألة مقدار صحة هذا القول . أما المعرى نفسه فيقول فى رسائله إلى داعى الدعاة إنه امتنع عن أكل اللحم منذ ثلاثين سنة من حياته لا لأسباب فلسفية أو دينية بل لأسباب صحية . ومن المؤكد أنه قابل فى أثناء مقامه ببغداد أناساً امتنعوا عن أكل اللحم ، وليس المرء أن يرجع فى ذلك إلى تأثير هندى . ومن المعروف عن المانوية أنهم لم يكونوا يتغذون إلا بالنبات وأكبر شاهد على هذا أتباعها الذين عاشوا ببغداد . انظر الخياط ، كتاب « الانتصار » ص ١٥٥ س ١٤ ؛ الجاحظ ، « الرد على النصارى » (طبعة فنكل ، « ثلاث رسائل » للجاحظ) ص ٢٠ س ١٠ — وفيما يتعلق بالنباتية المؤسسة على أساس فلسفى مع مذهب التناسخ انظر « رسائل إخوان الصفا » (طبعة بمباى) الجزء الثالث ص ١٣٠ — انظر أيضاً لوى ماسينيون ، نفس الكتاب ص ٤٣ .

(١) « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية » سنة ١٩٠٢ ص ٢٩٧ س ١٣ ؛ ص ٣٠١ س ٤ — كذلك الذهبى ، نفس الكتاب ص ١٣٠ س ٥ ؛ نفس المؤلف نقلا عن القفطى : نفس الكتاب ص ١٣٠ س ٢٦ وما يليه .

(٢) تأمل خصوصا ابتداء كلامه : « والجواب : أن العقل ينكر إيلام الحيوان بعضه لبعض ، فأما إذا حكم الخالق بالإيلام لم يبق للعقل اعتراض الخ » .

(٣) أما أن ابن الجوزى قد اعتدى على النص فذلك ظاهر من قوله (ص ٧٢ =

وليس من المحتمل أولاً وبالذات أن يكون لدى مؤلف متأخر كابن عقيل نصُّ كتاب «الزمرذ» . وسنبين[١] فيما بعد أنه منذ منتصف القرن الرابع لم يكن يُقْرأ غير كتب خصوم ابن الراوندى المسلمين ، وخصوصاً المعتزلة منهم ؛ تلك الكتب التى فيها ردٌ على كتبه التى تستعمل أيضاً لعرض مذهبه ، وابن الجوزى فى كتابه «المنتظم فى التاريخ»[٢] يذكر لنا أن كتاب «الزمرذ» قد رد عليه أبو الحسين الخياط وأبو على الجبائى (المتوفى سنة ٣٠٣) . وكتاب الجبائى هو المصدر لما هو مرويٌّ عن كتاب « الزمرذ »[٣] فى هذا الكتاب اعتماداً على ابن عقيل الذى يتفق مع كتاب الجبائى فى معنى تسمية كتاب « الزمرذ » بهذا الاسم وإليه يرجع فى كل اقتباساته من كتاب « الزمرذ »[٤] .

ومن هنا يتبين أن ابن عقيل أخذ أقوال البراهمة عن كتاب الجبائى ، وكذلك أخذ جزءاً من ردوده التى يمكن إرجاع الكثير منها إلى مذهب المعتزلة . ومع هذا فيجب على المرء أن يكون حذراً فى حكمه ما دام تفكير المعتزلة ومصطلحهم سادا كل كتب الكلام المتأخرة ، ولهذا فإن هذا الفرض سابق لأوانه إلى أن يقوم عليه الدليل القاطع .

غير أنا نستطيع سوق هذا الدليل ، ففى كتاب « المنتظم » اقتباس من كتاب « الزمرذ » يكاد يتفق فى محتواه مع قول من أقوال البراهمة فى « تلبيس إبليس » . إذ يتفق رد الجبائى على العبارة : « إن الأنبياء وقعوا بكلمات

= س ١٣) إنه قد مضى على ظهور الرسول ٦٠٠ سنة تقريبا . ولقد توفى ابن الجوزى سنة ٥٩٧ ، بينما توفى ابن عقيل سنة ٥١٣ .

(١) انظر بعد ص ١٦١ وما يليها .

(٢) مجلة « الإسلام » المجلد التاسع عشر (سنة ١٩٣٠) ص ٣ س ٤ .

(٣) المجلة السابقة ص ٣ س ٩ .

(٤) سنبين هذا بعد .

تجذب كما أن المغناطيس يجذب » (قطعة رقم ٢٣) ، الوارد فى كتاب المنتظم ؛ أقول يتفق فى كلماته الأولى مع الرد على الشبهة السادسة من شبه البراهمة ، المتعلقة بأعمال الأنبياء السحرية :

منتظم ص ٤ س ١١ وما يليه :	تلبيس ابليس ص ٧٢ س ٨ :
وهذا كلام ينبغى أن يستحيي من ذكره : فإن العقاقير قد عرفت أمورها وجربت ، فكيف وقع هؤلاء الأنبياء بما خفى عن من انظر منهم ؟ !	والجواب : إن هذا كلام ينبغى أن يستحيي من إيراده ، فإنه لم يبق شيء من العقاقير والأحجار إلا وقد وضحت خواصها وبان سترها . فلو ظفر واحد منهم بشيء وأظهر خاصيته ، لوقع الإنكار من العلماء بتلك الخواص ، وقالوا ليس هذا منك ، إنما هذه خاصية فى هذا .

ولنرجع بعد هذا الاستطراد فى بحث الأمور الشاقة المتصلة بمصادر فصل البراهمة بكتاب «تلبيس إبليس» ، إلى موضوع هذا الفصل ألا وهو حياة براهمة كتاب «الزمرذ» فى الكتب الإسلامية المتأخرة . وإلى الآن لم يكن المؤلفون الذين ذكرناهم آنفا يذكرون على الخصوص إلا أقوال البراهمة فى منافاة النبوة للعقل وفى خلو شعائر الإسلام من المعنى . غير أن المؤلفين المتأخرين قد أخذوا نقد البراهمة لمعجزات النبي الذى ذكره ابن الراوندى فى كتابه وعـدّوه صحيحاً لاشك فى أنه لهم (القطع رقم ٧ ، ٨ ، ١١) . ففى الفصل الأول من كتاب « كمال الدين وإتمام النعمة فى إثبات الغيبة وكشف الحيرة » للمتكلم الإمام أبي جعفر محمد بن على بن بابويه[1] (المتوفى

(١) انظر بروكلمان : جـ ١ ص ١٨٧ .

سنة ٣٨١) يرد المؤلف على هجمات الفرق الإسلامية والزيدية خاصة ضد مذهب غيبة الأئمة الاثنى عشر . وفى موضع منه يقارن المؤلفُ الخصمَ الذى يشك فى معجزة الغيبة ، بالبراهمة الذين ينكرون جميعاً معجزات الأنبياء . وهأنذا أورد النص تبعاً للنسخة المطبوعة طبع حجر (سنة ١٣٠١ هـ) ص ٤٩ وما يليها :

« قال مخالفونا : إن العادات والمشاهدات تدفع قولكم بالغيبة . فقلت : إن البراهمة تقدر أن تقول مثل ذلك فى آيات النبى صلى الله عليه وآله ، وتقول للمسلمين : إنكم بأجمعكم لم تشاهدوها ، فلعلكم قلّدتم مَن لم يجب تقليده ، أو قبلتم خبراً لم يقطع العذر . ومن أجل هذه المعارضة ، قالت عامة المعتزلة على ما يحكى عنهم : إنه لم تكن للرسول صلى الله عليه وآله معجزة غير القرآن . فأما من اعترف بصحة الآيات التى هى غير القرآن احتاج إلى أن يُطلق الكلام فى جواز كونها ، بوصف الله تعالى ذكرهُ بالقدرة عليها ثم فى صحة وجود كونها على أمور قد وقعنا عليها ، وهى غير كثيرة الرواة . فقالت الأمامية : فارضَوا منا مثل ذلك ؛ وهو أن نصحّح هذه الأخبارَ التى تفردنا بنقلها عن أئمتنا عليهم السلام بأن تدل على جواز كونها بوصف الله تعالى ذكرهُ بالقدرة عليها وصحّة كونها بالأدلة العقلية والكتابية والأخبار المروية المقبولة عند نقلة العامة » . ثم قال بعد ذلك :

« قال الجدلى : فنقول إنه ليس بإزائنا جماعة تروى عن نبينا صلى الله عليه وآله ضد ما نروى مما يبطله ويناقضه . أو تدّعون أن أوّلنا ليس آخرنا . فيقال له : ما أنكرتَ مِن برهمىٍّ قال لك إن العادات والمشاهدات والطبيعات تمنع أن يتكلم ذراع مسموم مشوىّ وتمنع من انشقاق القمر وإنه لو انشق وانفلق (ص ٥٠) لبطل نظام العالم . وأما قوله ليس بإزائهم

من يدفع أن أوّلنا ليس كآخرنا فإنه يقال له الخ » .

ومن الواضح أن ابن بابويه يرجع هنا فى شيء من التصرف إلى مذهب البراهمة كما هو وارد فى كتاب « الزمرذ »(١) . ولعله حينما يذكر المعتزلة وأنهم لايعترفون بمعجزة أخرى غير القرآن ، « على ما يُحكى عنهم » ، إنما يعنى دفاع خصوم البراهمة فى كتاب «الزمرذ»(٢) ، ذلك الدفاع الهزيل .

ومن الشيق أن نجد إحالات إلى براهمة كتاب «الزمرذ» خارج الكتب الإسلامية ، فى كتب اليهود العرب . وقد أشار فرانتس دِلِتْش Frnnz Delitzsch فى تعليقه على طبعة كتاب « عص خوس» لآرون بن إليا القرّائى (ألف سنة ١٣٤٦ م)(٣) إلى طائفة من هذه المواضع . وهناك مسألة لها أهميتها وخطرها وهى أن سعديه جاؤن المتكلم الفيلسوف اليهودى قد تحدث عن البراهمة فى أشهر كتبه المكتوب بالعربية وهو كتاب «الأمانات والاعتقادات»(٤) . فهو حينما يقول فى ص ١١٨ س ١٣ وما بعده : « لأنى سمعت بأن قوما يقولون : ليس بالناس حاجة إلى رسل وعقولهم تكفيهم أن يهتدوا بما فيها من الحَسَن والقبيح » ، إنما يقصد الإشارة إلى مذهب

---

(١) لعل المصدر الوسيط هو كتاب « فساد قول البراهمة » لأبى القاسم على بن أحمد الكوفى الرافضى (المتوفى سنة ٣٥٢) ؛ قارن ، استرابادى ، « منهج المقال » (طهران سنة ١٣٠٢) ص ٢٢٥ ؛ النجاشى : « كتاب الرجال » ص ١٨٩ (قدمه إلىّ الأستاذ ماسينيون) .

(٢) انظر قبل ص ١١٤ .

(٣) ليبتسك سنة ١٨٤١ ص ٣٠٧ . وهو يتحدث عن البراهمة ص ١٠٦ .

(٤) طبع س . لانداوَر ، ليدن سنة ١٨٨٠ - وقد طبعت ترجمة يهودا بن طبون العبرية مراراً (انظر : هـ . مالتر Malter ، سعديه جاون ، حياته ومؤلفاته ، فلادلفيا سنة ١٩٢١ ص ٣٧٠ وما يليها) — وأنا أستخدم طبعة إسرائيل هاليقى ، يوزيفوف سنة ١٨٨٥ .

البراهمة ، كما لاحظ من قبل جوتمان محيلا إلى الشهرستاني[1] . وهو يذكرهم صراحة (ص ١٣٩) بمناسبة مهاجمته لمذهب « نسخ الشريعة » الإسلامي . وبعد أن يذكر سعديه طائفة من المذاهب ، اليهودية أيضا ، التي تقول بإمكان نسخ شريعة التوراة ، يقول : « ورأيت منهم من يقول : « إن قالت البراهمة إنا نقلنا عن آدم الأمرَ بلباس ملحم من صوف وكتان وبأكل المضيرة من لحم ولبن وبضمد الثور والحمار ، فليس لكم أن تنقلوا خبر رسول يحظرها لأن آدم قال لنا إنها لا تنسخ » . وهذه ، أرشدك الله ، دعاوىٰ لا أصل لها ، وإنما هم الذين ادعوها للبراهمة . وإنما يدعون للبراهمة إباحة هذه الأشياء فقط ؛ ونحن أيضا مقرون بإباحتها حيث كانت وتقريب حظرها في العقول إذا كان الإنسان يجوز يمتنع منها من تلقاء نفسه لنفع يلحقه . ولو ذهب برهمي أن يدّعي مستأنفا ما ادعوه له لم يسغ له ذلك ، لأن الناقل إنما يقول في كل يوم كمثل ما قاله به في أمسه وليس هو مثل المرتئي الذي يجوز له أن يقول : انكشف لي اليوم ما لم أقف عليه بالأمس » .

وليس لنا طبعاً أن نستنتج من هذا النص أن براهمةَ كتاب «الزمرذ» كانوا يقولون بمذهب النسخ هذا . وسعديه نفسه يقول بعد أن ذكر أن خصوم اليهودية هم الذين وضعوا هذا المذهب على لسان البراهمة ، الذين اشتهروا منذ مؤلَّف ابن الراوندي بجاحدي النبوات ، أقول إن سعديا يذكر في صراحة أنه بصدد حجة اخترعت من أجل نصرة مذهبهم . ومع هذا فقد كان كتاب «الزمرذ» موجهاً أولا وبالذات ضد عقائد الإسلام ولم يكن من داع لابن الراوندي لتأييد مذهب المسلمين في نسخ الشريعة ببراهين جديدة ،

(١) يعقوب جوتمان : « فلسفة الدين عند سعديه » ، جيتنمن سنة ١٨٨٢ ص ١٤٠ J. Guttmann : *Die Religionsphilosophie des Saadia*

والأرجح أنه هاجم هذا المذهب بعينه . يؤيد ذلك ما ذكره اليافعى[١] من أن ابن الراوندى دافع عن مذهب اليهود فى عدم إمكان نسخ الشريعة ضد مذهب المسلمين فى نسخها . وعلى الرغم من هذا كله فإن فقرة سعديه ذات أهمية كبرى فيما يتعلق بحياة براهمة كتاب «الزمرذ» من بعده . إذ تريناً كيف اعتقد الناس فى خرافة ابن الراوندى عن البراهمة وكيف توسع الناس فى مذهب البراهمة المزعوم[٢] .

وليس من شك فى أن ابن الراوندى ، حينما يدع البراهمة يطعنون فى الأديان المنزلة إنما يخفى تحت هذا القناع عقيدته الخاصة . غير أن هذا لا يفسر لنا اختيار ابن الراوندى للبراهمة كممثلين للعقليين وأحرار الفكر . أهو يمزج بهذا الذى يقوله عنهم أمشاجاً من معرفته لبعض المدارس الفلسفية الهندية ، أم هو تبع سُنَّةً قديمة تضع على لسان حكماء الهند أقوالا مثل هاتيك ؟ هنا يلاحظ الأستاذ شيدر أن المسألة هنا مسألة أدبية ترجع إلى

---

(١) انظر بعد ص ١٧٧ تعليق ٨ عند نهاية التعليق . وتبعاً لهذا الموضع فإن ابن الراوندى قد « لقن اليهود الاحتجاج على عدم جواز النسخ ... بأن قال لهم : قولوا إن موسى عليه السلام أمرنا أن نتمسك بالسبت ما دامت السموات والأرض ولا يجوز أن يأمر الأنبياء إلا بما هو حق » . ومن الشيق أن هذا البرهان بعينه نجده لدى سعديه (ص ١٢٨ وما بعدها ، ص ١٣١) — انظر كذلك اجناتس جولدتسيهر ، « شريعة السبت فى الإسلام » ، فى : « كتاب لذكرى داڤد كوفمان (برسلاو سنة ١٩٠٠) ص ٩٩ وما يليها .

(٢) لا أنسى أن أؤكد مقدار الثمرة التى نجنيها من مقارنة كتاب سعديا بالكتب الإسلامية . ولقد اقتصر جوتمان فى كتابه المذكور آنفا على الشهرستانى فى ترجمة هاربريكر . وما نشر من نصوص فى العشر سنوات الأخيرة يعين كثيراً على البحث فى مصادر سعديا الإسلامية . ولقد كتب مقالة فى هذا الباب منذ زمن قصير ج . ڤايدا وعنوان هذه المقالة هو : « مصدر عربى لسعديا ، كتاب الزهرة لأبى بكر بن داود » (« مجلة الدراسات اليهودية » REJ ، المجلد الثانى والتسعون سنة ١٩٣٢ ص ١٤٧ وما يليها) .

العصور الأولى للهلّينية . وأقدم شاهد على هذا محاورة الإسكندر مع زهاد الهند العراة المعروفين باسم جمنوسوفسط والمذاهب التى يمثلها هنا حكماء الهند لاشأن لها بالواقع لدى الهنود وإنما مصدرها تبعاً للأستاذ ڤلْكن تهكم الكلبيين اللاذع[1] . ولقد كان فلاسفة الهند يُعَدّون فى الإسلام تحت اسم السُمَنية (والأصح : السَّمَنية = Σαμαναῖοι) كممثلين للشك الهليني ضد المعتزلة[2] . ومع هذا أرى أن البراهمة لا يذكرون فى هذا المقام فيما خلا الكتب المتأخرة التى اعتمدت على ابن الراوندى . فلعل ابن

---

(١) انظر ى . ڤلكن S. U. Wilcken : الإسكندر الأكبر وسفسطائيى الهنود ، فى : محاضر جلسات الأكاديمية البروسية للعلوم ,Phil. Hist. Kl., 1923 XXIII, 150 f) والأستاذ هـ . هـ . شيدر سيتحدث بتفصيل عن هذه المسألة فى مقالته : السمنية فى الكتب المتقدمة الإسلامية والمسيحية (تظهر فى مجلة ZNTW) .

(٢) انظر توماس أرنولد ، المعتزلة (ليبتسك سنة ١٩٠٢) ص ٢١ و ص ٣١ — ٣٣ ، فيما يتعلق بالسُّمَنى جرير بن حازم الأزدى ، انظر لوى ماسينيون ، «رسالة فى أصل المعجم الفنى للتصوف الإسلامى» ص ٦٥ — أما أنا بصدد سنة قديمة نسبيا ، فذلك يتضح من كتاب : الهليلجة (أو الاهليلجة) عن أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق (مطبوع فى كتاب «بحار الأنوار» للمجلسى — طبع حجر بطهران سنة ١٣٠١ — ج ٢ ص ٤٧ — ٦٢) . وقد ذكر هذا الكتاب ابن النديم («الفهرست» ص ١٧ س ٢٦) وألفه فى زعم النجاشى (كتاب الرجال ، بمباى سنة ١٣١٧ ص ١٠٠) [انظر كنتورى : «كشف الحجوب» ، دار الكتب الهندية بكلكتا سنة ١٩١٤ ص ٤٣٠] حمدان بن معافى (المتوفى سنة ٢٦٥) . فى هذا الكتاب يذكر كخصم لجعفر «طبيب من بلاد الهند» . وفى مخطوطة لكتاب الأهليلجة المذكور فى حوزة الأستاذ ج . س . كولن ، فيها يذكر النص باختصار شديد ، يذكر : «طبيب من سمنية الهند» ؛ ومن المؤكد أن هذا هو الأصل — انظر كذلك ماكس هورتن : «شك السمنية تبعاً للرازى» فى مجلة : «محفوظات فى تاريخ الفلسفة» ، المجلد الرابع والعشرون ص ١٥١ وما بعدها ؛ أما كتاب جولدتسيهر *A buddhismus Hatasa az iszlamra* (بودابست سنة ١٩٠٢) [قارن ب . هلر ، فهرست كتب اجناتس جولدتسيهر ، باريس سنة ١٩٢٧ ، رقم ٢٤٢] فلم أستطع الوقوف عليه .

الراوندى استعاض عن السمنية بأختها البراهمة لأن المبدأ الذى اعتمد عليه فى طعنه العقلى على الأديان ، وهو العقل الإنسانى ، لا يتفق ومذهب السمنية الشكى الحسى .

وليس لهذه المسألة بالنسبة إلى ما نحن بصدده إلا أهمية ثانوية . والمهم حقاً هو أن الروايات التى نجدها لدى المؤلفين الإسلاميين عن البراهمة بحسبانهم منكرى النبوة ، إنما ترجع إلى كتاب « الزمرذ » لابن الراوندى[١] . وعلى الأقل كان ردّ الجبائى الوسيط لأقوال ابن الجوزى (ابن عقيل) . وهذا بعينه ينطبق على المؤلفين الآخرين[٢] .

٨ — تأريخ الرد

لم نحاول حتى الآن أن نصفَ الكتاب الذى فيه حُفِظَتْ لنا قطعٌ من كتاب «الزمرذ» وصفاً شاملا . أما اسم المؤلف فلا يذكر ، وإنما يقتصر المؤيد فى الدين الشيرازى على ذكر أنه داع إسماعيلى (أحد دعاتنا)[٣] ولعل

---

(١) لا يحق لنا أن ندهش لاستخدام كتاب « الزمرذ » كمصدر لآراء البراهمة دون إمعان كبير . فإن الكتاب من أهل السنة قد اعتمدوا فى عرضهم لأخطاء المعتزلة على كتاب « فضيحة المعتزلة » لابن الراوندى ، وعلى العكس من هذا يجب علينا أن نذكر أن المؤلف الإسماعيلى للرد قد أدرك اختراع ابن الراوندى (قطعة رقم ١٤) .

(٢) يذهب البغدادى («الفرق» ص ١١٤) إلى حد القول بأن النظام قد تأثر بمذهب البراهمة فى إبطال النبوات ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفاً من السيف . فأنكر إعجاز القرآن وأنكر ما روى فى معجزات نبينا صلم من انشقاق القمر وتسبيح الحصى فى يده ونبوع الماء من بين أصابعه ليتوصل بإنكار معجزات نبينا عليه السلام إلى إنكار نبوته . انظر كذلك «الفرق» ص ٣٣٤ ؛ وبخاصة تور أندريه : «شخصية محمد » ص ١٠٨ — وفى موضع آخر (الفرق ص ٣٤٨) يقول البغدادى إن الشافعيين حرموا الزواج من البراهمة بحسبانهم منكرى الأنبياء .

(٣) ص ٧٩ س ١٢ .

طريقة مؤيد فى التأليف تدل على أن هذا الكتاب من تأليفه هو . وهو يقول عن نفسه فى ديوانه :

رَضِيتُ التَّسَتُّرَ لى مذهباً وما أَبْتَغِى عنه من مَعْدِلِ[1]

وفى « مجالسه » بالقاهرة أدخل كثيراً من الكتب على النحو الذى أدخل فيها الرد على كتاب «الزمرذ»[2] . ولا يذكر لهذه الكتب مؤلفا إلا باسم « أحد دعاتنا » أو « بعض دعاتنا فى الشرق » . ومن الراجح أن مؤيداً إنما يقرأ على سامعيه كتباً ألفها أثناء قيامه من قبل بالدعوة فى بلاد

(١) انظر حسين الهمدانى ، « تاريخ الدعوة الإسماعيلية وأدبها خلال العهد الأخير من الدولة الفاطمية » ، مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٣٢ ص ١٣٤ .

(٢) هنا أورد تقديماته لهذه الكتب :

ا — المجلد الثالث ص ١٦٠ (مجلس رقم ٢٣٨) : وإن بعض دعاتنا فى الشرق وشى به الواشون إلى السلطان فقال بعض : إنه يقول بقدم العالم ، وقال البعض إنه يغلو فى على صلع ، وقال بعض إنه يرى رأى الفلاسفة ويأخذ كلامه ويدسيه فى الكلام الشرعى ؛ فعمل رسالة نحن نقرؤها عليكم سوقا لفوائد علومها إليكم ؛ وفاتحتها بسم الله الرحمن الرحيم الخ .

ب — المجلد الثالث ص ٣٠٢ (مجلس رقم ٢٤٧) : « قد كان أحد دعاتنا فى الشرق أخذ العهد على رجل من ذوى الأقدار كان استحوذ عليه شياطين المعتزلة » ويكتب الداعى إلى هذا الرجل رسالة لينقذه من شبهات المعتزلة .

ح — المجلد الثالث ص ٣٣٣ (مجلس رقم ٢٥٥) : قد سمعتم ما قرئ عليكم من الفصول الحكمية المقصودة بالبراهين العقلية ونحن نشفعها بخطبة عملها أحد دعاتنا بالشرق فى هذا الأسلوب وأودعها من الحكمة ما فيه حياة القلوب . قال الخ .

د — المجلد الرابع ص ٢٠٨ (مجلس رقم ٣٤٦) : إن بعض دعاتنا ناظر بعض علماء المخالفين فى أمر فدك وخروج فاطمة من خدرها الخ .

ه — المجلد الخامس ص ٢ (مجلس رقم ٤٠١) : وقد وقع إلى أحد دعاتنا كتاب مترجم «بالاسترشاد» للثغورى ذكر فيه شبهاً على اليهود والنصارى والمسلمين ... فأجاب عنه بما نتلوه عليكم بفصه وينتفع به من وفقه الله للخير . قال الخ ... (فيما يتعلق بالرد على الثغورى الملحد انظر قبل ص ١٠٢ تعليق ١ ؛ قارن كذلك بعد ص ١٧٦) .

فارس[١]. غير أنه فى بعض الأحيان يعين المؤلف . فمثلا فى هذه «المجالس» قد حفظت لنا مكاتبة أحد الدعاة مع أبى العلاء المعرى الشاعر[٢] وهى مكاتبة معروفة جيداً من مصدر آخر . وذلك المصدر هو ياقوت الذى حفظ لنا كل هـذه المـكاتبة (التى تحتوى على رسالتين للمعرى وثلاث رسائل للداعى الإسماعيلى) ، فى كتابه إرشاد الأريب[٣] وذكر لنا صراحة اسم الداعى ألا وهو أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران ، داعى الدعاة بمصر[٤] . ومصدر ياقوت هو ، من جهةٍ ، موضع فى كتاب «فلك المعانى» لابن الهَبَّارِيّة[٥]،

---

(١) انظر هذه المسألة بالتفصيل عند حسين الهمدانى ، المقالة المذكورة ص ١٢٩ وما بعدها ، ونفس المؤلف فى «دائرة المعارف الإسلامية» تحت هذا الاسم .

(٢) المجلد السادس ص ٣٨ (مجلس رقم ١٣ وما يليه) ومقدمة مؤيد هكذا : قد انتهى إليكم خبر الضرير الذى نبغ بمعرة النعمان وما كان يعزى إليه من الكفر والطغيان ... حتى توجه من وجهناه من داعينا للقاء التركمانية فانعقد بينه وبينه من المناظرة مكاتبة غير مشافهة ما نورده بنصه فينفع الله به السامعين . قال داعينا الخ ... (ولقد أبان حسين الهمدانى فى مقالته المذكورة ص ١٣٣ وما بعدها أن هذه المكاتبة هى بعينها المكاتبة الموجودة لدى ياقوت) .

(٣) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، طبعة مرجليوث ، (سلسلة جب ، المجلد السادس) لندن سنة ١٩٠٨ — ٢٧ ، ج ١ ص ١٩٤ وما يليها . وقد طبع النص وترجمه المرة الأولى ر . س : مرجليوث ، « مكاتبة أبى العلاء على النباتية » ، فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٢ ص ٢٩٨ — ٣٣٢ ؛ وطبع ثانياً فى طبعة كامل كيلانى لرسالة الغفران (القاهرة سنة ١٩٢٥) ج ٣ ص ٩٣ — ١١٠ ؛ كذلك : خمس رسائل مفيدة دارت بين حكيم الشعراء أبى العلاء المعرى والمؤيد فى الدين أبى نصر بن أبى عمران ، القاهرة بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٩ — انظر أيضاً مجلة الزهراء سنة ١٣٤٢ ص ٢١٩ وما بعدها ؛ افانوف ، دليل كتب الأسماعيلية ، رقم ١٦٠ ، ثم مجلة الدراسات الإسلامية REI سنة ١٩٣٢ ص ٤٨٨ .

(٤) فى المكاتبة نفسها يسمى أبو العلاء مكاتبه باسم : سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين .

(٥) انظر بروكلمان : المجلد الأول ص ٢٥٣ .

ومن جهة أخرى « مجلد لطيف » فى رسائل أبى نصر هبة الله بن عمران إلى المعرى ، وعن هذا الأخير اقتطفها . فكأن ياقوت إذاً لم يأخذ المكاتبة عن « المجالس » مباشرة ، لكنه عرف اسم مؤلف الرسائل إلى أبى العلاء عن مصدر آخر مستقل عن « المجالس » . ويدل لفظ « داعينا » فى هذه الحالة وربما فى كل الحالات الأخرى على مؤلف المجالس نفسه .

والدليل القاطع على أن مؤلف الرد على ابن الراوندى هو مؤيد حقاً يمكن سوقه طبعاً على أساس علامات لغوية ومعنوية . وآمل أن أقوم بتحليل لكل هذه المجالس يؤدى إلى إثبات أن كل الآراء الواردة رداً على كتاب « الزمرذ » تتعلق تعلقاً تاماً بمذهب مؤيد . وسأقتصر هنا على إيراد دليل على آخر تاريخ يمكن أن يوضع لهذا الرد ، وعلى البحث فى تحديد العلاقة بينه وبين الردود الأخرى على ابن الراوندى .

أما أن كتاب الداعى لا يمكن أن يكون قد ألف قبل النصف الثانى من القرن الرابع فذلك يتضح تمام الوضوح من بيت الشعر المذكور ص ٩١ س ١١ . وهذا البيت ، كما أبنّا فى تعليقنا على هذا الموضع ، من قصيدة للمتنبى يمكن تأريخها من سنة ٣٣٩ — سنة ٣٤٦[1] . لذلك كان لزاماً علينا أن ننظر إلى هذا الرد من ناحية أخرى غير الناحية التى ننظر منها إلى الردود العديدة على ابن الراوندى التى ألفت بعد موته بزمان قصير . ولم تكن كتب ابن الراوندى نفسها نقطة ابتداء مناظرته والرد عليه إلا فى الجيل التالى له ، فندرت قراءتها فى نصوصها الأصلية فى منتصف القرن الرابع ولم

(١) فى هذه الأثناء كان المتنبى فى بلاط سيف الدولة [انظر بروكلمان جـ ١ ص ٨٧ ؛ محمد صدر الدين ، سيف الدولة وعصره *Saifuddaulat and His Times* (لاهور سنة ١٩٣٠) ص ٤٩ وما بعدها] . ويقول الشراح إن هذه القصيدة ألفت حينما كبست أنطاكية ، فهلا يمكن تحديد هذه الحادثة بدقة أكثر ؟

تعرفُ بعد إلا عن طريق الردود الأولى عليها . ولعلنا نُبيِّن فيما بعد أن مؤلف الرد على كتاب « الزمرذ » قد عرفه لا عن طريق النص الأصلي وإنما عن طريق اقتباسات الردود الأخرى منه .

وهأنذا أورد فيما يلي ماحفظ لنا من أقوال عن الردود على ابن الراوندى على حسب الترتيب التاريخى[١] :

١ — يقال إن أول من ناظر ابن الراوندى هو الفيلسوفُ يعقوب ابن اسحق الكندى (المتوفى حوالى سنة ٢٦٠) . ويذكر ابن أبى أصيبعة[٢] له كتاباً عنوانه : كلام له مع ابن الراوندى فى التوحيد[٣] . لكن هذا العنوان والثلاثة الأخرى التى تليه لا توجد فى فهارس كتب الكندى لدى ابن النديم أو ابن القفطى . ويدل على عدم صحة كلام ابن أبى أصيبعة من جهة أخرى ما هو معروف من أن المتأخرين قد نسبوا إلى الكندى ، بحسبانه أول فيلسوف عربى ، كتبا كثيرة كتبها غالبا تلاميذه[٤] .

٢ — وقد رد على كتاب «التاج» (رقم ١١ لدى نيبرج) لابن الراوندى أبو سهل إسماعيل بن على النوبختى[٥] ، أحد شيوخ الإمامية المشهورين

---

(١) ذكر نيبرج (الكتاب السالف الذكر ص ٣٢ وما يليها) حين سرده لكتب ابن الراوندى بعض هؤلاء المؤلفين . وما نذكره فيما يلى من أرقام بعد عناوين كتب ابن الراوندى يناظر فهرست نيبرج لها .

(٢) عيون الأنباء (طبعة ملر ، القاهرة سنة ١٨٨٢) ج ١ ص٢١٢ س٢٣ .

(٣) لعله يناظر رقم ١٧ لدى نيبرج .

(٤) قارن دى بور ، حول الكندي ومدرسته ، فى : محفوظات فى تاريخ الفلسفة *Archiv fair Jesch. 6. Philos.* ، المجلد الثالث عشر (سنة ١٩٠٠) ص ١٥٣ وما يليها ؛ وانظر خاصة ص ١٧٥

(٥) كتب عنه بالتفصيل لوى ماسينيون فى كتابه : «عذاب الحلاج» ، ص ١٤٦ وما يليها .

(توفى سنة ٣١١) فى كتاب « السَّبْك[1] » وكذلك رد على كتابيه « لغة الحكمة[2] » و « اجتهاد الرأى[3] » ، (رقم ١٩ لدى نيبرج) .

٣ — ويذكر النجاشى لابن أخت أبى سهل النوبختى وهو أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى الذى كتب فى حوالى نهاية القرن الثالث[4]، أقول ذكر له كتابا هو : « النُّكَت على ابن الراوندى[5] » .

٤ — ونقض أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى خمس كتب على ابن الراوندى ، كما يقول ابن الجوزى[6]، ومن بين هذه الكتب كتاب الزمرذ[7] وكتاب الدامغ[8] وكتاب التاج[9] .

---

(١) لدى الطوسى (فهرست كتب الشيعة ، طبعة اشبرنجر) ص ٢٨ : « كتاب السبك » ؛ ويدل هذا العنوان على أن « تاج » ابن الراوندى سيذوب فى هذا الكتاب .

(٢) يميل نيبرج إلى قراءته : عبث الحكمة ، تبعا للطوسى — قارن لوى ماسينيون ، « عذاب الحلاج » ص ٦١٧

(٣) « الفهرست » (طبعة فلوجل) ص ١٧٧ ؛ الطوسى ، الكتاب المذكور ص ٨٥ — ماسينيون ، نفس الكتاب ص ١٤٨

(٤) ألف كتابه « فرق الشيعة » (طبع رتر ، دار الكتب الإسلامية المجلد الرابع استامبول سنة ١٩٣١) بين سنة ٢٦٦ و سنة ٢٩٧ . ويقول فى ص ٦٤ إن للقرامطة آنذاك أتباعاً كثيرين باليمن وجنوب العراق ولكن لم تكن حركتهم على العموم قوية كل القوة ولاذات خطر . ومن المعروف أن حركة القرامطة كانت فى اليمن منذ سنة ٢٦٦ ، هذا إلى أن النوبختى لا يعرف شيئا عن نجاح القرامطة العظيم فى أوائل القرن الرابع .

(٥) انظر مقدمة كتاب « فرق الشيعة » ص ك XX .

(٦) مجلة : « الإسلام » المجلد التاسع عشر « سنة ١٩٣٠ » ص ٣ س ٢ وما يليه .

(٧) انظر بعد ص ١٦٨ وما يليها .

(٨) وكذلك يذكره البلخى فى قطعة كتاب « الفهرست » لابن النديم ، « مجلة فينا لمعرفة الشرق » ، المجلد الرابع ص ٢٢٤ س ١ [ص ٥ س ٦ من الطبعة المصرية « للفهرست »]

(٩) مذكور أيضاً لدى أبى رشيد فى كتاب « المسائل فى الخلاف بين =

٥ — كذلك كرّس معاصرُ الجبائى وهو أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط جزءاً من حياته التأليفية فى نقض كتب ابن الراوندى ، عليه . فإلى جانب كتاب « الانتصار » وهو رد على كتاب « فضيحة المعتزلة » ، نقض أيضا كتاب : « القضيب » (رقم ١٠ فى فهرست نيبرج لكتب ابن الراوندى ص٣٢) ، « نعت الحكمة » ، (رقم١٢) ، « الزمرذ » (رقم ١٣ ؛ انظر كذلك ابن الجوزى ، الكتاب المذكور ص٣ س ٤) ، « الفريد » (رقم ١٤) ، « الدامغ » (رقم ١٥) وأخيرا كتاب « إمامة المفضول » (ابن الجوزى ، الكتاب المذكور ص ٣ س ٥) .

٦ — ونقض أبو بكر محمد بن إبراهيم الزبيرى ، وهو معتزلى من الطبقة الثامنة ، على ابن الراوندى أربعة كتب ، كما يقول ابن المرتضى[1] .

٧ — وتحدث عن ابن الراوندى فى كتابه « محاسن خراسان »[2] أبو القاسم أحمد بن عبد الله البلخى الكعبى (المتوفى سنة ٣١٩) المعتزلى المشهور . وقد حفظ لنا « الفهرستُ » وكتابُ « معاهد التنصيص »[3] هذا الكلام فى اختصار . وهو قد نقض على ابن الراوندى مذهبه فى

= البصريين والبغداديين » (ا . بيرام ، الجوهر الفرد : برلين سنة ١٩٠٢ A. Biram : *Die atomistische Substanzlehre*) ص ٦٩ من النص : فيا أملاه من نقض التاج — انظر كذلك لوى ماسينيون ، نفس الكتاب ص ٦٣١

(١) انظر س . ت . و . أرنولد ، « المعتزلة » (طبعة ليپتسك سنة ١٩٠٢) ص ٥٢ س ٨

(٢) لعل هذا الكتاب يحتوى تراجم مشاهير الرجال من خراسان .

(٣) انظر نيبرج ، نفس الكتاب ص ٢٦ — وكذلك يرجع الجزء الموجود فى رسالة ابن القارح (انظر بعد ص ١٧٧ ، تعليق ٨) إلى نفس المصدر ، كما أبان ذلك كراكوفسكى (انظر بعد ص ١٧٧) ص ٧٢

الجدل فى كتاب خاص[١] .

٨ — وتبعا لابن المرتضى (انظر تيبرج ، الكتاب المذكور ، رقم ١٤) وابن الجوزى (نفس الكتاب ص ٣ س ٨) نقض أبو هاشم عبد السلام الجبائى (المتوفى سنة ٣٢١) « كتاب الفريد » على ابن الراوندى[٢] .

٩ — واتمد رد أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى مؤسس فرقة الأشعرية (توفى سنة ٣٢٤) على ابن الراوندى فى كتب كثيرة ، فى زعم الفهرست الموجود بكتاب « تبيين كذب المفترى » لابن عساكر[٣] ؛ انظر اشپتّا رقم ٣ ، رقم ٥ ورقم ٣٠ (على كتاب «التاج») ، رقم ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ . والمهم خصوصاً هو رقم ٧٢ الذى فيه يجعل الأشعرى نقطة الابتداء فى الرد على ابن الراوندى رداً للباخى (انظر قبل)[٤] . ومن هنا يتبين أن الأشعرى لم يرجع إلى الأصل على الأقل فى هذه الحالة ، وإنما إلى الرد .

١٠ — ولعل نفس كتاب ابن الراوندى هذا هو ما رد عليه أبو نصر الفارابى (توفى سنة ٣٣٩) ، تبعا لابن أبى أصيبعة (طبعة ا . مِلر ، ج ٢ ص ١٣٩ س ٧) ، فى كتابه : « كتاب الرد على ابن الراوندى فى أدب الجدل» . — أما ابن القفطى (« تاريخ الحكماء » ، طبع لِپّرْت ص ٢٧٩)

(١) انظر بعد رقم ٩ ، ١٠ ؛ كذلك مكس هورتن : «المذاهب الفلسفية ... ، ص ٣٨٤ ، غير أن هذه الرواية لا توضح لنا أى كتاب يقصد ؛ قارن لوى ماسينيون : نفس الكتاب ص ٥٧٨

(٢) انظر بعد ص ١٦٧

(٣) س . ف . اشپتا ، «من تاريخ أبى الحسن الأشعرى » (ليپتسك سنة ١٨٧٦) ص ٦٣ وما يليها — وقد طبع كتاب ابن عساكر فى دمشق منذ سنوات (دمشق سنة ١٣٤٧) . وفيه يرد فهرست كتب الأشعرى ص ١٢٨ وما بعدها .

(٤) العنوان الصحيح هو تبعا لاشپتا ، الكتاب المذكور ص ٧٦ : « كتاب نقضنا به على البلخى كتابا ذكر أنه أصلح به غلط ابن الراوندى فى الجدل » .

فيميز في الموضع المُناظِر عنواني كتابين : كتاب أدب الجدل ، وكتاب الرد على الراوندي (هكذا)[١] .

١١ — وتبعاً لـكتاب «الفهرست» (ص ٦٣ س ١٢) كتب أبو محمد ابن عبد الله بن جعفر بن درستويه (توفي بعد سنة ٤٣٠) النحوي البصري المشهور كتاباً عنوانه : « نقض كتاب ابن الراوندي على النحويين[٢] » .

١٢ — وأبو بكر محمد بن عبد الله البردعي الخارجي المعتزلي الذي تقابل مع ابن النديم سنة ٣٤٠ ألف من بين ما ألف كتابا اسمه : نقض كتاب ابن الراوندي في الإمامة[٣] .

١٣ — ويقول الفهرست ص ١٧٤ عن أبي عبد الله الحسين بن علي ابن إبراهيم المعروف بالـكاغدي (توفي سنة ٣٩٩) : وله من الـكتب كتاب نقض كلام الراوندي (هكذا !) في أن الجسم لا يجوز أن يكون مخترعا لا من شيء — ولعل المقصود هو الـكتاب رقم ٥ لدى نيبرج (ص ٣٢) تحت عنوان : لا شيء إلا موجود[٤] . وفي الجزء الثاني من نفس هذا الـكتاب (أو في كتاب آخر مستقل منه ؟) نقض المؤلف نقض الرازي لـكلام البلخي على الرازي .

١٤ — ويذكر ابن أبي أصيبعة (ج ٢ ص ٩٧ س ١٠) من بين كتب أبي علي محمد بن الحسن بن الهيثم (المتوفى سنة ٤٣٠) كتاباً اسمه : «مقالة لمحمد بن الحسن (بن الهيثم) في إيضاح تقصير أبي علي الجبّائي في نقضه

---

(١) انظر أيضا اشتينشنيدر ، « الفارابي » (بطرسبرج سنة ١٨٦٩ ص ١١٦ وما يليها .

(٢) انظر فيما يتعلق بهذا لوى ماسينيون ، «عذاب الحلاج» ص ٧٥٥ تعليق ٤

(٣) « الفهرست » (طبعة فليجل) ص ٢٣٧

(٤) انظر لوى ماسينيون ، «عذاب الحلاج» ص ٦٠٥ تعليق ٥ .

بعض كتب ابن الراوندى ولزومه ما ألزمه إياه ابن الراوندى بحسب أصوله وإيضاح الرأى الذى لا يلزمه معه اعتراضات ابن الراوندى » — ومن الطبيعى أنه لابد من قراءة « الجبائى » بدل «الحيانى» . ولو أن اسم كتاب ابن الراوندى الذى بدا لابن الهيثم فى رد الجبائى غير مذكور صراحة ، فإننا نستطيع استنتاجه : ففى فهرست كتب ابن الهيثم لدى بن أبى أصيبعة الذى يرجع إلى فهرست لابن الهيثم نفسه ، عنوان كتاب آخر يوضح لنا مركز ابن الهيثم بإزاء ابن الراوندى . فيقال فى س ٦ : « نقض محمد بن الحسن على أبى بكر الرازى المتطبب رأيه فى الإلهيات والنبوات » ؛ وفى س ٨ « كتاب له فى إثبات النبوات وإيضاح فساد رأى الذين يعتقدون بطلانها وذكر فرق النبي والمتنبى » . فكأن ابن الهيثم قام بإثبات النبوات هو الآخر ، ومن وجهة نظر فلسفية من غير شك . وليس كتاب الرازى الذى لابد أنه قد طعن فيه فى النبوات إلا الكتاب الذى ذكرناه له آنفاً والذى رد عليه أبو حاتم الرازى(١) وكذلك الحال فى كتاب ابن الراوندى الذى يذكر فى هذا المقام ماهو إلا كتاب الزمرذ ، والمعروف عنه أن الجبائى نقضه .

فكأن معرفة المتأخرين لا لكتب ابن الراوندى فحسب بل لكل ما يتعلق به كذلك إنما ترجع إلى الردود التى ألفت عليه فى عشية القرن الثالث الهجرى . وما يعرف عنه من ناحية حياته ومؤلفاته يرجع فى الجزء الأكبر إلى البلخى(٢) الذى يحتمل أن يكون قد تلقاه عن أستاذيه الخياط والجبائى . والفصل المطول الذى كتبه ابن الجوزى(٣) والذى كان مرجع المتأخرين أجمعين إنما أخذ جميعه تقريبا عن الكتب المتقدمة . حقاً إن ابن

(١) انظر قبل ص ١٢٧ . (٢) انظر ص ١٦٣ .

(٣) مجلة : « الاسلام » المجلد التاسع عشر (سنة ١٩٣٠) ص ٢ وما يليه .

الجوزى يذكر أنه قرأ بعض كتب ابن الراوندى فى أصولها (نفس الموضع ص ٢ س ٨ من النص العربى) ولكن ذكره بعد ذلك (ص ٣ س ٢) للردود على كتب ابن الراوندى هاتيك يكشف لنا عن مصادره التى استقى منها والتى نستطيع تعيينها فى شىء من الدقة : فهو يعتمد على رواية الجبائى كثيراً إذ ينسب إليه أقوالا عن محتوى ثلاثة كتب لابن الراوندى (ص ٤ س ٢٠ إلى ص ٥ س ٥)[١] . ولعلها كانت مذكورة فى مقدمة إحدى ردود الجبائى[٢] . وكذلك تبتدئ القطعة ص ٥ س ١٨ وما يليه بقوله : « قال أبو على الجبائى » . وهذه القطعة تتعلق بعلاقة ابن الراوندى بأبى عيسى الوراق[٣] وبالظرف الذى كتب فيه كتاب «الدامغ» . ولا نحسبنا مخطئين إن قلنا إن ابن الجوزى أخذها عن رد الجبائى على كتاب «الدامغ» . ومع أن ابن الجوزى من أول مقالته إلى آخرها يورد مختصرات عديدة من كتاب «الدامغ» ، فإنه لا يمكن أن تكون هذه مأخوذة عن مصدر آخر غير كتاب الجبائى[٤] .

---

(١) المذكور صراحة هو كتاب الزمرذ . والكتابان الآخران هما حقاً كتاب « التاج » الذى فيه يتكلم عن قدم العالم (انظر كتاب «الانتصار» ص ٢ ، ص ١٧٢ فى أسفلها ، وقارن كذلك قبل ١٠٧ من كتابنا هذا) ؛ وكتاب « الدامغ » الذى عمله ابن الراوندى فى زعم الجبائى نفسه لليهود (ابن الجوزى ، نفس الكتاب ص ٥ س ١٨ وما بعده) .

(٢) وكذلك يورد الخياط فى رده على « فضيحة المعتزلة » كتباً أخرى لابن الراوندى : انظر الانتصار ص ٢ وما يليها ، ص ١٥٥ ، ص ١٧٢ وما يليها ، لذلك يحتمل أن تكون شذرة الجبائى قد وجدت فى الرد على كتاب آخر غير كتب ابن الراوندى الثلاثة المذكورة .

(٣) وعلى هذا فربما كانت الفقرة ص ٣ س ٦ للجبائى — فيما يتعلق بالوراق انظر بعد ص ١٨١ تعليق ٢ .

(٤) وكذلك يورد ابن الجوزى « ص ٣ س ٢ » رداً للجبائى على كتاب « نعت الحكمة » ، ولهذا فربما كان الاقتباس المذكور ص ٥ س ١٤ وما يليه ، مأخوذاً عن هذا الكتاب .

أما عن أبى هاشم الجبائى فيقول ابن الجوزى (ص ٣ س ٨) إنه نقض كتاب « الفريد » على بن الراوندى . وعلى هذا فحينما تروى عن أبى هاشم (ص ٥ س ٦ وما بعده) فقرة من هذا الكتاب فإننا نكون هنا بإزاء شذرة مأخوذة عن رد . ومن المحقق أن الرد على زعم ابن الراوندى له أيضا (س ١١ وما بعده) .

والشائق خاصةً ما يقال عن كتاب « الزمرذ » نفسه . وليس من شك فى أن هذه الأقوال لا ترجع إلى النص الأصلى لكتاب ابن الراوندى ، وإنما هى مأخوذة عن رد الجبائى الذى يروى عنه كثيراً . والملاحظة الأخيرة (ص ٤ س ٢٠) التى قام بها الجبائى تؤدى بنا إلى القول بأن الاقتباسات الثلاثة السابقة من كتاب « الزمرذ » مع الردود عليها[1] هى أيضا له — ويذكر ابن الجوزى أن مصدر القطعة الكبيرة (ص ٣ س ٩ وما بعده) المتعلقة بمعنى عنوان كتاب « الزمرذ » (انظر شذرة رقم ٣١) ، هو ابن عقيل الحنبلى الذى صادفنا من قبل بمناسبة أخرى[2] . ولذا يعتمد بدوره على رد الجبائى مناقشاً لرأيه فى سبب تسمية كتاب « الزمرذ » بهذا الاسم .

لم يبق علينا الآن إلا مقدمة ابن الجوزى (ص ٢ س ١ — ٧) . وللمرء أن يشك فى أنها تقوم على حقائق تاريخية صحيحة . يدلنا على ذلك رواية عن أبى على التنوفى (توفى سنة ٣٨٤) الأديب . وما يذكر عن

---

(١) تأمل تقدير العلوم الدنيوية « العقاقير ، المغناطيس ، الطلسمات » وخصوصاً ص ٤ س ١٢ : « فكيف وقع هؤلاء الأنبياء بما خفى عن من كان أنظر منهم ! » ، ومثل هذا القول لا يمكن أن يصدر عن حنبلى متأخر ، وإنما يفهم على لسان معتزلى .

(٢) انظر قبل ص ١٤٤ .

(٣) انظر كذلك نيبرج ، الكتاب المذكور ص ٣٧ ؛ فيما يتعلق بخصائص أبى على التنوخى ، انظر لوى ماسينيون ، مجموعة من النصوص غير المنشورة *Recueil de Textes inédits* ، ص ٢١٧ ، وعلى الرغم من هذا فليس لنا أن نرفض إمكان كون =

اصل ابن الراوندى اليهودى نشعر فيه من الأثر بما نشعر به فيما نتكلم عنه فيما بعد من اجتماع الجبائى مع ابن الراوندى على جسر بغداد : فكلاهما يتصل بالأدب لا بالتاريخ .

وقد آن لنا الآن أن نرجع بعد هذا الاستطراد إلى الرد الاسماعيلى على كتاب «الزمرذ» . ويميل المرء إلى الاعتقاد باستخدام المؤلف لردود سابقة بوصفها وسطاء من حيث النص ، كميله للاعتقاد بصحة ما زعمناه من أن مؤيداً نفسه هو مؤلف الرد . غير أن البرهان على هذا أصعب من ذى قبل . فبينما لدى ابن عقيل نستطيع أن نبين ولو مرة فى حالة واحدة أنه بإيراده اقتباسات من كتاب « الزمرذ » قد أراد كذلك نقض النص الذى أمامه (وأعنى به فيما يظهر كتاب الجبائى)[1] ، نجد على العكس من ذلك أن الرد على ابن الراوندى فى الكتاب الإسماعيلى قائم بذاته ولا يكاد يرجع إلى مثال سابق عليه .

غير أنى أرى فى الشذرة رقم ١٠ مؤيداً لما زعمته . « فالخصم » الذى نحن بصدده هنا لا يمكن أن يكون إلا خصما أدبياً متوهماً قد حاول الرد على كتاب «الزمرذ» قبل مؤلف كتابنا هذا . وليس من المحتمل أن يكون مثبتى النبوة

= والد ابن الراوندى يهودياً ملحداً ، لكن من الغريب أن الروايات التى لدينا عن حياة ابن الراوندى تقول بأنه كان صديقاً لليهود ، وإليهم التجأ حينما طلبه السلطان ، ولهم كتب مصنفات ضد الاسلام (انظر ما أوردناه عن اليافعى ص ١٧٨ تعليق) وقد كان اليهود الذين طعنوا فى العهد القديم كما فعل ابن الراوندى فى القرآن ، كثيرين فى ذلك العصر ، أشهرهم حيوى (والأصح : حيويه) البلخى وكان معاصراً لابن الراوندى (كتب بين سنة ٨٥٠ — سنة ٨٧٥ ميلادية) ومتأثراً بالمانوية وعليه نقض سعديا كتابه ضد العهد القديم الذى ألفه بالعربية — انظر ا . دافدسون ، مناظرة سعديا لحيوى البلخى (نيويورك سنة ١٩١٥) ؛ ه . مالتر : سعديا ، حياته ومؤلفاته (فلادلفيا سنة ١٩٢١) ص ٢٦٧ وما بعدها ، ص ٣٨٤ وما بعدها .

(١) انظر قبل .

الذين يظهرون فى الشذرة رقم ٢ من كتاب الزمرذ كَرَادِّين على البراهمة . فقد كان هؤلاء حقاً فى عَرْض ابن الراوندى أولئك الذين هاجمهم البراهمة ودحضوا أقوالهم[١]. ولم يقم هؤلاء الخصوم المزعومون برد هجمات البراهمة ونقض مذاهبهم حقاً . إلا أن المؤلف الإسماعيلى يعيب على « خصم » ابن الراوندى أنه فهم آيات القرآن على النحو الذى فهمه هو فكانت الحجج المسوقة ضده من أجل ذلك ضعيفة[٢] « فمن حرص الخصم على الرد ساق تأويل المقامات القرآنية فى جملته غيرَ معتَبر ؛ وموضع العيب فى ذلك ظاهر » . ولا تحسبنا مخطئين إن حاولنا أن نرى فى « خصم » ابن الراوندى هذا معتزليا متقدما على المؤلف الإسماعيلى الذى حاول أن يصحح أدلته وبراهينه . ومعنى هذا أن مؤلف الرد لابد أن يكون قد عاش بعد ابن الراوندى بأجيال كثيرة .

٩ — تحليل الرد

أما أن أصلَ الرد إسماعيلى ، فذلك يتبين جيدا من أنه محفوظ فى كتاب مؤيد وأنه مذكورٌ صراحةً أن المؤلف أحد دعاة الإسماعيلية . إلا أن الذى يسترعى النظر حقا هو أن طابعه الإسماعيلى لا يتضح تمام الوضوح . إذ لا يبدو الداعى إلا كمسلم يدافع عن الإسلام ضد غارات الملحد غير كاشف عن ميل خاص واتجاه معين ، بل إنه ليتحدث عن الفرق الإسلامية المختلفة فى الدين بقوله : « إخواننا فى الدين » (ص ٨٠ س ٦) . ولا يشير إلى المذاهب الإسماعيلية إلا بطريق غير مباشر . والقارئ الذى لا يعرف

---

(١) انظر على وجه الخصوص قوله فى مبتدأ الشذرة رقم ٣ : « عندنا وعند خصومنا » .

(٢) وكذلك يقول ابن الهيثم ؛ انظر قبل ص ١٦٥ .

المؤلف من قبل سيدهش لما يجده لديه من تحفظ ملحوظ ولن يرى فيه إسماعيليا بسهولة . وليس الكتاب موجهاً إلى الذين دخلوا فى مذهب الإسماعيلية السرى وإنما قصد به إلى الجمهور ويراد به إدخال القارئ بلباقة فى التصوير الإسماعيلى للإسلام .

وهأنذا أورد فيما يلى تحليلا قصيراً لهذا الجزء من الكتاب المتعلق بالرد على ابن الراوندى مَعْنِياً بطابعه الإسماعيلى على وجه الخصوص :

لا يستطيع الإنسان أن يمارس بنفسه قوى العقل . فكما أن النار تظل كامنة فى الزناد أو الحجر أو الحديد حتى تجد لها من يقدحها[1] ، فكذلك الحال فى العقل الإنسانى يظل عديم الفعل (أى بالقوة) بالجملة حتى يوقظه إنسان . وهذا ما يفعله النبى . فهو يخرجه أولاً من القوة إلى الفعل . فإذا قيل إن العقل أعظم نعم الله على عباده فإن اسم العقل أولى بأن يكون للنبى[2] . فهو العقل بالفعل ، بينما العقل الإنسانى بالقوة فحسب . (ص ٨٠ س ١٥ وما يليه)

---

(١) انظر ماكس هورتن ، مذهب الكمون لدى النظام ، « مجلة الجمعية الشرقية الألمانية » ZDMG ، المجلد الثالث والستون « سنه ١٩٠٩ » ص ٧٧٤ ، غير أنه لم يبق هنا من معنى هذه الفكرة المحدود لدى النظام شىء ، ويرى المرء هذا خصوصاً وأن مؤسس مذهب « الكمون » (و « الظهور ») لم يرد به أكثر من تمثيله بفكرتى أرسطو فى القوة والفعل .

(٢) ص ٤ س ٤ : « فهم أولى بأن يسموا عقلا » ، وهنا يضع المؤلف فكرة العقل المعتزلية كلها لابن الراوندى فى مقابل توحيد الإسماعيلية للعقل مع فكرة العقل (νοῦς) لدى الأفلاطونية المحدثة ، والمعنى المعتزلى لكلمة عقل هو العقل الإنسانى العادى الذى يهاب به فى المسائل الدينية كمعيار ومقياس ، وهذا التقابل نفسه نجده لدى الفارابى فى مقالته « فى معانى العقل » (طبعة ديترتسى ، « مقالات الفارابى الفلسفية » ص ٣٩) : « اسم العقل يقال على أشياء كثيرة ... ... الثانى العقل الذى يردده المتكلمون على ألسنتهم ، يقولون : هذا مما يوجبه العقل وينفيه العقل الخ » . قارن كذلك الموضع المهم فى « رسائل إخوان الصفا » (طبعة بمباى) ج ٤ ص ١٦٤ .

والقول بأن الأنبياء هم عقل (العالم) قديم قدم الإسماعيلية نفسها . فمن هنا يراعى أن المؤلف يلمح إلى هـذا التشبيه دون أن يصرح به . كما يتبـيَّن طابع الـكتاب العلمى لا السرى .

والآلة الموسيقية تظل مادة ميتة حتى يستخرج منها المرء الأنغام . وعلى هذا النحو يحتاج الإنسان إلى الرسول كدليل وهادٍ إلى الإيمان بوحدانية الله (ص ٨١ س ٧ وما بعده) — وكذلك البصر لا يكون إلا بمساعد عليه (من ضوء شمس أو قمر أو مصباح الخ) . والرسول يمثل ضوء الأجرام السماوية فى هداية الناس إلى المعرفة . فهو « ذلك النور الخارج الحامل للعقل والمريش لسهمه والمنفذ له فى أقطار السموات والأرض » . (ص ٨١ س ١٨ وما يليه) .

ومثل هذه التمثيلات بين الآراء الطبيعية العلمية وبين حقائق النبوة كثير فى كتب الإسماعيلية . وهى تقوم على القول بأن ظواهر الحياة الدينية تنعكس على ظواهر الطبيعة . وفى هذا الموضوع وضعت مؤلفات كثيرة[1] تدل على الدور الذى لعبه العلم والفلسفة فى تأسيس الإسماعيلية[2]. ولـكن مؤلفنا يدع تفصيل القول فى هذا .

ونفس الرسول أسمى النفوس وجسمه أنبل الأجسام . لذا لم يكن غريبا أن يكون فى مقدوره إحداث المعجزات (ص ٨٧ س ١١ وما يليه). ونفسه تزن الخليقة كلها وبها كان فوق البشر أجمعين (ص ٨٨ س ٤ وما يليه)

---

(١) مثلا أبو يعقوب السجستانى ، كتاب « إثبات النبوة » ؛ أحمد حميد الدين الـكرمانى ، كتاب « راحة العقل » وغيره ؛ انظر كذلك مجلة : « الاسـلام » ، المجلد التاسع عشر (سـنة ١٩٣١) ص ٢٦١ .

(٢) كتب جابر ابن حيان ومقالات إخوان الصفا مؤلفات إسماعيلية ، فيما يتعلق بالأول انظر ى ، رسكا و ب . كراوس : « تهافت اسطورة جابر » ، فى « النشرة السنوية الثالثة لمعهد البحث فى تاريخ العلوم الطبيعية » ، برلين سنة ١٩٣٠

« وإن جسد الإنسان أكثره لحم وقلبه لحم يجانس جملة جسده باللحمية . غير أنه بيت الحياة والفضل ، وعنه تنتشر الحياة فى الجسد كله » . (ص ٩٤ س ١٨ وما يليه) .

والأنبياء فى سلم البشر الدرجة العليا . وفى الدرجة السفلى « قوم نسناس لهم من الإنسانية صورتها » فقط[١] — وفوق هؤلاء « قوم سكان جبال ومواضع غامضة ورعاة بقر وغنم ، وهم أصلح حالا فى قربهم من سكة العقل » — ثم « قوم هم عامة البلدان وهم أقرب حالا وقوم خواص — وقوم علماء وأخيار . فلا يزال الشيء يُخَلَّص ويَنْتَسِبك حتى ينتهى إلى الصفوة التى لا يشوبها الكدر وهم الأنبياء عليهم السلام الذين ... يقبلون على تابعيهم فى استخلاصهم من الكدر وإحالتهم إلى جوهر الصفاء ويؤثّرون فيهم تأثير الجمر فى الفحم الأسود بإحالته إلى جوهره وإفادته من نوره وتخليصه من سواده » . (ص ٨٣ س ١٧ وما يليه) — وطابع هذه الأقوال الإسماعيلى غير منكور .

وأوامر الشريعة التى تبدو مناقضة للعقل تجد تفسيرها فيما قصد الله إليه من تنشئة الناس . فكما أن الآباء يعملون على تنشئة أبنائهم النشأة الأولى « لقطع الأولاد عن العادة البهيمية وكسبها الأخلاق الإنسانية » ، يحاول الأنبياء أن يسلكوا « بتابعيهم الذين ينشئونهم النشأة الثانية[٢] للدار <الآخرة> مسلك الآباء والأمهات بأولادهم : فيخرقون عليهم العادات الطبيعية ويعلمونهم الأخلاق الملكوتية » . وعلى هذا فليس لأوامر الشرع

(١) انظر : « رسائل إخوان الصفا » جـ ٤ ص ١٢٣ .
(٢) انظر سورة ٢٩ : ١٩ ؛ ٥٣ : ٤٨ ؛ ٥٦ : ٦٢ ؛ وكذلك « رسائل إخوان الصفا » جـ ١ ص ٣٨ ، ٧٠ ؛ جـ ٢ ص ٣٦ ؛ جـ ٤ ص ١٣٠ .

معنى آخر غير خرق عادات الإنسان الطبيعية وتذكيره دائما بصلته بالله .
والراسخون فى العلم يدركون معناها ويمارسونها عن معرفة وبصيرة .
(ص ٩٩ س ٢٤ وما يليه) .

كذلك يقف مؤلف الرد موقفاً نقدياً بإزاء المعجزات ، ولكن ليس ذلك لقوله بعدم إمكانية صدور المعجزات عن نفوس ممتازة كنفوس الأنبياء ، بل لأنه يرفض إثبات صحة النبوة عن طريقها . إذ لا يحتاج إلى مثل هذه المعجزات إلا ضعاف الإيمان . أما من هم على شاكلة سلمان الفارسى[1] وخديجة الخ ، فيؤمنون بالأنبياء دون حاجة إليها . ويجب علينا أن نفرق تفريقاً تاماً بين هذه المعجزات وبين « المعجزات العلمية » ، فهذه الأخيرة أسمى بكثير من الأولى ، وبها تعتبر صحة النبوة . مثل هذه المعجزات ما قاله المسيح عن محمد . (ص ٨٧ س ١ وما يتلوه ؛ كذلك ص ٩١ س ١ وما يليه) .

وعلى هذا النحو جاءت فكرته الخاصة عن عقيدة إعجاز القرآن[2] ، تلك الفكرة التى لا نجد لها مثيلا فى كتب الكلام الكثيرة عن هذا الموضوع[3] . فلقد اقتصر معنى إعجاز القرآن من قبل على إعجازه من ناحية نظمه وتأليفه . وهذا ما طعن فيه ابن الراوندى . أما مؤلف الرد فيتخذ نغمة أخرى : أما أن نظم القرآن لا يمكن مخلوقاً أن يبلغه ، فقد يكون ذلك صحيحاً (ص ٨٨

(١) ما يقال من أن سلمان ، ولو أنه غير عربى ، لم يتخلف الهجرة من بعيد إلى الرسول وإنه أقرّ به قبل غيره من الناس (ص ٨٧ س ٦ وما يليه ؛ ص ٩١ س ١) ، من المحتمل أن يكون مأخوذاً فى غالبيته من الشيعة ؛ انظر الآن لوى ماسينيون ، سلمان الفارسى (« نشرات جماعة الدراسات الايرانية » ، المجلد السابع ، تور سنة ١٩٣٤) .

(٢) انظر قبل ص ١٢١ وما يليها .

(٣) أشير هنا بنوع خاص إلى بحث عبد العليم المشار إليه ص ١٢١ تعليق ١ .

س ١٣) ، ولكن « الكلام ألفاظ مقدّرة على معان[1] ملائمة لها . والكلام كالجسد والمعنى فيه روحه . ومعلوم أن الأجساد من حيث كونها أجساداً لا تتفاوت تفاوتاً كثيراً ؛ فإنها وإن رجح بعضها على بعض من حيث استقامة النظم وحسن الهندام فهو أمر قريب ؛ وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس التى هى المعانى . فإن نفساً واحدة تقع بوزان الخلق كلهم من حيث افتقار النفوس إليها ، والحاجة إلى الامتياز منها . والقرآن فهو كلام بمثابة الجسد ، ومعناه روحه الذى كنى الله سبحانه <عنه> بالحكمة » . (ص ٨٧ س ١٩ وما يليه) — وأساس هذه النظرية الذى لا يصرح به المؤلف هو مذهب الإسماعيلية فى « الظاهر » و « الباطن » أى التفريق بين معنى القرآن الظاهرى ومعناه الباطن (« أو الحقيقة » ، المسماة هنا بالحكمة) . والأول يتم « بالتفسير » والثانى « بالتأويل »[2] . « وهذا من جلالة النبوة والنبي صلى الله عليه وآله : بأن يتكلم بلسان واحد فيأخذ منه العقل بنصيبه » (ص ٩٣ س ١٧ — ١٨) .

وفى التفاصيل يعرض لنا المؤلف فى صورة واضحة تحفظاً واحتياطاً ذوا طابع إسماعيلى خاص . فهو يدع عن قصد المعنى الخاص الذى يعطيه للآية ٨٨ من سورة البقرة ، ويرفض نقض تفسير ابن الراوندى عليه نقضاً صريحا . وهو ، ولو أنه يرفض القول بأن للملائكة أجساداً (ص ٩٤ س ١ وما بعده) فإنه يقول إن فى ذكر الملائكة أسراراً للحكمة (الإلهية) ممنوعة عن العوام (فى مقابل الخواص ، ص ٩٣ س ١٢) . وكل ما يقال عنها إنما هو « رموز » فحسب .

---

(١) قارن « رسائل إخوان الصفا » (بمباى) جـ ١ ب ص ١١١ .

(٢) ونصادف هذا التفريق بين الظاهر والباطن ص ٨١ س ١٨ وما يتلوه .

وليس مصادفة أن نرى الرد على الملحدين الذين يجحدون الإسلام خاصة والأديان المنزلة عامة ، يلعب دورا هاما هكذا فى الكتب الإسماعيلية الفاطمية التى تبعث اليوم . فإلى جانب هذا الكتاب الموضوع ضد ابن الراوندى يوجد رد على كتاب إلحادى لمحمد بن ذكريا الرازى الطبيب الفيلسوف[١] الذى أشرنا إليه مراراً من قبل ، وكذلك رد آخر على كتاب «الاسترشاد» الملحد لم يكن معروفا من قبل هو الثغورى[٢] . وهذا لأن الإسماعيلية التى نشأت عن حركة القرامطة المضادة ، وجدت نفسها مضطرة ، حينما كانت عماد الإسلام فى الدولة الفاطمية ، إلى محاربة هذه التيارات التى كانت على صلة بها قريبة فيما قبل .

١٠ — من حياة ابن الراوندى

لم تظهر شخصية من شخصيات التاريخ الروحى الإسلامى المتقدم تحت ضوء جديد بتأثير اكتشافات السنين الأخيرة كما ظهرت شخصية ابن الراوندى . لذا كان من الواجب تقدير قيمته وتعيين صلته بمعاصريه وتبيان تطوره الروحى وبواعث تفكيره على ضوء المواد الغزيرة التى اكتشفت عنه . وما سنذكره فيما يلى ليس إلا مقدمة لدراسة تفصيلية لابن الراوندى لابد أن تبتدأ من تحليل دقيق لكتاب «فضيحة المعتزلة» لابن الراوندى[٣]

(١) انظر قبل ص ١٢٧ .

(٢) نص هذا الكتاب موجود أيضاً فى المجلد الخامس من المجالس المؤيدية (مجلس رقم ٤٠١ — ٤١٤) ؛ انظر قبل ص ٢٨ ، ونشتغل ، حسين الهمدانى وأنا ، بنشر هذا الكتاب .

(٣) ما أورده ماكس هورتن فى كتابه : «المذاهب الفلسفية لأهل النظر من المتكلمين فى الإسلام» (بون سنة ١٩١٢) ص ٣٥٠ ، مشكوك فيه كل الشك ، (انظر على العموم أقوال هـ . هـ . شيدر فى مجلة المستشرقين الأدبية OLZ سنة ١٩٢٧ ، ٨٣٤ وما يتلوها) . فهو يزعم ، من بين مايزعم ، أن الكتاب الذين ردوا على ابن الراوندى هم هؤلاء الذين كتب ابن الراوندى ضدهم .

ولقد أورد نيبرج فى مقدمته لكتاب « الانتصار » روايات متعلقة بابن الراوندى مأخوذة عن «الفهرست» لابن النديم[١]، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان[٢]، و«معاهد التنصيص» لعبدالرحيم العباسى[٣]، وكتاب «المُنْية والأمل» لابن المرتضى[٤]، و«مروج الذهب للمسعودى»[٥]. لكن ظهرت بعد ذلك مصادر أخرى : أولها الفصل الطويل الذى كتبه ابن الجوزى فى كتابه « المنتظم فى التاريخ »[٦] ؛ وثانياً ملاحظات عرضية لنفس المؤلف فى كتابه «تلبيس إبليس»[٨]؛ وثالثاً جزء فى «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى بحثه ا . كرا كوفسكى فى تفصيل[٨]. وقد وصل نيبرج فى عرضه النقدى

---

(١) أعنى قطعة « الفهرست » التى نشرها م . ت . هوتسما فى : « مجلة فينا لمعرفة الشرق WZKM » ص ٢١٧ ومابعدها .[وقد نشرت فى الطبعةالمصرية «للفهرست» ، ص ٤ — ص ٥ ؛ القاهرة سنة ١٩٢٩]

(٢) طبعة بولاق سنة ١٢٧٥ جـ ١ ص ٣٨ وما بعدها .

(٣) طبعة بولاق سنة ١٢٧٤ جـ ١ ص ٧٦ .

(٤) «المعتزلة : فصل من كتاب الملل والنحل للمهدى لدين أحمد بن يحيى بن المرتضى» ، طبع توماس أرنولد ، ليبتسك سنة ١٩٠٢ .

(٥) «مروج الذهب» للمسعودى ، طبع وترجمة باربييه دى مينار «باريس سنة ١٨٧٣» جـ ٧ ص ٢٣٧ .

(٦) نشره رتر ، مجلة «الاسلام» المجلد التاسع عشر سنة ١٩٣٠ ص ١ وما بعدها .

(٧) القاهرة سنة ١٣٤٠ ص ٧٢ ، ١١٨ وما بعدها ، حيث يشار صراحة إلى كتاب « المنتظم فى التاريخ » لابن الجوزى ؛ انظر قبل ص ١٤٦ .

(٨) وثيقة منسية عن كتب ابن الراوندى *(Comptes rendus de l'Académie des Sciences de U. R. S. S., 1926, B. p. 71—74)* انظر طبعات رسالة الغفران لإبراهيم اليازجى (القاهرة سنة ١٩٠٣)، ص ١٥٧ ومابعدها ؛ لكامل كيلانى (القاهرة سنة ١٩٢٥) جـ ٢ ص ٧٠ وما بعدها . (وفى هذا الأخير النص مختصر) ؛ غير أن رسالة ابن التاج مطبوعة فى الجزء الثالث (انظر «المقتبس» ، المجلد الخامس ص ١٥ـ) وهى التى ترد عليها رسالة الغفران . وفى رسالة ابن القارح جزء متعلق بابن الراوندى ، (طبعة كامل كيلانى جـ ٣ ص ١٥) . ولقد أشار إلى هذا الموضع المرة الأولى ر . ا . نكلسون فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٢ ص ٢٥٥ ، =

لهذه الروايات إلى هــذه النتيجة ، وهى أن موت ابن الراوندى كان حوالى

= انظر كذلك ص ٨٣ . وكذلك انظر اجناتس جولدتسيهر : اتجاهات تفسير القرآن » (ليدن سنة ١٩٢٠) ص ١٢٠ تعليق ١ ؛ لوى ماسينيون ، عذاب الحلاج ص ١٤٨ تعليق ٥ — ولقد بحث هـ . جوتشالك فى مجلة : الإسلام ، المجلد التاسع عشر (سنة ١٩٣١) ص ٢٨٢ وما بعدها ما رواه المؤرخون المتأخرون عن ابن الراوندى وهو لا يكاد يحتوى على شيء جديد . انظر كذلك جولدتسيهر ، شريعة السبت فى الإسلام فى : « كتاب تذكارى مقدم لداقد كوفمان » (برسلاو سنة ١٩٠٠) ص ١٠١ تعليق ١ [إشارة إلى الهمذانى ، « رسائل » ، استامبول سنة ١٢٩٨ ص ٨ ؛ وفخر الدين الرازى « نهاية الإيجاز » ، طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ ص ١٦٤ — ١٦٦] ؛ ك . أ . نلينو ، فى « مجلة الدراسات الشرقية » المجلد السابع ص ٤٢١ وما بعدها ؛ هـ . رتر ، مجلة : « الإسلام » المجلد الثامن عشر (سنة ١٩٢٩) ص ٣٧ وما بعدها — ولم أر الموضع الموجود لدى ابن شاكر الـكتبى عن ابن الراوندى فى كتابه « عيون التواريخ » (طبعة ليدن سنة ١٩٢٧) [انظر هوتسما ، مجلة ڤينا لمعرفة الشرق المجلد الرابع ص ٢٢٩] . وهأنذا أورد فيما يلى الفصل الذى كتبه اليافعى عن ابن الراوندى فى كتابه « مرآة الجنان » الذى له أهمية خاصة لأنه يضع تاريخ موته سنة ٢٤٣ (وهذا شاهد آخر على أن موت ابن الراوندى كان متقدماً) ولأنه يحتوى على شذرات من كتاب ألفه ابن الراوندى لليهود من غير شك (انظر قبل ص ١٥٧) [مخطوطة برلين رقم 4952, fol. 159a (= B) ؛ مخطوطة باريس 1589, fol. 196b (= P)] : وفى السنة المذكورة (سنة ٢٤٣) توفى ابن الراوندى أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندى ، وله مقالة فى علم الـكلام وينسب إلى الزيغ والإلحاد ، وله مائة وبضع عشرة (حذف من : B) كتابا ، وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الـكلام . قال ابن خلـكان بعد ما أثنى على فضله : وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الـكلام فى كتبهم . قال : وكان من فضلاء عصره ومن تصانيفه كتاب « فضيحة المعتزلة » . قلت : وهو إن رد على المعتزلة وأصحابنا ينسبونه إلى ما هو أضل وأفضح من مذهب المعتزلة ! عاش نحواً من (نحو : B) أربعين سنة ونسبته إلى راوند قرية من قرى قاسان ... ... قلت : وذكر أصحابنا فى باب النسخ (الشنع فى مواضع متفرقة من B) من كتب الأصول أنه هو الذى لقن اليهود الاحتجاج على عدم جواز النسخ بزعمهم بنقل مفرى (مقرى : B) بأن قال لهم : قولوا إن موسى عليه السلام أمرنا أن نتمسك بالسبت ما دامت السموات والأرض ، ولا يجوز أن يأمر الأنبياء إلا بما هو حق . وهذا القول بهت وافتراء على موسى صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى جميع النبيين والمرسلين » . وفى هامش مخطوطة باريس : =

سنة ٣٠٠ ﻫ . ولكنا سندلى فيما بعد بدليل على أن نشاط ابن الراوندى لم يتعد منتصف القرن الثالث .

وليست الإجابة على السؤال عن تاريخ موت ابن الراوندى عديمة الأهمية . ولو كانت المسألة متعلقة بمؤلف من عصر متأخر عن ذلك بكثير إذاً لكان سواء أن نضع تاريخ موته ثلاثين أو أربعين سنة قبل أو بعد . ولكن ابن الراوندى عاش فى ذلك القرن الحاسم من تاريخ الإسلام الذى فيه تحدث كل عشر سنوات تغيراً هائلا فى الموقف الروحى . فإن كان كتاب «الزمرذ» كتب قبل سنة ٢٥٠ ، فمكانته فى تاريخ الإلحاد فى الإسلام هى تلك التى يتطلبها تبعاً لشكله وأسلوبه ، فلن يكون لمثل هذا الكتاب — الذى كان أثره من الناحية الخطابية أكثر منه من الناحية البرهانية ، فى نهاية القرن الثالث ، حينما اتسعت دائرة مقاومة مبادئ الإسلام ، وقامت حركة التنوير على أيدى القرامطة والفلاسفة والصوفية — ذلك الأثرُ الذى كان له فى الواقع ، ولن يكون له ذلك الصدى الذى أثاره فى دوائر الإسلام السُّنى . وهأنذا أقتصر فيما يلى على إيراد آراء نيبرج فى اختصار مشيراً فى كل جزئية إلى كتابه .

يذكر المسعودى[1] أن تاريخ وفاة ابن الراوندى هو سنة ٢٤٥ ﻫ ويتفق معه ابن خلكان الذى يقول عنه إنه مات حوالى سنة ٢٥٠ وهو فى سن الأربعين . أما ابن عقيل، وهو مصدر ابن الجوزى، وكذلك عبد الرحيم

= « سيأتى ذكر ابن الراوندى وأنه مات فى حدود الثلثمائة ، وهذا اضطراب عجيب فليحرز » . وتحت سنة ٣٠٠ فى نهايتها (P. fol. 227b) مقال قصير عن ابن الراوندى لا يأتى بجديد (وهو مختصرات عن ابن الجوزى) .

(١) « مروج الذهب » ، الجزء السابع ص ٢٣٧ — وكذلك اليافعى ، انظر التعليق السابق .

العباسى بوساطة الأخير ، فيحدد عمره بمقدار ٣٦ سنة[١] . كذلك يذكر فى كتاب « تلبيس إبليس » صراحة : « وأُخِذَ وهو فى الشباب »[٢] .

وعلى العكس من ذلك يذكر باقى المؤلفين تاريخ موته المتأخر : فابن الجوزى نفسه يضعه فى كتاب « المنتظم فى التاريخ » تحت سنة ٢٩٨ ؛ ويوجد هذا التاريخ نفسه فى « معاهد التنصيص » الذى يعتمد على ابن الجوزى ، وتبعا لذلك يكون عمر ابن الراوندى قد نيف على الثمانين ؛ وحاجى خليفه[٣] يذكر أنه مات سنة ٣٠١ . وكذلك تقول الروايات لدى أبى الفداء وأبى المحاسن بن تغرى بردى[٤] . والقول الحاسم عند نيبرج فى تأخير موته يبدو أنه ما فعله ابن المرتضى من وضع ابن الراوندى فى الطبقة الثامنة من بين المعتزلة ، أعنى بجعله معاصراً للجبائى (المتوفى سنة ٣٠٣) وللخياط ولأبى القاسم البلخى (المتوفى سنة ٣١٩)[٥] .

ونجد مثل هذا التناقض كذلك فى الروايات المتصلة بعلاقته بالجبائى . فمن جهة يقول كتاب « المنتظم »[٦] (وتبعاً له كتاب « معاهد التنصيص »[٧]) رواية عن أبى على الجبائى ، إن ابن الراوندى وأبا عيسى الوراق قد طلبهما السلطان ولكنه مات بعد ذلك بقليل . ومن جهة أخرى يذكر صاحب

---

(١) واختلاف القراءة الذى يثبته رتر وهو رقم ٦٦ (نفس الموضع ص ٩) يجب أن يلغى .

(٢) ص ١١٨

(٣) انظر نيبرج ، الكتاب المذكور ص ٤٠

(٤) س . ه . جوتشالك Gottschalk ، مجلة : الإسلام ، المجلد التاسع عشر (سنة ١٩٣١) ص ٢٨٢

(٥) نيبرج ، مقدمة « الانتصار » ص ٢٩

(٦) مجلة : الإسلام ، المجلد التاسع عشر (سنة ١٩٣٠) ص ٥ س ١٨ .

(٧) نيبرج : الكتاب المذكور ص ٣٩

كتاب « معاهد التنصيص » ، الذى لا نعرف له مصدراً فى ذلك ، أن ابن الراوندى اجتمع هو وأبو على الجبائى يوماً على جسر بغداد وتناظرا فى إعجاز القرآن[١] . فإذا كان أبو عيسى الوراق ، وذلك ما تؤيده روايات كثيرة ، قد مات سنة ٢٤٧[٢] ، فإن كلام الجبائى عن موت ابن الراوندى

---

(١) نيبرج : الكتاب المذكور ص ٣٧

(٢) « مروج الذهب » ، ج ٧ ص ٢٣٦ — فيما يتعلق بأبى عيسى الوراق انظر مجلة : الإسلام ، المجلد الثامن عشر (سنة ١٩٢٩) ص ٣٥ وما بعدها ؛ نيبرج الكتاب المذكور ص٢٠٥ . ويورد لوى ماسينيون فى كتابه : «مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف فى الإسلام» (باريس سنة ١٩٢٩) ص ١٨٢ وما بعدها ، شذرات من نقض المسيحية لأبى عيسى ، وهى محفوظة فى رد يحيى بن عدى عليها (انظر ، ا . پرييه Périer ، يحيى بن عدى ، فيلسوف عربى نصرانى فى القرن العاشر ، باريس سنة ١٩٢٠ ص ١٥٠ وما بعدها) وتاريخ وفاته المذكور هناك وهو سنة ٢٩٧ هـ ناشىء عن خطأ من غير شك (كذلك پرييه ، الموضع المذكور) . ولقد ساق هـ . هـ . شيدر الدليل على أن اليعقوبى المؤرخ (كتب حوالى سنة ٢٧٠) اعتمد على أبى عيسى الوراق فى عرضه لمذهب المانوية ، فكأنه كان قبل اليعقوبى [حاشية : نبهنى الأستاذ ماسينيون إلى الفصل القيم الذى كتبه عن أبى عيسى الوراق محمد بن محمد داماد الحسينى فى كتابه « الرواشح السماوية فى شرح الأحاديث الإمامية » (طبع حجر ، طهران سنة ١٣١١ هـ ؛ قارن بروكلمان جـ ١ ص ١٨٧) ص ٥٥ وما بعدها] وهنا كذلك (عن فخر الدين الرازى والسيد المرتضى) يذكر ابن الراوندى بجانب أبى عيسى الوراق : «وقال السيد المرتضى فى كتاب «الشافى» : إنه رماه المعتزلة مثل ما رموا ابن الراوندى القاضى » . وهذا خلط بابن الراوندى القاضى (انظر السمعانى ، كتاب «الأنساب» ، سلسلة جب التذكارية، المجلد العشرون ، ورقة ٢٤٥ ا). ومن المهم أن يذكر النجاشى (« كتاب الرجال » ، بمباى سنة ١٣١٧ ص ٨٤) أن أبا عيسى الوراق كان معاصراً لرواى ثبيت بن محمد أبى محمد العسكرى الإمامى . وهذا ينسب إلى النصف الأول من القرن الثالث . ومن الشائق أيضا أن أبا عيسى كان يعد شخصاً مرضياً عنه عند فى سنة الإمامية — قارن أيضا ابن تيمية ، كتاب « منهاج السنة النبوية » (بولاق سنة ١٣٢٢) جـ ٣ ص ٢٠٧ . وقد تكلم حديثا عن أبى عيسى فى تفصيل عباس إقبال فى كتابه : « آل نوبخت » Les Nawbakht (طهران سنة ١٩٣٣) ص ٨٥ وما بعدها . وهناك كذلك (ص ٨٧ وما يليها) ترجمة لابن الراوندى .

برهان على تقدم موت ابن الراوندى ، بينما تستدعى الرواية الأخرى عن اجتماع ابن الراوندى مع الجبائى أن يكون ابن الراوندى قد مات متأخراً .
والبحث فى تاريخ وفاة ابن الراوندى لا بد أن يبتدأ من شخصية أبى عيسى الوراق الذى لا يذكر عبثاً إلى جوار ابن الراوندى فى روايتى الجبائى والمسعودى[١] . وأبو عيسى الوراق هو الملحد المبطن المانوية المشهور كما يقول الخياط بذلك صراحة فى مواضع كثيرة (ص ٩٧ ، ١٥٣ ، ١٥٥) . وكان أستاذاً لابن الراوندى والدافع له على الإلحاد الصريح ؛ وكما سنبين فى بعد ، ابتدأ ابن الراوندى تآليفه الإلحادية فى السنين الأخيرة من حياته ، تلك التآليف التى لهـا يدين بأهميته وخطورة شأنه . ولا يمكن أن يقع موت أحدهما بعيداً عن موت الآخر بمقدار ٥٠ سنة ، وعلى ذلك فإن القول المروى عن الجبائى متعلقا بموتهما يستحق كل تصديق . ولعل الرواية الآتية ترجع إلى الجبائى أيضا وهى : « وقد كان ابن الريوندى وأبو عيسى محمد بن هارون الملحد أيضا يتراميان بكتاب الزمرذ ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه . وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن »[٢] والرواية القائلة بأن عمره نيف على الثمانين تبدو ثانوية بإزاء الرواية الصحيحة غير المطعون فيها التى تقول إن عمره كان ٤٠ سنة تقريبا . أما تاريخ مولده (حوالى سنة ٢١٠) فثابت لدى جميع المؤلفين . والذين يقولون إنه مات حوالى سنة ٣٠٠ يضطرون ، تحاشيا للتناقض ، إلى جعل سنه ثمانين سنة أو أكثر[٣] .

---

(١) يذكر المسعودى موتهما الواحد تلو الآخر .

(٢) انظر شذرة رقم ٢٦ — ولقد أبنا من قبل (ص١٦٨) أن جزءاً كبيراً مما ذكره ابن الجوزى عن ابن الراوندى يرجع إلى ردود الجبائى التى كان ابن عقيل وسيطا لها . وهذا صحيح خصوصا فيما يتعلق بما يذكر عن كتاب الزمرذ .

(٣) ويقول أبو المحاسن إنه عاش ٨٦ سنة . انظر *Der Islam*, XIX, p. 222

فإذا كان ابن الراوندى قد مات سنة ٣٠٠ وهو ابن أربعين ربيعا ، إذاً لما عاصر أبا عيسى الوراق . من أجل هذا كله كان موت ابن الراوندى سنة ٢٥٠ تقريبا ، وليس علينا بعد إلا أن نفسر كيف وُضِع تاريخ موته المتأخر.

هناك ثلاثة براهين يسوقها نيبرج[1] لإثبات صحة التاريخ المتأخر :

١ — « إن صح أن ابن الراوندى اجتمع مع أبى على الجبائى فلا بد أن نقطع بأنه عاش فى النصف الأخير من القرن الرابع ، ومستحيل أنه قد مات حول سنة ٢٥٠ ﻫ ، إذ الجبائى توفى سنة ٣٠٣ ﻫ ؛

٢ — عده ابن المرتضى من الطبقة الثامنة وهى طبقة الجبائى والخياط والكعبى ؛

٣ — ثبت من كتاب « الانتصار » أن ابن الراوندى ذكر أبا زفر وأبا مجالد فى كتابه « فضيحة المعتزلة » ونقض كلامهما (راجع ص٦١ و ص ١٠٢ — ١٠٣) ؛ وأبو زفر وأبو مجالد من الطبقة الثامنة أيضا ، فكيف يمكن ذلك لو مات ابن الراوندى حول سنة ٢٥٠ ﻫ أى قبل الجاحظ بقليل ، أى فى زمان أهل الطبقة السابعة ؟ » .

ولنبدأ بالبرهان الأخير . إن هذين الشخصين بعينهما اللذين يذكرهما نيبرج يدلان دلالة واضحة إلى أى حد كان تقسيم ابن المرتضى لطبقاته غير موثوق به تمام الوثوق ولو أن كتابه لا غنى عنه فى تاريخ المعتزلة . فنحن هنا بصدد متكلمين غير معروفين تماما فى كلتا الحالتين . أما أبو زفر فقد روى (تبعا لكتاب « الانتصار » ص٦١) عن هشام الفُوَطى المذكور فى الطبقة السادسة ، وكان معاصراً للمأمون (١٩٨ — ٢٩٨) . وفى كتاب « المنية والأمل » ص ٥٤ يضع ابن المرتضى أبا زفر فى الطبقة الثامنة حقا ،

---

(١) الكتاب المذكور ، ص ٤٠

ولكنه فى ص ٤٤ يقول صراحة إن أبا زفر رأى الهذيل (العلاف) وأبا موسى (المردار) وصالح الإسوارى شخصيا . أما ثالث هؤلاء فغير معروف[١] . وأما المردار فيذكره ابن المرتضى فى الطبقة السابعة وهو تلميذ بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢١٠) ومات أبو هذيل سنة ٢٢٥ أو سنة ٢٣٥ وقد أشرف على المائة . فلا يمكن أن يعد فى الطبقة الثامنة إذاً ، إلا إذا كان قد مات فى نهاية القرن الثالث . غير أن الروايات لا تقول لنا شيئا عن عمره وإلى أى زمن امتد نشاطه كأستاذ وكاتب . فطريقة ابن المرتضى هى أن يرتب المعتزلة تبعا لتاريخ موتهم لا تبعا لعصر ازدهارهم .

وهكذا الحال فيما يختص بأبى مجالد . فهو كذلك منسوب إلى الطبقة الثامنة[٢] كما ذكر نيبرج[٣] ، وقد أخذ عنه الخياط . ولكن يذكر من جهة أن أبا مجالد كان صاحبا (لا تلميذاً ؟) لجعفر بن حرب وجعفر بن مبشر وأبى موسى المردار ، ومن جهة أخرى يذكر ، بعد أن قال إن الخياط قد أخذ عنه ، ما يأتى صراحة : «وأخذ عنه أبو الحسين الخياط وإن < كان > من أصحاب من تقدم » ، أى من الطبقة السابقة (ص ٤٠ س ٥) . ولا تفهم هذه العبارة إلا على أن الخياط كان تلميذاً له وهو صغير . وعلى هذا فإذا ما ذكر أبو زفر وأبو مجالد فى « فضيحة المعتزلة » فلا يدل ذلك على أن تأليف هذا الكتاب كان متأخراً . ويقول الخياط نفسه[١] إن ابن الراوندى كان يكذب على الأحياء من المعتزلة .

وبهذا النقد لتقسيم ابن المرتضى للطبقات تسقط حجة نيبرج الثانية

---

(١) ويجب أن يُفرق بينه وبين أبى على الأسوارى المعتزلى المشهور .
(٢) الكتاب المذكور ص ٤٩ فى أعلاها .
(٣) ص ٢٠٧

أيضاً . ولقد عاش ابن المرتضى (المتوفى سنة ٨٤٠ هـ) فى عصر ساد فيه التاريخ المتأخر لموت ابن الراوندى ، ذلك التاريخ الذى يمثله ابن الجوزى أعظم تمثيل (توفى ابن الجوزى سنة ٥٩٧ هـ) . ولهذا السبب عد ابن الراوندى فى الطبقة الثامنة التى هى طبقة الخياط والجبائى .

أما الأخذ بالرواية التى تقول بأن الجبائى اجتمع مع ابن الراوندى على جسر بغداد والتى لا تقوم على مصدر قويم موثوق به ، كما أنها ما يقوله ابن الجوزى عن موت ابن الراوندى ، الذى يعتمد على رواية الجبائى (برهان نيبرج الأول) — فلا محل له . ومحاولة نيبرج[٢] إثبات أن العبارة الأخيرة من هذه الرواية مضافة وليست أصلية ، قليلة الاحتمال والقبول . إذ يظهر جليا من كتاب « المنتظم فى التاريخ » أن ابن الجوزى كانت لديه حقا كتب الجبائى أو ما كتبه ابن عقيل[٣] ، وأنه اقتبس منها حرفيا .

ولنتأمل قليلا ما يقال من اجتماع ابن الراوندى مع الجبائى على جسر بغداد . وهى رواية يذكرها صاحب كتاب « معاهد التنصيص » دون أن يذكر الراوى أو المصدر الذى عنه أخذ . وكان الحديث بينهما دائراً على مسألة إعجاز القرآن من الناحية اللفظية ، تلك المسألة التى هاجمها ابن الراوندى كثيراً . ولكن ابن الراوندى يبدو هنا متقهقراً أمام حجج الجبائى مخلياً له الميدان . وأسلوب هذه الرواية يدل صراحة على عدم صحتها . فهى أدب[٤] بحت . وإنا لنعرف جيداً كم اخترع أدباء القرن الرابع الهجرى[٥] . ولا بد

(١) كتاب الانتصار ص ٩٧

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٢

(٣) انظر قبل ص ١٦٨

(٤) فيما يتعلق بمخترعها الذى زعمناه انظر قبل ص ١٦٨ — ١٦٩

(٥) انظر على الخصوص زكى مبارك : « النثر الفنى فى القرن الرابع » ، طبعة باريس سنة ١٩٣١ ص ١١٨ وما يليها .

أن تـكون قد نشأت عما هو معروف من أن الجبائى كان خصما لدوداً لابن الراوندى وأنه نقض عليه كتاب « الدامغ » الذى يطعن فيه ابن الراوندى على القرآن . ولهذا وَضعت هذه الطُّرْفَة كلا منهما ضد الآخر .

ومعظم ما عرفه المتأخرون عن ابن الراوندى مأخوذ مما كتبه الجبائى ضده . ومن هنا نشأ الاستنتاج الخاطىء أن ابن الراوندى كان معاصراً ومن سنّه . ولعل هذا هو السبب فى وضعهم وفاة ابن الراوندى قريبة من وفاة الجبائى (٣٠٣ هـ) .

ولنقارن الآن فى إيجاز صورةَ ابن الراوندى كما تظهر فى كتاب « الزمرذ » بتلك الصورة التى تعطينا إياها الروايات المذكورة عنه وخصوصا كتاباه اللذان حفظا لنا على الأقل جزئيا ، وأعنى بهما كتابى « فضيحة المعتزلة » وكتاب « الدامغ » . أما الأخير ومجموعة أخرى من الكتب الإلحادية ذكرها نيبرج (ص ٣٣ وما بعدها) فيتصلان اتصالا وثيقاً بكتاب « الزمرذ » ، بينما يبدو ابن الراوندى فى كتاب « فضيحة المعتزلة » خصما للمعتزلة ولكنه مازال مُسْلماً بعد . ولقد شوه الخياط فى رده على هذا الكتاب صورة تطور ابن الراوندى الروحى ، حينما — عن حق بالطبع فى بعض الأحيان — استخدم كتبه الإلحادية ضد كتاب « فضيحة المعتزلة » فى مواضع كثيرة[1] . ومع هذا كله ففى مقدورنا تحديد الخطوات الرئيسية على الأقل .

تتفق كل الروايات على أن ابن الراوندى كان فى الأصل معتزليا . والبلخى يمدح[2] حذقه ومعرفته بدقيق الكلام وجليله . ويورد لنا الخياط ،

(١) « كتاب الانتصار » ص ٢ ، ١٥٥ وغير ذلك .

(٢) فى شذرة « الفهرست » [ص ٤ س ٢٠ وما يليه من الطبعة المصرية] ، انظر WZKM جـ ٤ ص ٢٢٣ ، كذلك ابن خلكان ، انظر نيبرج ؛ مقدمة كتاب « الانتصار » ص ٣١ وما يليها .

وهو أعظم مصادرنا ، آراءه أيام أن كان معتزليا ببغداد[١] . وكان عم ابن الراوندى وأخوه معتزليين[٢] . ويورد البلخى ثبتا بالكتب التى ألفها ابن الراوندى فى حداثته[٣] . ثم كان انشقاقه على المعتزلة . ويشير الخياط إلى الأسباب التى من أجلها طردته المعتزلة من حظيرتها[٤] . فمال ابن الراوندى إلى الشيعة وأصبح خصم المعتزلة اللدود . وحمله غيظ الصابىء[٥] عن مذهب إلى مذهب آخر على نقض مذهب أصحابه الأولين . وإلى هذا القصد ينتمى كتاب « فضيحة المعتزلة » الذى دعا إلى تأليفه كتابُ « فضيلة المعتزلة »[٦] للجاحظ والذى فيه هاجم المعتزلة . وهنا يصبح ابن الراوندى شيعيا بمعنى الكلمة يدافع فى الجزء الثانى عن آرائهم ومقالاتهم . وفى هذا الزمن ألف كذلك كتاب « الإمامة »[٧] . ويعزوه البلخى[٨] بحق إلى « كتب صلاحه » . إذ لم يترك ابن الراوندى أسس الإسلام بعد .

إلا أن هذه الفترة لم تدم طويلا . إذ نراه بعد ذلك فى زمرة هؤلاء الذين يبطنون الزندقة ويبغون هدم قواعد الإسلام ، وقد كانوا فيما يظهر من الشيعة[٩] . وقد أثر فيه على الخصوص أبو عيسى الوراق الملحد الذى أدى

---

(١) كتاب الانتصار ص ١٠٢ س ٢ وما يليه .

(٢) نفس الكتاب السابق ص ١٤٩

(٣) نيبرج ص ٣٢

(٤) كتاب الانتصار ص ١ ، ٢ ، ١٠٢ ، ١٤٩ ، ١٧٣ وغير ذلك كثير .

(٥) الكتاب السابق ص ١٠٣ س ١٥ : « فحمله الغيظ الذى دخله على أن مال إلى الرافضة » ؛ كذلك ص ٢٣ س ٥

(٦) الكتاب السابق ص ١٠٣ وما يليه .

(٧) نيبرج ص ٣٣

(٨) WZKM, p. 274 [« الفهرست » ص ٥ س ١١ س ١٢ من الطبعة المصرية]

(٩) انظر قبل ص ١٢٦ س ١٤

به إلى أن يدير للشيعة ظهره[١] . ولدينا وثيقة قيمة فيها يتحدث ابن الراوندى عن هذا التغير الذى طرأ عليه . وفى كتاب « فضيحة المعتزلة » فضل — ضد الجاحظ — علياً على جميع الصحابة[٢]. ويذكر لنا الخياط عكس هذا حين يقول إن ابن الراوندى حكى أن أبا عيسى الوراق قال له : « تكتب بنصرة أبغض الخلق إلىّ ؟ » يريد على بن أبى طالب[٣] . كان ابن الراوندى إلى ذلك الحين شيعياً ولكن أبا عيسى الوراق أداه إلى هجر الإسلام هجراً نهائيا . وفى أثناء اتصاله بأبى عيسى الوراق كان يرشق سهامه الحادّة فى الإسلام . وإلى هـذا العصر ينتمى كتابا « الزمرذ » و « الدامغ » . ولقد تحدثنا من قبل عنهما .

ولو كنا حاولنا تحديد أهمية هذه الشخصية العجيبة ومكانتها فى تاريخ الإسلام الدينى والتنوير الإسلامى ، إذاً لخرج ذلك عن نطاق البحث . وإنما نحن اقتصرنا على تفسير كتاب « الزمرذ » من الناحية اللغوية آملين أن يكون فى استطاعتنا العودُ إليه فى فرصة أخرى .

---

(١) كتاب «الانتصار» ص ٩٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥

(٢) نفس الكتاب ص ١٥٤

(٣) نفس الكتاب ص ١٥٥ س ١٢

جابر بن حيان

لن يستطيع الباحث فى تاريخ الفكر الإسلامى أن يجد شخصية أغرب وأخصب من شخصية جابر بن حيان . فهى شخصية أمعنت فى الغموض واكتنفها السر ، حتى كادت أن تكون أسطورة ؛ وتسامت فى التفكير حتى ليقف المرء اليوم ذاهلاً أمام ما تقدمه لنا من نظرات علمية فلسفية كلها عمق وكلها حياة ، وأمام هذه الروح العامة التى تسودها ، روح التنوير والنزعة الإنسانية ، التى تصبو إلى اكتناه كل الأسرار ، وتشعر بما يشيع فيها من قوى إلهية مُبدِعه فترتفع بالإنسان إلى مقام الألوهيه ، ويحدوها الأمل فى التقدم المستمر الوثاب للإنسانية فى تطورها . وشخصيةٌ هذا حظها الروحى ستظل حية باستمرار ، لأنها من النماذج الحية أبداً للإنسان السالك سبيله قُدُماً نحو تحقيق « الصورة » العليا على الأرض ؛ ولن يستطيع البحث العلمى والفيلولوجى والحضارى أن يفرُغ منها فراغاً تاماً ، مهما أنفق من جهد فى هذا السبيل : بل ستمعن فى البعد كلما توغل فى الطريق إليها ، وسيزداد مقدارها كلما تلمّس المرء نواحيها . ونحن اليوم أبعد ما نكون عن إدراكها إجمالا ، فضلا عن الإحاطة بخطوطها الرئيسية وتياراتها التوجيهية . لأن البحث فيها لم يكد يبدأ جديا بعد ، أو إن بدأ فلا يزال فى مستهل الطريق . بل إن التراث العلمى الإسلامى لا زال الغموض يغزو أطرافه من كل جانب ، لأن المستشرقين ، وهم وحدهم الذين يقومون بشىء من الكشف عن مناحى الحياة الروحية فى الإسلام ، لم يبدءوا البحث فى تاريخ العلوم الطبيعية فى الإسلام إلا منذ عهد قريب جداً لا يكاد يتجاوز هذا

القرن ، ولم يأخذ هذا البحث مظهراً جدياً ، ولم يظفر بعناية صحيحة إلا منذ سنة ١٩٢٥ . وإنما كانوا يعنون في القرن الماضي بالناحية الدينية فالتاريخية فاللغوية فالفلسفية فالصوفية على هذا الترتيب أو ما يشبهه . وبدأت العناية بالناحية العلمية واضحة بعض الوضوح عند المرحوم نلّينو في دراساته « لعلم الفلك عند العرب » ونشره « زيج » البتّاني ، وكان ذلك في مستهل هذا القرن . لكن لم يكد يمضي ربعُ هذا القرن الأولُ حتى بدأ تيار جديد قوي يتجه نحو الناحية العلمية على وجه التخصيص ؛ ثم ما لبث هذا التيار أن توطدت أركانه حتى شعر المستشرقون بأن مهمة الاستشراق الإسلامي تنحصر في البحث في هذه الناحية ، ناحية تاريخ العلوم في الإسلام ، حوالي سنة ١٩٣٠ . فنرى مارتن پلسنر يكتب رسالة صغيرة يدل على هذا الاتجاه عنوانها وهو « تاريخ العلوم في الإسلام كمهمة للاستشراق الإسلامي الجديد» (طبعت في تيبنجن سنة ١٩٣١) . وإذا بجيل ممتاز من المستشرقين الشباب يمضي قُدُماً في سبيل تحقيق المهمة الجديدة . فبدأ روسكا بالعناية بالناحية الكيميائية أو علوم الصنعة عند العرب ، فأخرج كتاباً قيما بعنوان « الكيميائيون العرب » في كُنّاشتين (طبع في هيدلبرج ، سنة ١٩٢٤) ، وتلاه بالبحث في الناحية السرّية أو ناحية المذاهب المستورة في الفكر الإسلامي بما قدمه لنا في بحثه في الجزء الأخير من كتاب « سر الخليقة » المنسوب إلى بَلَنْياس الطُواني (ظهر في هيدلبرج سنة ١٩٢٦) . وأكمل البحث في هذا الكتاب الأخير پلسنر الذي عني خصوصاً بالناحية الفيثاغورية ، في دراسته لكتاب « تدبير المنزل » لبريسون (هيدلبرج سنة ١٩٢٨) ، ولكتاب « الفلاحة النبطية » المنسوب إلى ابن وَحشية (بحث في « مجلة الساميّات » ج ٦) . واتجه هلموت ريتّر إلى هذه الناحية كذلك ، في

دراساته ونشرته لـكتاب « غاية الحـكيم » المنسوب إلى مسلمة المجريطى (نشره فى ليپتسك سنة ١٩٣٣) . ثم جاء پينس فعنى بمذاهب الفيزياء ، وذلك فى كتابه « نظرية الجوهر الفرد فى الإسلام » (برلين سنة ١٩٣٦) .

ولـكن هؤلاء جميعاً قد بحثوا أبحاثاً عامة أو جزئية مفردة ، فلم يمنوا بدراسة الشخصيات العلمية الفذة فى تاريخ العلوم فى الإسلام : وإنما فعل ذلك المأسوف عليه پاول كِرَوْس الذى يقدم لنا اليوم خلاصة أبحاثه عن أبرز هذه الشخصيات جميعاً ، ونعنى به جابر بن حيان .

وعناية الأستاذ كِرْوس بجابر عناية قديمة شاملة ، حتى لنستطيع أن نقول إن مجهوده العلمى قد لازمته شخصية جابر كل الملازمة منذ اللحظة الأولى ، حتى أصبح أعظم حجة فى كل ما يتصل بجابر . وإن دراساته المختلفة لتكاد أن تكون دائماً « على هامش جابر » . فأبحاثه فى الإسماعيلية وكل المذاهب المستورة فى الإسلام إنما مصدرها عنايته بجابر ، أعظم ممثل لهذا التيار الروحى المستور . وكانت باكورة هذه العناية بحثاً على الرغم من صغره فإنه بحث ممتاز ، إن بالدقة الفيلولوجية أو بالطرافة فى النظر ، وهو « تهافت أسطورة جابر » (ظهر فى الجزء الثالث من « النشرة السنوية لمعهد الأبحاث الخاصة بتاريخ العلوم » فى برلين سنة ١٩٣٠) . وفى هذا البحث أثبت أن مجموعة كتب جابر كانت إسماعيلية ، وأنها النموذج السابق لـكتب إخوان الصفا . وكان عليه من أجل أن يقدم بحثه عن جابر أن يبدأ بنشر شىء من كتبه ، فنشر مختارات منها بعنوان « مختار رسائل جابر بن حيان » (مطبعة الخانجى سنة ١٣٥٤ هـ = سنة ١٩٣٥ م) : من هذه المختارات نشر فصولا رئيسية من كتب جابر ، كما نشر رسائل كاملة ، وعنى فى اختياره بأن تكون هذه النصوص ممثلة لمختلف نواحى مذهب جابر : ففيها

نماذج لأبحاثه الكيميائية ، ولأبحاثه الفزيائية الفلسفية ، كما أن فيها نصوصاً تتعلق بالناحية الدينية ، من شأنها أن تبين لنا الصلة بين آرائه وآراء الغلاة من الشيعة ، مما يرجح نسبة رسائل جابر إلى الأوساط الشيعية الإسماعيلية . وقد بذل فى نشره مجهوداً جباراً حقاً ، لأن النسخ التى اعتمد عليها مشوهة جداً ، وبعض الرسائل قد اعتمد فى نشره على مخطوطة وحيدة ، فكان عليه حينئذ أن يكمل النقص فى كثير من المواضع وأن يقترح تصحيحات لا تحصى . ووُفِّق فى هذا كله إلى حد بعيد ، فاستطاع أن يقدم لنا نصاً واضحاً قليل الأغلاط التى يمكن إصلاحها (لنذكر على سبيل المثال ما أضافه ص ١٠ س ٩ : « < المبتدأ والخبر ، وأما > الخبر فهو الذى فيه الفائدة العظمى » ، فهنا أضاف كلمة «المبتدأ» والصحيح أن يضيف كلمة «الإنشاء» لأن جابراً يتحدث هنا عن تقسيم القول إلى إنشاء وخبر ، والشاهد على ذلك قوله عن الخبر إنه « الذى يحتمل الصدق والكذب ... ») .

وها هوذا يقدم لنا بحثه عن جابر بن حيان فى جزئين ظهرا ضمن مطبوعات المعهد المصرى باللغة الفرنسية ؛ فظهر الجزء الثانى فى سنة ١٩٤٢ (المجلد الخامس والأربعين من مطبوعات المعهد) . أما الجزء الأول فظهر فى السنة التالية (المجلد الرابع والأربعين) وهو خاص بكتب جابر كلها ، فهو إلى جانب المقدمة الطويلة ثَبَت بكل كتبه مفصل كل التفصيل .

فى الجزء الثانى يعرض لنا الأستاذ كروس المسائل العلمية الرئيسية الواردة فى الكتب المنسوبة إلى جابر بن حيان ، ونقول « المنسوبة » لأنه أثبت فى الجزء الأول أن هذه الكتب منحولة كلها ، قد وضعتها طائفة من علماء الشيعة المشتغلين بالكيمياء حوالى سنة ٣٠٠ هـ = سنة ٩١٢ م . ثم يتبع عرضه لكل مسألة بالبحث فى الأصول اليونانية والشرقية التى

اعتمد مؤلف هذه الكتب عليها واستمد منها آراءه .

فعرض أولا مسألة « الإكسير » ، وفى هذا العرض تحدث عن تحول المعادن ، وتركيب الإكسير ، لا من المواد المعدنية فحسب ، بل ومن المواد النباتية والحيوانية كذلك ، ودرس إلى جانبها تصنيف المعادن عند جابر وعند غيره ، وخصوصاً عند محمد بن زكريا الرازى والصابئة . وهو عرض يمتاز بالوضوح والتنظيم ، ولكن البحث المهم فى هذه الناحية هو الخاص بالمصادر التى استقى منها جابر نظرياته فى المعادن وفى الإكسير . فهنا نجد كروس يعرض لنا فى إيجاز تطورَ الكيمياء اليونانية ، وخصائصَ كل دور من الأدوار التى مر بها هذا التطور ، ثم يبحث فى صلة الكيمياء الجابرية بكل دور من هذه الأدوار ، ويعنى خصوصاً بصلة جابر بكيمياء ذوسيموس وبلنياس . ويخرج لنا من هذا البحث ببيان ما هنالك من اختلاف كبير جداً بين الكيمياء الجابرية والكيمياء اليونانية القديمة . فعلى الرغم مما هنالك من تشابه فى التعبير الاصطلاحى وفى جزئيات كبيرة ، فإن كيمياء جابر تختلف اختلافاً بيناً عن غيرها إن فى الروح أو فى التفصيلات . فكيمياء جابر تمتاز بالميل إلى الناحية التجريبية ، واستبعاد الخوارق ، والاتجاه العلمى العقلى ؛ بينما الكيمياء القديمة كثيراً ما تلجأ إلى الرؤيا الوجدانية واستخدام فكرة الخوارق فى التفسير . ومن ناحية التفصيل ، نجد جابراً يعنى بالكيمياء العضوية خصوصاً ، ويستعمل مِلحاً لم يعرفه القدماء اليونانيون والشرقيون ، وإنما استعملته الكيمياء الإسلامية ، ونعنى به ملح النوشاذر ، ويرجع العناصر إلى الكيفيات الطبيعية من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة .

لكن جابراً يظهر لنا أكثر قرباً من الكيمياء اليونانية وأبعد عن

الروح العلمية العقلية فى المسألة الثانية من المسائل التى عرض لها كروس . فإن « علم الخواص » عند جابر متأثر كل التأثر بالكيمياء اليونانية والهلينية ، حتى ليمكن إرجاعه كله إلى هذه الكيمياء ؛ وفيه نرى فكرة الخوارق تلعب دوراً كبيراً فى تفسير خواص المعادن والنبات والحيوان ، وما بينهما من انجذاب أو تنافر ، ولهذا كان هذا الجزء أقرب ما يكون إلى علم السحر والطلسمات .

وثمت ناحية ثالثة ، لها أكبر القيمة من الناحية الحضارية ، ومن الناحية الإنسانية العامة ، ونعنى بها مسألة «التكوين الصناعى» . فإن جابراً يريد من وراء علم « التكوين » — كما يسميه — أن « يكوّن » ، أى يخلق بالصناعة أنواعاً من الكائنات تنتسب إلى الممالك الطبيعية الثلاث ، وخصوصاً المملكة الحيوانية . فإذا كان فى وسع الكيمياء أن تستنبط مواد جديدة بتركيب الأجسام بعضها مع بعض ، فلم لا تقوم أيضاً بإنتاج النبات والحيوان ، بل وبخلق الإنسان الصناعى ؟ إن هذا العلم ممكن ، لأن الكائن الحى — والإنسان كائن حى — هو نتيجة لتضافر القوى الطبيعية . والطبيعة فى إنتاجها للكائنات إنما تخضع لقوانين كمية عددية يكشف عن سرها علم « الميزان » ، أى علم القوانين الطبيعية الكمية التى يجرى عليها الكون والفساد فى الطبيعة . فما على الإنسان ، وقد عرف هذا السر ، إلا أن يقلد ما تبرزه الطبيعة ، وليس فى هذا خروج على الطبيعة ، بل هى تساعد على ذلك ، لأنها « إذا وجدت للتكوّن طريقاً (غير طريقها هى) استغنت به عن طريق ثان » ، على حد تعبير جابر .

ففكرة تكوين إنسان بالصناعة ، تلك الفكرة التى شغلت أذهان كبار العلماء فى عصر النهضة ممن نزعوا نزعة سحرية ، نجدها واضحة كل الوضوح

عند جابر ، يؤمن بها ويؤكد إمكان تحققها فى حماسة ونشوة تذكرنا بحماسة بركلسوس ، ورجال القرن السادس عشر فى أوربا ؛ وهذا يكشف لنا عن ناحية خطيرة الشأن فى الفكر الإسلامى ، وتحتاج إلى أن تدرس أعمق الدرس ، خصوصاً أنها تعبير عن فكرة عاشت حية فى وسط دينى ، وكانت مدار التفكير عند أصحاب هذا الوسط ، وفيها يظهر تأثير العناصر الغنوصية فى الحياة الروحية فى الإسلام أجلى ظهور .

ومن هذه الناحية العملية من مذهب جابر ينتقل كروس إلى الناحية النظرية ، محللا لنا فى دقة مذهبَ جابر الطبيعى . فيتحدث عن نظرية العناصر عند جابر ، وعن الكيفيات المركبة لها ، ويبين الأصول التى أخذت منها ، وهى أصول تجمع بين أرسطو وبين الرواقية والأفلاطونية المحدثة . ثم يتحدث طويلا وبوجه خاص عن نظرية « الميزان » التى تعدُّ العمود الفقرى والمحور الرئيسى لمذهب جابر كله . والميزان يقصد به هنا القوانين الكمية العددية التى تحكم كل شىء فى الوجود ؛ وبالتالى إرجاع كل الظواهر الطبيعية وكل ما فى الوجود إلى قوانين الكم والعدد . وهذه الفكرة هى أكبر محاولة قامت فى العصور الوسطى من أجل إيجاد علوم طبيعية تقوم كلها على فكرة الكم والمقدار ، وهى المثل الأعلى الذى سعى العلماء الطبيعيون المحدثون جهدَهم إلى تحقيقه . ومن هنا جاءت الطرافة والعمق فى نظرة جابر هاتيك . ذلك لأننا نجد الشغل الشاغل والهم الأكبر للعلم الحديث بكل أنواعه وفروعه يتجه إلى إحلال النِّسب الكمية محل الخواص الكيفية فى كل تفسير لأى مظهر من مظاهر الوجود . ويكفى أن يكون جابر قد شعر شعوراً واضحاً قوياً بهذا الاتجاه لكى يتبوأ مركز الصدارة فى تاريخ العلم كله قديمه وحديثه . ولا يهم كثيراً أن لا يكون قد استطاع أن يصل إلى نتائج

ذات قيمة فى هذا البـاب ، لأنه فى الواقع قد تأثر هنا بالناحية الصوفية السحرية من نظرية الأعداد عند الفيثاغوريين وخواصها العجيبة ، فلم ينته إلى نتائج علمية صحيحة . وفى حديث المؤلف عن الصلة بين جابر والأقدمين فى هذه الناحية ، تناول مشكلة تاريخية فيلولوجية على الدرجة الأولى من الأهمية ، ونعنى بها مشكلة كتاب «سر الخليقة» ، المنسوب إلى بلنياس الطوانى . ولو أنه لم يصل إلى نتائج حاسمة هنا ، فإن هذا الفصل أروع ما فى هذا الجزء الثانى من الكتاب ، فقد استطاع فيه أن يعقد مقارنة بين هذا الكتاب وكتاب « الكنوز » لأيوب الرهاوى (الذى نشره منجانا وترجمه سنة ١٩٣٥ ؛ وهو باللغة السريانية) ، ويخرج منها بأنه لا بد أن يكون مصدر الكتابين واحداً ، وأن يقدم لنا فكرة دقيقة عن الصورة التى كانت عند اليونانيين ، وفى العالم الإسلامى ، عن بلنياس . وكثيراً ما يعرض المؤلف لمسائل هامة على هامش البحث يدلى فيها بآراء ذات أهمية كبيرة ، ويوجه فيها العناية إلى دراسة ناحية ما من نواحى البحث التاريخى فى الحياة الروحية فى الإسلام .

ولهذا فإن للتعليقات المحشودة فى الكتاب بكثرة من الأهمية فى ذاتها ما للنص الأصلى ، إن لم يكن أكبر فى أحيان ليست بالقليلة .

والمنهج الذى سلكه كروس فى هذا الجزء منهج فيلولوجى من الطراز الأول . فإنه — كما يذكر ذلك فى المقدمة — يبدأ من نص رئيسى يحدد معانى مصطلحاته فى دقة ومهارة فى المقارنة والاشتقاق ، ويحشد حوله ما هنالك من نصوص تعين على فهمه وإبراز كل معانيه . وبعد أن ينتهى من هذا التحليل الدقيق ، يحاول أن يعرض لنا المسائل واضحة منتظمة الأجزاء ، ثم يتلو هذا ببيان المصادر والأصول التى قد ترجع إليها الآراء

التى أوردها صاحب المذهب . وهو المنهج الفيلولوچى بالمعنى الدقيق . وكنا نود من المؤلف أن يضيف إلى هذا المنهج المنهجَ الفلسفى الذى يحاول أن يستخلص النتائج العامة ويرتب عليها صورة كاملة عامة متناسقة الأجزاء للمفكر الذى هو موضوع الدرس ، يضعها هى الأخرى فى إطار الحضارة التى نشأ هذا المفكر فيها ، رابطاً إياها بكل التيارات المرتبطة بها ارتباطاً عضوياً حياً .

محمد بن زكريا الرازى

شاهدنا كيف بدأ الإلحاد فى الإسلام تحت تأثير عوامل فكرية خالصة : ففريق ألحد عن الدين لأسباب من العصبية القومية حملته على أن يتعصب لدين آبائه من المجوس والثنوية المانوية ، كما فعل ابن المقفع وبشار ؛ وفريق تزندق فراراً من تكاليف الدين وطلبا لسلوك مسلك الحياة الماجنة الحُرة السَّمْحة ، دون أن يتأثر بشك فكرى واضح ، كما هى الحال بالنسبة إلى كثير من الشعراء ممن ينتسبون إلى « عُصبة المُجّان » على حد تعبير أبى نواس ؛ وفريق ثالث تنازعه العاملان فجمع بين سلوك المُجّان وبين عصبية الشعوبيين ، مثل أبان بن عبد الحميد . وخلال هذا التطور رأينا المنْحَنى يسير صوب الجانب الروحى أكثر فأكثر ، وإن كانت العوامل الفكرية العميقة لم تؤثر تأثيرها الحاسم بعد ، اللهم إلا عند ابن المقفع الذى يمثل خصوصاً جانباً عقلياً بارزاً وإن تلفَّع بالغموض والتَّـقِيَّـة . ثم شاهدنا هذه الحركة المتصاعدة تبلغ أوجها عند ابن الراوندى : فبعد أن كانت مجرد مزاج روحى أو موقف فكرى مؤقت غير واضح ، صارت مذهباً شاملاً أقيم على أسس من العقل ، وأصبح ذا أنصار يؤمنون به لأسباب عقلية فكرية ، وكانت فكرة النبوة هى حجر الزاوية فى هجوم هذا الإلحاد على الإسلام . ويلوح أن الأمر قد اقتصر عليها وتحدد عندها فلم يتعدها إلى الشك فى الألوهية نفسها ، بعد أن كان الأمر غامضاً لا يعرف الملحد أين يوجه سهامه ، ومن هنا كان الاضطراب فى تصوير هؤلاء لأفكارهم واتجاهاتهم ، وإن كانوا فى بعض النواحى أجرأ من هؤلاء المتأخرين عليهم من أمثال

ابن الراوندى ومن تلاه . ولم يَنْطَل على الناس نسبة الشك فى النبوات إلى البراهمة وتحميلهم مسئوليته ، فاعتنقوه على علاته ، بغض النظر عن أصحابه وما عسى أن يرتبط بهذا الرأى من معتقدات أخرى لهؤلاء البراهمة المزعومين .

وهكذا تركزت نقطة الهجوم من جانب الملحدين فى النبوّة ؛ ولذا نجد الملاحدة فى القرن الرابع وما تلاه يقفون طويلاً عند هذه المسألة . فنرى التوحيدى يذكر فى « الإمتاع والمؤانسة »(١) أن أبا اسحق النصيبى كان « يشكّ فى النبوات كلها » ؛ ونرى الكثيرين ينحرفون إلى المذاهب المبتدعة التى انتشرت فى ذلك العهد انتشاراً واسعاً مثل الخُرَّمية البابكية (٢) ، حتى ليروى التوحيدى أيضا أن رجلاً معروفاً بدينه وإيمانه مثل ابن الباقلانى كان « على مذهب الخُرَّمية ، وطرائق الملاحدة »(٣)، وإن كان فى هذا القول شئ من الغلوّ لعله مقصود .

وانضم إلى هذه التيارات الظاهرة ، تياراتُ المذاهب المستورة المتأثرة بالغنوص ، خصوصاً تلك المنتسبة إلى الشيعة مما ولّد فى القرن الرابع حركة عنيفة فى الخواطر والأفكار . ولسنا الآن بسبيل بيان هذه الاتجاهات الروحية القوية التأثير ، إنما نحن نتابع تطور حركة الإلحاد .

وهنا نلتقى بشخصية من أكبر الشخصيات فى الحياة الفكرية الإسلامية على مر عصورها ، ونعنى بها أبا بكر محمد بن زكريا الرازى . والرازى ، طبيباً وكيميائياً من الطراز الأول ، معروف جيداً للجميع بفضل الدراسات العديدة

---

(١) ج ١ ، ص ١٤١ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ .

(٢) انظر « الفهرست » لابن النديم ص ٤٨٠ — ص ٤٨٣ ، طبع مصر سنة ١٣٤٨ هـ = سنة ١٩٢٩ م .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٣ .

التي كتبت عنه من هذه الناحية[1] . أما الرازي الفيلسوف فقد بدأت الدراسات عنه متأخرة ، فكانت أولى الدراسات الجدية في هذا الباب ما كتبه شيدر عنه في مقاله « مذهب المسلمين في الإنسان الكامل »[2] ؛ ثم كانت الدراسة التفصيلية لفلسفة الرازي الطبيعية التي كتبها الأستاذ سالومون پينس في كتابه القيم « نظرية الجوهر الفرد عند المسلمين »[3] ، فجاءت أوفى ما كتب عنه حتى اليوم . أما فلسفته الأخلاقية وفلسفته العامة في الوجود فلم تكن حتى اليوم موضع دراسة شاملة ؛ وقد كان هذا طبيعيا ما دامت النصوص الخاصة بهذه الفلسفة لم تنشر بعد . بيد أن المرحوم الدكتور كرَوْس وجه عنايته إلى الرازي من هذه الناحية خصوصاً ، وبدأ ينشر آثاره الفلسفية في مجلة « شرقيات » *Orientalia* ثم جمعها أخيراً في كتاب كان منتظراً أن يصدر في جزئين على الأقل ، لكن لم يصدر منه إلا الجزء الأول ، وحال انتحاره الأليم دون نشر الجزء الثاني ، فضلاً عن أنه كان يكتب كتاباً شاملاً عن فلسفة الرازي كرسالة للدكتوراه يريد تقديمها لجامعة السوربون ، ويلوح أنه قد أتمه أو أوشك ولكنه لم ينشره ، ولعل القائمين على آثاره أن يعملوا على تحرير دساتيره وإعدادها للنشر .

وما يعنينا هنا هو أن نبين الجانب الإلحادي في فلسفة الرازي هذه ،

---

(١) راجع خصوصاً ج . س . ا رانكنج : « حياة الرازي ومؤلفاته » (المؤتمر الدولي الطبي السابع عشر ، لندن سنة ١٩١٣ ، قسم ٢٣ لندن سنه ١٩١٤ G.S.A. Ranking : *The life and works of Rhazes*) ثم كتب تاريخ الطب العربي : قستنفلدو لوكلير الخ .

(٢) هـ . هـ . شيدر *Die islamische Lehre vom vollkommenen Menschen* في « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » ZDMG جـ ٧٩ (سنة ١٩٢٥) ص ٢٢٨ — ص ٢٣٥ .

(٣) S. Pines : *Beiträge zur islamischen Atomenlehre* . برلين سنة ١٩٣٦ ص ٣٤ — ص ٩٣

وقد عبر عنه — فيما يلوح — فى كتابه فى « العلم الإلـهى » ثم فى كتاب « مخاريق الانبياء » ، ولـكننا نعرف هذا رأيه خصوصاً من المناظرات التى جرت بينه وبين أبى حاتم الرازى ، ثم ما أورده هذا الأخير فى كتابه « أعلام النبوة » مقتبساً من كتاب « مخاريق الأنبياء » لابن زكريا الرازى ، وقد نشر هذه المواضع مع ردود أبى حاتم كراوسُ فى المجلد الخامس من مجلة « شرقيات » وأعاد نشر الجزء الأول منها فى « رسائل فلسفية لمحمد بن زكريا الرازى » (القاهرة سنة ١٩٣٩ ص ٢٩٥ — ص ٣١٦) ، نشرها مع رد أبى حاتم الرازى وجواب أحمد بن عبد الله الـكرمانى « عما أهمل أبو حاتم الجواب عنه من سؤال ابن زكريا الرازى » .

١ — نظرية النبوة

ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نعطى صورة صادقة لمذهب ابن زكريا الرازى ، لأن النصوص الأصلية تعوزنا ، وكل ما لدينا عنه فى هذا الباب إنما يرجع إلى ما يورده الخصوم من عرض لمذاهبه وأقواله إما بنصها مبتورة من سياقها ، وإما اختصاراً وبالمعنى فحسب ، فضلا عن ندرة هذه الآثار ، مما لا يسمح بتكوين رأى صحيح شامل . بيد أننا سنحاول جهدنا أن نتبين ذلك المذهب من تلك الشذرات والروايات النادرة قدر المستطاع ، على ما نبديه من تحفظ شديد فيما يتصل بصدقها تماماً .

ويبدو من هذه النصوص أن نظرية النبوة كانت الشاغل الأكبر لنقد الرازى للأديان . فالرازى كان لا يؤمن بالنبوة ، وكان نقده لهـا يقوم على أساس اعتبارات عقلية وأخرى تاريخية .

أما من الناحية العقلية فإنه لا بد قد قال بالحجة العامة التى قال بهـا

البراهمة المزعومون ، وهى التى أوردناها عن ابن الراوندى فى القطعة رقم ٣ من أن العقل يكفى وحده لمعرفة الخير والشر فلا مدعاة إذاً لإرسال أناس يختصون بهذا الأمر من جانب الله . ويؤيد هذا الافتراض ما نراه من مدح الرازى للعقل ، خصوصاً فى مستهل كتاب « الطب الروحانى » حيث قال : « إن البارىء — عز اسمه — إنما أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية مافى جوهر مثلنا نيله وبلوغه ؛ وإنه أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا . . . وبالعقل أدركنا جميع ما ينفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا ونصل إلى بغيتنا ومرادنا . . . وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا الخفية المستورة عنا . . . وبه وصلنا إلى معرفة البارىء عز وجل الذى هو أعظم ما استدركنا وأنفع ما أصبنا . . . وإذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلالته فحقيق علينا أن لا نحطه عن رتبته ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله — وهو الحاكم — محكوماً عليه ، ولا — وهو الزمام — مزموماً ، ولا — وهو المتبوع — تابعاً ، بل نرجع فى الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه ، فنمضيها على إمضائه ونوقفها على إيقافه »(١) . ومن هذه الفقرة المهمة يتبين التشابه الكبير بينه وبين ابن الراوندى حين قال على لسان البراهمة : « إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه ، وإنه هو الذى يعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صح الأمر والنهى والترغيب والترهيب » . فإذا كان ابن الراوندى قد بنى على هذه المقدمة إبطاله للنبوة ، فيشبه أن يكون الرازى قد أراد هذا أيضا ورمى إليه ، خصوصاً وهو يزيد فى توكيد مناقب العقل

---

(١) « رسائل فلسفية لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى » ، ج ١ ص ١٧ س ١٦ — ص ١٨ س ١٦ . نشرها پاول كروس ، القاهرة سنة ١٩٣٩ .

فينسب إليه ليس فقط ما يتصل بالأخلاق ، كما اقتصر عليه ابن الراوندى ، بل وأيضاً ما يتصل بالمسائل الإلٓهية ، فيقول إننا « به وصلنا إلى معرفة البارىء عز وجل » ، وهذا يقطع بأن النبوة أصبحت لا مبرر لها ما دمنا نعرف بالعقل كل شيء أخلاق وإلٓهي ، لأن النبوة لا تقوم بأكثر من هذا . ولقد كان قول ابن الراوندى — لو أُخذ وحده — خليقاً بأن يُرَد عليه بالقول بأن الأنبياء يأتون ابيان الأمور المتصلة بالألوهية ، ولا يقتصرون على الناحية الأخلاقية وحدها . أما الرازى فقد أكد أن العقل هو المرجع فى كل شيء ، وراح يشيد به بلهجة لا نكاد نجد لها مثيلا عند كبار العقليين فى كل العصور ، حتى فى العصر الحديث : فالفلاسفة اليونانيون كانوا مع الإيمان بسلطان العقل يتركون للوحى والإلهام مجالاً لنوع من النبوة ، كما يظهر لدى أفلاطون ؛ فكأن الرازى إذاً قد ذرّف على أستاذه وزاد ، مع أنه كان يشايع أفلاطون ؛ وفى العصر الحديث ، لا تزال فكرة اللامعقول تلعب دوراً كبيراً فى معظم المذاهب الفلسفية .

وليس من شك فى أن الرازى إنما يشير إلى النبوة والأديان حينما قال فى تلك الفقرة عينها : « وإذ كان هذا مقدارَه ومحلّه وخطره وجلالته (لاحظ هذا التكرار الذى يرمى إليه الرازى عن قصد ليؤكد ما يشير إليه) لحقيق علينا ألا نحطه عن رتبته ولا ننزله عن درجته » ، أى ليس علينا أن « نجعله — وهو الحاكم — محكوماً عليه ، ولا — وهو الزمام — مزموماً ، ولا — وهو المتبوع — تابعاً » ، وذلك بالالتجاء إلى سلطة دينية خارجة عن العقل هى النبوة . لهذا يجب أن نفسر هذا الفصل كله من « الطب الروحانى » على أساس فكرة إبطال النبوة عند الرازى ، وإلا لم نفهم الغرض من كل هذه التوكيدات المتكررة المتوالية . ولقد كان اللاحدة يلجأون جميعاً

إلى الإشادة بالعقل كما يكون فى مقابل النبى . ولما كانت المقدمات التى تقوم عليها نظرية النبوة هى عينها التى تقوم عليها فكرة الإمامة ومهمة الأئمة عند الإسماعيلية فقد عنى الإسماعيلية بالرد على منكرى النبوة ، وهذا يفسر لنا كون بعض الردود قد وردت فى كتب الإسماعيلية . ذلك أن الإسماعيلية على اختلاف فرقها من إسماعيلية حقيقية وباطنية وقرامطية ، وخصوصاً فرقة السَّبْعيَّة ترد العلم كله إلى الأئمة المعصومين الذين يؤخذ عنهم وحدهم العلم . فكما يقول ابن الجوزى عن سبب تسمية فرقة « التعليمية » بهذا الاسم : « إن مبدأ مذهبهم إبطال الرأى ، وإفساد تصرّف العقول ، ودعوة الخلق إلى التعليم فى الإمام المعصوم ، وأنه لا مَدْرَك للعلوم إلا بالتعليم »[(1)]. وقال أيضاً : « واعلم أن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم وعزل العقول عن أن تكون مدركته (لعل الصواب : مدركة) للحق » (المرجع نفسه ، ص ٢٦٢ س ١٩ وما يليه) . فكان من الطبيعى إذاً وقد كان هذا مذهبهم أن يهاجموا كل من يتعرض بالنقد لنظرية النبوة ، ما دامت هذه النظرية تقوم على أساس تفضيل الله لبعض الناس كما يكونوا مصدر المعارف والهداية للناس .

وبعد أن أنكر الرازى النبوة على الأساس العقلى العام راح يفند إمكانها بطريقة مفصّلة فقال فى مناظرته مع أبى حاتم الرازى حينما ناظره فى أمر النبوة : « من أين أوجبتم أن الله اختصّ قوماً بالنبوة دون قومٍ ، وفضلهم على الناس ، وجعلهم أدلة لهم ، وأحوَجَ الناسَ إليهم ؟ ومن أين أجزتم فى

(١) فصل من كتاب « المنتظم فى التاريخ » لابن الجوزى نشره جوزف دى سوموجى فى « مجلة الدراسات الشرقية » ج ١٣ (سنة ١٩٣٢ — سنة ١٩٣٣) ص ٢٦١ س ٢٠ J. de Somogyi : A *treatise on the Qarmatians in the Qitab al Muntazam in* RSO

حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك ويُشلي بعضهم على بعض ويؤكد بينهم العداوات ويكثر المحاربات ويهلك بذلك الناس ؟ »[1] والنقد هنا يقوم على الاعتبارات التالية :

أولا : على أى أساس يفضل الله بعض القوم على بعض ويختصه بالنبوة ؟

ثانياً : أليس فى هذا التفضيل مدعاة للشقاق بين الناس ، وقد حدث هذا فعلاً بما جرى من تنازع بين أصحاب الأديان المختلفة ؟ أما عن المسألة الأولى فيرى الرازى أن الحكمة الإلهية تقتضى أن يتساوى الناس فى استعدادهم لإدراك المنافع والمضار وتمييز الخير من الشر ، وأن لا يدع بينهم مجالاً للتنازع بتفضيل بعض الأفراد ، إذ سيكون لكل فرد أتباع وشيع ، مما يؤدى إلى الشقاق . وإذاً « فالأولى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفةَ منافعهم ومضارّهم فى عاجلهم وآجلهم ، ولا يفضل بعضهم على بعض فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا . وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة لبعض ، فتصدّق كلُّ فرقة إمامها وتكذبَ غيره ويضربَ بعضُهم وجوه بعض بالسيف ويعمَّ البلاء ويهلكوا بالتعادى والمحاربات . وقد هلك بذلك كثير من الناس كما نرى » (الموضع نفسه).

وهنا يرد عليه أبو حاتم مبيناً اختلاف الناس وتفاوت مراتبهم ، « فإنا لا نرى فى العالم إلا إماماً ومأموماً ، وعالما ومتعلماً ، فى جميع الملل والأديان والمقالات من أهل الشرائع وأصحاب الفلسفة التى هى أصل مقالتنا ؛ ولا نرى الناس يستغنى بعضهم عن بعض ، بل كلهم محتاجون بعضهم إلى بعض ، غير مستغنين بإلهامهم عن الأئمة والعلماء ، لم يُلهَمُوا ما ادّعيت من منافعهم ومضارهم فى أمر العاجل والآجل ، بل أُحوِجوا إلى علماء

(١) « رسائل فلسفية ... » ج ١ ص ٢٩٥ س ٣ — س ٦ .

يتعلمون منهم ، وأئمةٍ يقتدون بهم ، وراضة يروضونهم . وهذا عِيان لا يقدر على دفعه إلا مُباهتٌ ظاهر البُهت والعناد . وأنت مع ذلك تدعى أنك قد خُصصت بهذه العلوم التى تدعيها من الفلسفة ، وأن غيرك قد حُرِم ذلك وأُحوِج إليك ، وأوجبتَ عليهم التعلّم منك والاقتداء بك[1] » .

فأجابه الرازى : « لم أُخَص بها أنا دون غيرى ، ولكنى طلبتها وتوانوا فيها . وإنما حُرِموا ذلك لإضرابهم عن النظر ، لا لنقص فيهم . والدليل على ذلك أن أحدهم يفهم من أمر معاشه وتجارته وتصرُّفه فى هذه الأمور ، ويهتدى بحيلته إلى أشياء تَدِقُّ عن كثير منّا ، وذلك لأنه صرف هِمّته إلى ذلك . ولو صرف همته إلى ما صرفت همتى أنا إليه وطلب ما طلبت لأدرك ما أدركت »[2] . وفى هذا الجواب نجد أصداء لأفلاطون ونظريته فى التعليم ، خصوصاً كما عرضها فى محاورة « مينون » : فالأمر عند الرازى كما هو عند أفلاطون أمر إيقاظ واستغلال لاستعدادات موجودة بالفطرة فى نفوس كل منّا منذ ميلاده ، ومهمتنا نحن إيقاظ هذا الكامن واستغلال ما هو فطرى . ومع هذا فإن الرأى عند الرازى أن الناس يولدون وعندهم استعدادات متساوية ، وإنما يأتى التفاوت بينهم فيما بعد من إيثار بعضهم تنمية ملكات على أخرى ، وتوجيه عنايتهم إلى نواحٍ دون نواحٍ . ولذا فحينما سأله أبو حاتم : « هل يستوى الناس فى العقل والهمّة والفطنة ، أم لا ؟ » ، أجاب : « لو اجتهدوا واشتغلوا بما يعنيهم (وفى قراءة : يعينهم ، ولكننا نفضل الأولى) لاستووا فى الهمم والعقول » (ص ٢٩٦ س ١٩ — س ٢٠) فيرد عليه أبو حاتم بكلام وجيه لا يعنينا هنا بيانه لأن الذى يهمنا هو بيان نظرية أبى بكر الرازى وحده .

---

(١) الكتاب نفسه ص ٢٩٦ س ٥ — ١٣ .

(٢) « رسائل فلسفية » ص ٢٩٦ س ١٤ — س ١٨ .

أما عن المسألة الثانية فقد فصل الرازى القول فيها فى كتابه « مخاريق الأنبياء » كما يتبين من الشذرات التى يوردها أبو حاتم ، فبيّن الاختلاف بين الأنبياء ، وكيف أدى إلى النزاع بين أصحابها . روى أبو حاتم : « وأما قوله (أى أبا بكر الرازى) : الآن ننظر فى كلام القوم ومناقضته — يعنى بذلك كلام الأنبياء عليهم السلام — وقال : زعم عيسى أنه ابن الله ، وزعم موسى أنه لا ابن له ، وزعم محمد أنه مخلوق كسائر الناس . ومانى وزرهشت (يقصد زرادشت) خالفا موسى وعيسى ومحمد فى القديم ، وكون العالم ، وسبب الخير والشر ؛ ومانى خالف زرهشت فى الكونين (أى النور والظلمة) وعالمها . ومحمد زعم أن المسيح لم يُقتل ، واليهود والنصارى تنكر ذلك وتزعم أنه قُتِل وصُلِب »[1] . واتخذ الرازى من هذا التناقض بين الأنبياء دليلاً على بطلان النبوة ، لأن النبوة فى أصلها تقوم على أساس الإلهام والوحى من الله الواحد ، فما دام المصدر واحداً ، فالواجب أن يتحد القول الصادر عنه ، وإلا نسبنا التناقض والاضطراب إلى الله نفسه ، وهذا مستحيل على الله الحكيم . فوجود التناقض بين الأنبياء — مع إدعائهم جميعاً أنهم إنما يصدرون عن وحى الله الواحد — إنما يدل على أنهم غير صادقين ، وأن النبوة التى يقولون بها باطلة .

ومن هنا يمكن تلخيص الأسس التى بنى عليها الرازى إبطاله للنبوة على هذا النحو :

١ — العقل يكفى وحده لمعرفة الخير والشر والضار والنافع فى حياة

---

(١) پاول كروس : فصول مستخرجة من كتاب « أعلام النبوة » لأبى حاتم الرازى ، منشور فى مجلة « شرقيات » *Orientalia* جـ ٥ ، سلسلة جديدة ، كراسة ٣ / ٤ ، روما سنة ١٩٣٦ ص ٣٦٢ ، قطعة رقم ٨ س ٤ — س ٦ . وقارن أيضاً القطعة رقم ١٢ س ٧ — س ٩ .

الإنسان ، وكافٍ وحده لمعرفة أسرار الألوهية ، وكافٍ وحده لمعرفة أسرار الألوهية ، وكافٍ كذلك وحده لتدبير أمور المعاش وطلب العلوم والصنائع . فما الحاجة بعدُ إلى قوم يُختصون بهداية الناس إلى هذا كله ؟

٢ — لا معنى لتفضيل بعض الناس واختصاص الله إياهم بإرشاد الناس جميعاً ، إذ الكل يولدون وهم متساوون فى العقول والفِطَن ؛ والتفاوت ليس إذاً فى المواهب الفطرية والاستعدادات ، وإنما هو فى تنميـة هذه المواهب وتوجيهها وتنشئتها .

٣ — الأنبياء متناقضون فيما بينهم ؛ وما دام مصدرهم واحداً ، وهو الله فيما يقولون ، فإنهم لا ينطقون عن الحق ، والنبوة بالتالى باطلة .

٢ — نقد الأديان عامة

ثم يتابع الرازى نقده للأديان المنزّلة كنتيجة لإبطاله النبوات ، كيما يثبت فساد النتائج التى انتهت إليها النبوات ، ما دام الأصل قد بين هو أنه فاسد . وكأنه إذاً يريد أن ينتهى إلى النتيجة عينها من بطلان النبوة ، نظراً لفساد نتائجها وما تقول به .

وهذا النقد إنما يتناول الأديان كلها دون تمييز بينها ؛ ومعنى هذا أن إلحاد الرازى لم يكن باسم مذهب دينى معين ، ولم يكن متوجهاً إلى الإسلام وحده . فنراه بعد أن بيّن التناقض العام بين مختلف الأديان الرئيسية يتناولها واحداً بعد واحد .

فيقول عن اليهود : « إن اليهود قالت إن موسى قال إن الله قديم غير مصنوع ولا مؤلَّف ، وإنه لا تنفعه المنافع ولا تضره المضار » ، ومع هذا فإن « فى التوارة أن يوضع الشحم على النار لترويح شَمّة (فى الأصـل :

سنة) الرب سبحانه (أن يوضع الشحم على النار ليشمّ الريحَ منه الرّب)
(قطعة رقم ٨ ، س ٨ — س ١١) ، فكيف نوفق بين هذين القولين
المتضاربين : القول بثبات الله وعدم تأثره بشيء ، والقول بأن الله يتأثر
بالروائح ؟ كذلك نجد فى التوراة ما يناقض القول بأنه قديم غير مصنوع
ولا مؤلّف ، إذ « فى التورية أنه قديم الأيام فى صورة شيخ أبيض الرأس
واللحية » وهذا تشبيه وتجسيم مما يؤذن بأنه مؤلف مصنوع ، فكيف
يتفق هذا مع ذاك ؟! هيهات ، هيهات ! فإذا انتقلنا من بيان طبيعة الله
إلى بيان صفاته وجدنا فى التوراة أوصافا تعزى إلى الرب لا يمكن أن تليق
بمقامه . ففى التوراة أيضاً : « ما لكم تقرّبون إلىّ كل عَرْجاء وعوراء !
أتُرى كم لو أهديتم ذلك إلى أصدقائكم ما قبلوه إلا صحيحاً ؟! » ، وفيها :
« اتخذوا لى بساطاً من ابريشم دقيق الصَّنْعة وخوانا من خشب
الشمشاد » . ثم قال الملحد : هذا بكلام أهل الفاقة أشبه منه بكلام الغنى
الحميد . وذكر أشياء كثيرة مما هى فى التورية وعابها » (قطعة رقم ٨ س
١٣ — س ١٦) . ولم يبين لنا أبو حاتم بقية المواضع من التوراة التى نقدها
الرازى ، لكن يبدو أن الرازى قد أخضع التوراة لنقد تفصيلى مستمر
محاولا أن يبين ما فيها من متناقضات ، مما يدلنا من ناحية أخرى إلى أى
مدى كان اطلاع الرازى على الكتب المنزلة واسعاً .

وعلى النحو عينه نقد المسيحية فقال : « زعمت النصارى أن عيسى
قديم مربوب ، وأنه قال : « جئتُ لأتمّ التورية » ، ثم نسخ شرائعها وبدّل
قوانينها وأحكامها ؛ وإن النصارى زعمت أنه أب وابن وروح القدس » .
فهو يأخذ على المسيحية أولاً قولها بوجود قديم غير مخلوق إلى جانب الله ،
مما يؤدى إلى الشرك ؛ ويأخذ على المسيح ثانياً أنه قال إنه جاء لإتمام التوراة ،

والواقع أنه نسخ شرائعها وبدل أحكامها ؛ ويأخذ عليها ثالثاً أن المسيح أو الله ثالوث مكوّن من أب وابن وروح القدس . والتناقض ظاهر فى المأخذ الثانى ، والخُلف واضح فى المأخذ الثالث ، والكفر بيِّنٌ فى المأخذ الأول .

ثم يتابع هجماته على بقية الأديان مبيناً ما يراه فيها من إحالات ومناقضات . « فذكر ما تدّعيه المجوس عن زرهشت فى باب أهرمن ؛ وما أدعاه مانى فى أن الكلمة انفصلت من الأب ومزّقت الشياطين وقتلت ، وأن السماء من جلود الشياطين ، وأن الرعدَ جرجرة العفاريت ، وأن الزلزلة تحرّك الشياطين تحت الأرض ؛ وأن مانى رفع سابورَ ، الذى عمل له الشابرقان[1] ، فى الجو وأخفاه حينا هناك ؛ وأن مانى كان يُختطف من بين أيديهم بروحه يحاذى به عين الشمس فهما (لعل الصواب : ربما ، راجع بعدُ فى النص المنشور الفقرة رقم ٣٢ س ٤) مكث ساعةً وربما مكث أياماً . فأورد مثل هذه المُحالات التى ابتدعها المبتدعون فى المجوسية والمانيّة ، وخلطها بما فى الكتب المنزّلة وآثار الأنبياء ، وأضافها إلى رسل الله الطاهرين الذين هم بُراء من كل ذلك ، وزعم أن هذا من رسومهم ، وأن هذا اختلاف وتناقض فى كلامهم ، واحتج بذلك فى دفع النبوّة » (القطعة رقم ٨ س ٢٠ — س ٢٩) .

وهذا النقد للمجوسية والمانوية يدلنا على المدى الذى تطور إليه الإلحاد فى الإسلام . فقد كنا رأينا أن الزندقة التى رمى بها الزنادقة المتقدمون فى القرن الثانى هى المانوية والمجوسية . أما عند الرازى فإن هذين المذهبين لم يسلما أيضاً من الطعن عليهما شأنهما شأن بقية الأديان ، مما يدل على الدرجة العليا التى بلغها الإلحاد على يد الرازى . ونحن نشاهد فعلاً أن الرازى قد

(١) كتاب « الشابرقان » من كتب مانى .

رد على المانوية فى رسائل مفردة منها « كتاب فيما جرى بينه (أى الرازى) وبين سيسن المنانى » و « الرد على سيسن الثنوى » (« الفهرست » لابن النديم ، ص ٤١٦ السطر الأخير ، طبع مصر سنة ١٩٢٩) .

ووجه النقد ضـد المجوسية والمانوية واضح ؛ ويتجه إلى ما فيهما من أساطير ومخالفة المعقول فى تفسير الأحداث الطبيعية .

بيد أن الرازى لم يكتف بنقد الأديان من ناحية ما يراه فيها من محالات ومتناقضات ، إنما يرد كذلك على اعتراض قد يوجهه الخصم إليه وهو : إذا كانت الأديان على ما يقول من إحالة وتناقض ، فكيف تفسّر تعلق هذا الجمهور الأعظم من الناس بها ، وكيف تفسر انتشار الأديان بحيث لا نكاد نجد إلا النادرين جداً هم الذين لم يعتنقوا ديناً ما ، وكيف تفسّر من ناحية أخرى قلة المتبعين للفلاسفة وأصحاب المقالات العقلية ، مع أنها هى الحق فى نظرك ؟

فرد الرازى على هذا الاعتراض المتوقَّع من الخصم بأن قال : « إن أهل الشرائع أخذوا الدين عن رؤسائهم بالتقليد ، ودفعوا النظر والبحث عن الأصول ، وشدّدوا فيه ونَهَوْا عنه ، ورووا عن روسائهم أخباراً توجب عليهم ترك النظر ديانةً ، وتوجب الكفر على من خالف الأخبار التى رووها . من ذلك ما رووه عن أسلافهم أن : الجَدَل فى الدين والمِراء فيه كُفْر ؛ ومن عَرّض دينه للقياس لم يزل الدهرَ فى التباس ؛ ولا تتفكّروا فى الله وتفكّروا فى خَلْقه ؛ والقَدَر سرّ الله فلا تخوضوا فيه ؛ وإياكم والتعمقَ فإن من كان قبلكم هَلَك بالتعمق » . ثم قال : « إن سئل أهل هذه الدعوى عن الدليل على صحة دعواهم ، استطاروا غضباً ، وهدروا دم من يطالبهم بذلك ، ونهوا عن النظر ، وحرضوا على قتل مخالفيهم . فمن أجل ذلك اندفن الحق أشدّ اندفان ، وانكتم أشد انكتام .

« قال الملحد (أى الرازى) : وإنما أتوا فى هذا الباب من طول الإلف لمذهبهم ، ومرّ الأيام ، والعادة ، واغترارهم بلحى التيوس المتصدّرين فى المجالس : يمزّقون حلوقهم بالأكاذيب والخرافات ، وحدثنا فلان عن فلان بالزور والبهتان ؛ وبرواياتهم الأخبار المتناقضة : من ذلك آثار توجب خلق القرآن وأخرى تنفى ذلك ، وأخبار فى تقديم علىّ وأخرى فى تقديم غيره ، وآثار تنفى القدر وأخرى تنفى الإجبار ، وآثار فى التشبيه ، ذكرها الملحد وكرهنا تطويل الكتاب بها .

« قال الملحد : إنما غرّهم طولُ لِحى التيوس وبياضُ ثياب المجتمعين حولهم من ضعفاء الرجال والنساء والصبيان ، وطول المدة حتى صار طبعاً وعادة » (قطعة رقم ٢ س ١ — س ٢٢) .

فى هذه الفقرة الحادّة اللهجة يفسر الرازى كيفية تعلق الناس بالأديان ويشرح تأثير رجال الدين ونصيبهم فى هذا التعلق . فهو يفسّر ظاهرة استمرار التدين بفكرة التقليد : فرجال الدين يتوارثون الدين رجلا عن رجل ، وبحكم الوراثة والاستمرار يصبح الدين قوة ذات سلطان كبير على النفوس ؛ ومن ناحية أخرى يقوم رجال الدين بصرف الناس عن امتحان هذه المعتقدات ، وذلك بتخويفهم الناس وإرهابهم ، مما يصوغونه على هيئة عبارات عامة تثنى عن التوغل فى البحث فى الأديان ، بل وتأمر بالكف عنه . وهم يحيطون هذه المسائل بالسر والتهاويل بحيث يُضْفِى عليها من الغموض والاستسرار ما يجعلها مقدسة لا يفكر إنسان فى التطاول إليها .

فكأن الرازى يعزو التدين إلى عوامل عدة :

أولها التقليد . وهو بهذا قد وضع يده على مصدر من أخطر المصادر فى نشر المعتقدات وتوكيدها واستمرارها مما سيعنى به الاجتماعيون المحدثون

وعلى رأسهم جبريل تارْد G. Tarde وجوستاف لوبون G. Le Bon .

وثانيها السلطة . إذ يتعلق رجال الدين بالسلطان ويصبح لهم خطر وشأن فى الدولة مما يسمح لهم بفرض معتقداتهم على النـاس قسراً إن لم يتيسر الإقناع .

وثالثها المظاهر الخارجية التى يتبدّى عليها القائمون بأمر الدين مما يثير الدهشة والروعة فى نفوس البسطاء من الناس : من ضعفاء الرجال والنساء والصبيان ؛ وعن طريق هؤلاء تنتشر العدوى إلى بقية طبقات المجتمع .

ورابعها طول الإلف والتعوّد والاستمرار مما يؤدى إلى تحويل المعتقدات من آراء اعتنِقت فى وقتٍ ما إلى طبيعة وغريزة . ويلوح أن الرازى قد وجه عناية خاصة إلى هذه الظاهرة النفسية ، ظاهرة تحول العادة بفضل طول المدّة إلى طبيعة ، إذ يذكر « الفهرست »[1] من بين رسائله « رسالة فى العادة وأنها تَـحَوّل طبيعة » .

ثم يعود إلى احتجاجه بالتناقض للدلالة على البطلان كما فعل فيما يتصل بالأنبياء . فيتخذ من تناقض روايات رجال الدين شاهدا على فساد أقوالهم ؛ فنراه هاهنا يلجأ إلى نفس ما لجأ إليه ابن الراوندى من الطعن فى قيمة الرواية فيما يتصل بالأحاديث والأخبار الدينية ، وكأنه إذاً إنما يتابع عين تيار نقد « التواتر » الذى يقوم عليه الجزء الأكبر من الأخبار الدينية[2] . ولو كان التواتر قائماً صحيحاً حقاً لما تناقضت الأحاديث فيما بينها فى مسائل رئيسية كمسألة خلق القرآن ومسألة القَـدَر . ويلوح مما أورده أبو حاتم أن الرازى قد استقصى هذه المسائل واحدة بعد واحدة وأخضعها لنقد شديد يقوم على

(١) « الفهرست » لابن النديم ص ٤٢٠ ، س ٩ ، طبع مصر سنة ١٩٢٩ .

(٢) راجع قبل ص ١١٩ وما يليها .

أساس المنهج التاريخى ؛ وقد كان بودنا أن نرى تفصيل أقواله فى هذه الناحية حتى نتبين مدى دقته فى استخدام منهج النقد التاريخى .

٣ — نقد الكتب المقدسة

ويوجه الرازى عناية خاصة إلى الكتب المقدسة ، فيحاول بيان فسادها بواسطة ما فيها من تناقض وإحالات . ونقده يهدف خصوصاً إلى ما فيها من تشبيه وتجسيم ، فيأخذ على التوراة والقرآن والحديث النبوى هذه الناحية . « فذكر ما فى التورية من ظاهر ما رسمه موسى عليه السلام فى ذكر البساط والخوان ووضع الشحم والشرب على النار لشمة الرب (فى الأصل : لسنة) ، وأنه عتيق الأيام فى صورة شيخ أبيض الرأس واللحية ؛ وما ذكر عن رواة الحديث وأعلام الأمة ، ونسبهم إلى الجهل ، وذكرهم بالتشنيع (فى الأصل : بالتسبيح) لرواياتهم الأخبار التى ادّعى عليها التناقض والتى تدل على التشبيه ، مثل ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « رأيتُ ربى فى أحسن صورة ، ووضع يده بين كتفىّ حتى وجدتُ بَرْدَ أنامله بين ثندوتىّ » ؛ وما فى القرآن من الآيات التى ظاهر ألفاظها يدل على التشبيه مثل قوله عز وجل : « الرحمن على العرش استوى[1] » ، وقوله : « ويحمل عرشَ ربِّك فوقهم يومئذٍ ثمانية[2] » ، وقوله : « الذين يَحْملون العرشَ ومَنْ حولَه[3] » ؛ وقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « جانب العرش على مَنْكِب إسرافيل وإنه ليئِطُّ أطيط الرَّحْل الجديد ... » (قطعة رقم ٩ س ٩ — س ٢٠) .

(١) سورة ٢٠ : ٤ .
(٢) سورة ٩٦ : ١٧ .
(٣) سورة ٤٠ : ٧

ولا يعنى الرازى هنا أن يحسب حساباً لحركة التفسير العقلى لهذه الآيات والأحاديث ، وهى الحركة التى قام بهـا المعتزلة خصوصاً فى القرنين الثانى والثالث ؛ ولعله رأى أن هذا التفسير إنما هو نوع من التأويل إنقاذاً لهذه الآيات من ظاهر ما تدل عليه مما يتنافى مع كمال الألوهية ؛ وهو كالملحد لا يعتد بالتأويل ، لأنه فى نظره ونظر أمثاله تحايلٌ لا أكثر ولا أقل ، وهم إنما يتجهون إلى الأديان كما هى فى نصوصها وكما تبدو عليه .

ولسنا ندرى إلى أى مدى قام بنقد الـكتب المقدسة الأخرى ؛ لـكن يظهر أنه حاول أن يضرب هـذه الـكتب بعضها ببعض أولاً ، ثم يفصل القول الإيجابى فى نقدها من جانبه هو . ثانياً . فهو ينقد اليهودية وآثارها عن طريق المانوية ، إذ يقول أبو حاتم عنه : « واستظهر بدعوى المانية أن موسى عليه السلام كان من رسل الشياطين . وقال : من عُنِى بذلك فليقرأ سِفر الأسفار[1] الذى للمانية ، فإنه يطلع على عجائب من قولهم فى اليهودية من لَدُن إبراهيم إلى زمان عيسى عليه السلام » (قطعة رقم ١٠ س ٧ — س ١٠) ؛ كما ينقد المسيحية -- فيما يلوح ، وإن لم يظهر فى النصوص التى بأيدينا — بما ورد فى القرآن من تحريف الإنجيل ؛ كما أنه ينقد القرآن على أساس ما ورد فيه مخالفاً لما فى المسيحية واليهودية ، فقال : « إن القرآن يخالف ما عليه اليهود والنصارى من قتل المسيح عليه السلام ، لأن اليهود والنصارى يقولون إن المسيح قُتِل وصُلِبَ ، والقرآن ينطق بأنه لم يُقتل ولم يُصْلَب وأن الله رفعه إليه » (قطعة رقم ١٢ س ٧ —

---

(١) هكذا فى الأصل والصواب : « سفر الأسرار » وهو كتاب مانى الرئيسى وفى « الفهرست » لابن النديم بيان بأبوابه (« الفهرست » ص ٤٧٠ س ٩ وما يليه ، طبع مصر سنة ١٩٢٩) .

س ٩) . فمن هذا التضارب بين الكتب المقدسة يريد أن يصل إلى هذه النتيجة وهى أنها كاذبة ، لأن التناقض بين أمثالها يؤذن بكذبها جميعاً ما دامت تدّعى أنها تعود إلى مصدر إلٰهى واحد .

ولعل أهم عناية وجهها الرازى إلى الكتب المقدسة كانت تلك المتصلة بالقرآن . فهو يقول : « قد والله تعجّبنا من قولكم إن القرآن هو مُعجِز ، وهو مملوء من التناقض ، وهو أساطير الأولين — وهى خرافات» . وهو هنا يهاجم إعجاز القرآن على نحو مشابه لما فعله ابن الراوندى ، فيهاجمه من ناحية النظم والتاليف ، كما يهاجمه من ناحية المعنى(٥) .

أما من ناحية نظم القرآن وتأليفه فإنه يقول : « إنكم تدّعون أن المعجزة قائمة موجودة — وهى القرآن — وتقولون : « من أنكر ذلك فليأت بمثله » . ثم قال (أى الرازى) : إن أردتم بمثله فى الوجوه التى يَتفاضل بها الكلامُ فعلينا أن نأتيكم بألفِ مثله من كلام البُلَغاء والفصحاء والشعراء وما هو أَطْلَقُ منه ألفاظاً ، وأشدّ اختصاراً فى المعانى ، وأبلغ أداءً وعبارةً وأشكَلُ سجعاً ؛ فإن لم ترضَوْا بذلك فإنّا نطالبكم بالمِثل الذى تطالبونا به » (قطعة رقم ١٦ س ٣ — س ٨) . والشبه واضح بين هذا القول وبين قول ابن الراوندى : إننا نجد فى كلام أكثم بن صيفى أحسن من بعض سور القرآن ، وإن كان الرازى لم يذكر بليغا بعينه . وهذا الطعن فى إعجاز القرآن من حيث النَّظْم ينقسم إلى أقسام : من حيث الألفاظ ، ومن حيث التراكيب ، ومن حيث القدرة على الأداء أى الفصاحة ، ومن حيث الموسيقى اللفظية . فيرى أن فى كتابات البلغاء ألفاظاً أكثر طلاقة ، ولعله يقصد بالطلاقة هنا السهولة وعدم التعقيد

(٥) انظر قبل ص ١٢٠ وما يليها .

اللفظى ، وهو وإن لم يُشر إلى بلغاء معينين ، فلعله يقصد الألفاظ السهلة التى يستعملها خصوصاً كاتب مثل ابن المقفع ؛ فلعله يعجب بأسلوب علمى كهذا أكثر مما يعجب بالأساليب الإنشائية ، نظراً إلى ذوقه العلمى الذى يميل إلى التدقيق والبساطة أكثر مما يميل إلى التفخيم وجلال اللفظ . وينقد تأليف القرآن ثانياً من ناحية طريقة التركيب ، أى الأسلوب بالمعنى المحدود ، فيأخذ عليه إسهابه وتطويله وتكراره ، وهو هنا أيضا يحكّم ذوقه العلمى فى الأسلوب ، ولا يعجب بالأساليب المطوّلة ذوات الفواصل المتكررة المعانى ، لذا لا ينتظر منه أن يعجب بأسلوبٍ كأسلوب الجاحظ . ثم يهاجمه من حيث البلاغة والفصاحة ، أى القدرة على أداء المعنى المقصود من أيسر طريق . ولقد كان هذا هو المثل الأعلى للبلاغة فى ذلك العصر ، خصوصاً بتأثير كتاب « الخطابة » لأرسطو وما قام حوله وتأثر به من دراسات بلاغية كما يظهر من « نقد النثر » لقدامة بن جعفر . وأخيراً يتطرق الرازى إلى الناحية الموسيقية فى نظم القرآن فيقول إن فى كلام البلغاء ما هو أشكل منه سجْعاً ، و« أشكل » هنا بمعنى « أنضج » أى من شأنه أن يكون أكثر موسيقيةً . وهذا إما بأن تكون الكلمات المسجوعة أقرب فى تشابه حروفها الأخيرة ، ولعله لاحظ هنا اعتماد القرآن على الحروف المتقاربة دون المتساوية فى بعض الأسجاع ؛ وإما أن يكون السجع أقرب إلى العفو والطبيعة بحيث لا يشعر المرء بأنه مقصود إليه أو مُعتَسف .

أما من حيث المعنى فقد هاجم القرآن من عدة نواحٍ تختلف عن تلك التى هاجمه منها ابن الراوندى . ولا عجب فابن الراوندى كان يجول فى محيط كلامى دينى ، لهذا تركّز نقده فى هذه النواحى ؛ أما الرازى فقد كان يجول فى جوّ علمى . وهذه النواحى التى هاجم منها الرازى هى أولا أن القرآن

مملوء بأساطير الأولين ؛ وثانياً أن فيه تناقضاً بين بعض أجزائه وبعض ؛ وثالثاً أنه لا توجد فيه فائدة . قال الرازى : « قد والله تعجبنا من قولهم فى حكاية أساطير الأولين ، مملوءً مع ذلك تناقضاً ، من غير أن تكون فيه فائدة أو بيّنة على شىء » (قطعة رقم ١٦ س ٨ — س ١٠) .

وفيما يتصل بالناحية الأولى لا نجد فى النصوص التى بين أيدينا ما يفصّل القول فيها ؛ لكن يمكن افتراض أن نقده هنا إنما سحبه من التوراة على القرآن ؛ فبعد أن بيّن أن الأقوال الواردة فى التوراة أسطورية ، قال إنها هى التى رددها القرآن ، فهو الآخر مملوء بأساطير الأولين التى هى خرافات (قطعة رقم ١١ س ٢) . ونقده للتوراة كان فيما يتصل بنبوءات النبى دانيال خصوصاً ، كما يذكر أبو حاتم . وكم كان بودنا أن نعرف كيف قام الرازى بهذا النقد التاريخى ، كيما نطلّع على هذه الناحية من نواحى نشاطه العقلى .

ولقد بيّنا من قبلُ الناحية الثانية من هذا النقد ، ونعنى ما أشار الرازى إليه من تناقض فى القرآن ، وذلك يتصل خصوصاً بمسألة التجسيم والتشبيه وما يخالف هذا من نعت القرآن لله بأنه « ليس كمثله شىء » (سورة ٤٢ : ٩) ، ثم الآيات المتصلة بالجبر والأخرى التى تقول بالاختيار . ولعل الرازى قد استقى هذه المسائل من كتب الكلام نفسها .

والناحية الثالثة هى التى يوجه إليها الرازى كامل عنايته ، على الأقل فيما يبدو من النصوص التى لدينا . فهو يريد أولا أن يرد على الخصم حجته ، هذا الخصم يقول : « من أنكر ذلك (أى إعجاز القرآن) فليأت بمثله » ؛ فيقول الرازى : ونحن نقول لكم كذلك ائتونا بمثل ما فى كتاب أصول الهندسة والمجسطى وغيرها . قال الرازى : « إنا نطالبكم بالمثل الذى تزعمون أنّا لا نقدر أن نأتى به » ؛ وهو بهذا التحدى يشير إلى أن الحجة نفسها ترتد

على الخصم ، فليس فى وسع إنسان أن يأتى تماماً بما أتى به آخر .

وهو يريد ثانياً أن يبين أن هذه الكتب العلمية وأمثالها أكبر فائدة ونفعاً من القرآن والكتب الدينية عامة، لأن فى الأولى من العلم ما فيه فائدة للناس فى معاشهم وأحوال دنياهم ، بينما القرآن (وكذلك الكتب الدينية الأخرى) لا تفيد شيئاً . فإن كان لا بد من التحدث عن الإعجاز والحجة ، فالأولى بهما أن يُعزَيا إلى مثل هذه الكتب النافعة . قال الرازى : « وأيم الله لو وجب أن يكون كتابٌ حجةً ، لكانت كتب أصول الهندسة ، والمَجِسْطى الذى يؤدى إلى معرفة حركات الأفلاك والكواكب ، ونحو كتب المنطق ، وكتب الطب الذى فيه علوم مصلحة للأبدان — أولى بالحجة مما لا يفيد نفعاً ولا ضراً ولا يكشف مستوراً ، يعنى به القرآن العظيم . وقال أيضاً : ومن ذا يعجز عن تأويل الخرافات بلا بيان ولا برهان إلا دعاوى أن ذلك حجة ؟ وهذا باب إذا دعا إليه الخصمُ سلّمناه وتركناه وما قد حلّ به من سُكر الهوى والغفلة مع ما إنّا نأتيه بأفضل منه من الشعر الجيد والخطب البليغة والرسائل البديعة مما هو أفصح وأطلقُ وأسجع منه . وهذه معانى تفاضُل الكلام فى ذاته ، فأما تفاضل الكلام على الكتاب فلأمور كثيرة فيها منافع كثيرة ، وليس فى القرآن شىء من ذلك الفضل ، إنما هو فى باب الكلام ، والقرآن خلو من هذه التى ذكرناها » (قطعة رقم ١٧ س ١ — س ١١)

فنقد الرازى هنا يتجه إذاً إلى بيان ما فى الكتب العلمية من نفع لصلاح معاش الناس فى دنياهم ، بينما لا يوجد فى الكتب الدينية شىء ، فهى أكثر فائدة إذاً من الكتب الدينية . وهنا نشاهد فى رد أبى حاتم على أبى بكر الرازى صاحبنا تلك الظاهرةَ التى نجدها فى العالم الأوربى

اليهودى والمسيحى ، خصوصاً عند فيلون اليهودى والقديس أوغسطين فى « مدينة الله » وعند روجر بيكون؛ ونعنى بهذه الظاهرة نسبة العلوم التى اكتشفت إلى وحى الله على لسان الأنبياء ، وما العلماء والفلاسفة إلا آخذون متلقون عن هؤلاء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم هذه العلوم .

فبينما الرازى يقول : « إن الفلاسفة استدركوا هذه العلوم بآرائهم واستنبطوها بدقة نظرهم وألهموا ذلك بلطافة طبعهم — يعنى ما فى كتب الطب من معرفة طبائع العقاقير والخصوصيات التى فيها ، وما فى المجسطى وبطلميوس من معرفة حركات الفلك والكواكب وحساب النجوم وما فيه من اللطائف والأحكام ، وما فى إقليدس من علم الهندسة والمساحات ، ومعرفة مقدار عرض الأرض وطولها ومسافة ما بين السموات وغير ذلك مما فى هذه الكتب ، فزعم الملحد (أى الرازى) أن ذلك كله باستنباط وإلهام ، وأنهم استغنوا عن أئمتنا فى ذلك ، يعنى الأنبياء عليهم السلام . ثم افتخر وقال : إن نفعها وضرها أكثر من نفع كتب الشرائع وضرها ؛ وتحجج بذلك . ثم قال : أخبرونا أين ما دلت عليه أئمتكم من التفرقة بين السموم والأغذية ، وأفعال العقاقير ؟ أرونا منه ورقة واحدة كما نُقِل عن بقراط وجالينوس الألفُ لا الآحاد (أى من الأوراق) ، وقد نفع الناس ؟ وأرونا شيئاً من علوم حركات الفلك وعِلَله نُقل عن رجل من أئمتكم أو شيئاً من الطبائع اللطيفة الطريفة نحو الهندسة وغير ذلك من أمر اللغات ، لم تكن معروفه ، اخترعها أئمتكم ؟ ثم قال : إن قلتم إن هذا كله أُخذ أصله من أئمتنا ، قلنا : هذه دعوى غير صحيحة ولا مسلّمة لكم ، وإنّما لنعرف ما تدّعون أنه من أئمتكم ، وهو الضعف الوتِحُ (أى القليل التافه الخسيس) الذى شاع ذكره فى عوامّ الناس وخواصّهم . ثم قال : فإن قلتم :

فمن أين عرف الناسُ أفعالَ العقاقير فى الأبدان وحركة الفلك ، وبأى لغةٍ تدعى إلى اختراع اللغات ؟ فإن لنا فى ذلك أقاويلَ تستغنى عن أئمتكم : فمنها ما تكون مستخرجة على رسومها المعروفة المشهورة عند أهلها كالأرصاد للنجوم ومعرفة أفعال العقاقير فى الأبدان ومعرفة قوامها بالطعوم والأراييح ؛ ومنها ما أُخذت أولاً عن أولٍ إلى نهاية الزمان ؛ ومنها أن تكون معرفتها بالطبع كما يُحسِن الإوزّ السباحة من غير تعليم من أئمتكم ويدحض الاحتجاج الذى احتججتم به »[1] — بينما يقول الرازى هذا مفسِّراً كيفية نشأة العلوم نرى أبا حاتم يرد عليه قائلا : « وأما هذه الكتب التى ذكرها وذكر أنها (نقلت) عن أئمتهم (أى الفلاسفة والعلماء) فإنا نقول : إنها من رسوم الحكماء الصادقين المؤيَّدين من الله (ع ج) ، وليس اسم أئمتهم فيها إلا عارية . وهذه الأسماء التى نُسبت هذه الكتب إليها مثل جالينوس وبقراط وإقليدس وبطلميوس وغير ذلك مما يشاكلها فهى أسماء كُنى بها عن أسماء الحكماء الذين وضعوا هذه الكتب ، وهذه الكتب هى مبنية على الحكمة الصحيحة والأصول المنتظمة . وقد كنت ناظرت الملحد (أى الرازى) على أشياء هى فى كتاب بَلِيناس ، وقد ذُكِرَ لنا أن صاحب هذا هذا الكتاب مُحدَث وأنه كان فى هذه الشريعة (أى الإسلام) وتسمى بهذا الاسم ووضع هذا الكتاب ـ وقد ذكرنا شيئا من كلامه والأمثال التى ضربها فى كتابه ـ . فذاكرتُ الملحد بذلك فقال : هذا هو صحيح وقد عرفناه ، واسم هذا الرجل فلان ، وكان فى أيام المأمون وكان حكيما متفلسفاً . وهكذا كنا سمعناه من غيره . فهذا الرجل سلك سبيل أولئك الحكماء والقدماء ، وتسمى بهذا الاسم الذى يشاكل تلك الأسماء ، وكلامه

---

(١) قطعة رقم ١٩ س ٤ — س ٢٧ .

من ذلك النوع ، ولكنه قد جوّد القول فى التوحيد وردّ على أصحاب الاثنين وسائر الملحدين . . وهكذا كان سبيلُ سائر الحكماء الذين تسموّا بهذه الأسماء » (قطعة رقم ٢٠ س ١ — س ١٧) .

من هذا الاقتباس الطويل[1] يتبين لنا أن الرازى يرى أن العلوم إنما استخرجها الفلاسفة والعلماء بعقولهم ، وهى كافية لتحصيلها كما روينا من قبل فى وصفه للعقل ؛ ولا حاجة إلى الأنبياء من أجل هذا التحصيل ؛ كما أنه لم يرد عن الأنبياء شىء فى هذا الباب . ثم يوضح طرق تحصيل العلم فيردها إلى ثلاثة : التحصيل العقلى وفقاً لقواعد البحث والبرهان المعروفة ؛ والنقل من السلف إلى الخلف وهكذا إلى غير نهاية ابالرواية الصحيحة كما هى فى علم التاريخ ؛ والفطرة والغريزة اللتان بهما يدرك الإنسان ما يحتاج إليه فى معاشه وبقائه دون معلم ولا إعمال ذهن ولا تلقين من رواة . ولقد كان الرازى موفقاً حقاً فى حصر طرق العلم هذه وإن كان لم يأت فيها بجديد غير ما هو معروف فى مقدمات الكتب المنطقية ، فيما عدا الطريق الثانى ، طريق الرواية التاريخية . وعلى العكس من هذا نرى أبا حاتم الرازى يعنى برد هذه العلوم والمعارف كلها إلى الأنبياء والأئمة ؛ وقد كان واجباً عليه أن يقف هذا الموقف لأنه إسماعيلى ، وقد رأينا نظرية الإسماعيلية فى التعليم وكيف أنها ترد العلوم كلها إلى الأئمة المعصومين ؛ فكان طبيعياً أن يناضل عن هذا الرأى . والطريف حقاً هو تفسيره لنسبة هذه العلوم المعروفة إلى أمثال جالينوس وإقليدس وبقراط وبطلميوس ؛ فهو يزعم أن هذه الأسماء ما هى إلا أسماء مستعارة « كُنى بها عن أسماء الحكماء الذين وضعوا هذه

---

(١) أطلنا فى الاقتباس لأن النص المنشور فى مجلة أورينتاليا من الصعب الحصول عليه .

الـكتب ، وهذه الـكتب هى مبنية على الحـكمة الصحيحة والأصـول المنتظمة » ، أى على الوحى الذى تلقاه الأنبياء عن الله ، ويضرب لهذا مثلا بما جرى لـكتاب بلنياس[1] من أن مؤلفه رجل محدث كان فى عهد المأمون وأنه ألف الـكتاب ونسبه إلى اسم بلنياس ، مستعيراً هذا الاسم ؛ وكذلك فإن الأسماء المذكورة على أنها أسماء مؤلفى تلك الـكتب العلمية هى أسماء مستعارة ، والواقع أن الـكتب للأنبياء ومأخوذة عما تلقوه من وحى .

وهذا التفسير بعينه هو الذى نجد نظيره عند فيلون[2] وأوغسطين وروجر بيكون ، وهو الموقف الدينى الذى لا بد أن يقفه رجل الدين فى دفاعه عن حكمة الأديان ضد حكمة العلماء الدنيويين . لذا لم يكن غريباً أن نجد تشابهاً كاملا فى الموقفين بين العالم اليهودى والعالم المسيحى والعـالم الإسلامى ؛ وأكَّد هـذه الظاهرة فى الإسلام مذهبُ الاسماعيلية بما تقتضيه نظرياته فى الإمام المعصوم والتعليم . وهذا هو الأصل فيما نجده فى كتب تواريخ العلماء والحـكماء فى الإسلام من نسبة بعض العلوم إلى الأنبياء مثل إدريس الذى يقـال إنه هرمس[3] . ولعلنا نعود إلى تفصيل هذه الظاهرة فى الإسلام ونتابع تطورها فى فرصة أخرى ، مكتفين هنا بتسجيلها فحسب .

والرازى يثير أيضاً على هامش تلك المسألة العامة فى نقد القرآن والـكتب

---

(١) راجع فيما يتصل بهذه الفقرة ما قاله كروس فى : «جابر بن حيان» جـ ٢ ص ٢٧٤ — ص ٢٧٥ ، القاهرة سنة١٩٤٢ P. Kraus : *Jabir ibn Ḥayyān* انظر المقال السالف عن جابر ص ١٨٩ وما يليها .

(٢) راجع كتابنا : « خريف الفـكر اليونانى » ص ١٢٧ ، القـاهرة سنه ١٩٤٣ .

(٣) انظر ابن القفطى : « إخبار العلماء بأخبار الحـكماء » ص ٢ وما يليها ، طبع مصر سنة ١٣٢٦ هـ = سنة ١٩٠٨ .

المقدسة مسألة اللغات وكيف نشأت وقد رأيناها مفصّلة بعض التفصيل فى مقال كِرَوْس عن ابن الراوندى (ص ١٣٢ — ص ١٣٦) وعرفنا قول الرازى وما يثيره من مسائل ، فلا داعى إلى العَوْد .

ومن هـذا كله يتبين لنا أن الرازى فى نقده للقرآن من حيث المعنى قد عُنِى خصوصاً ببيان ما فيه من فوائد تتصل بأحوال الناس فى حاجاتهم ومعاشهم ، وعارضها بما فى كتب العلماء والحكماء من فوائد أجزل وأكبر . فكأنه يقف نفس الموقف الذى نشاهده لدى الملحدين من العلماء فى العصر الحديث وبخاصة فى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ؛ وفى وسع المرء أن يعقد مقارنات طريفة بين هذا الموقف وموقف مفكر حر آخر مثل ڤولتير : فكلاهما مؤمن بالعقل ومؤمن بالألوهية ؛ وكلاهما كافر بالأنبياء والأديان الوضعية على اختلافها ؛ وكلاهما كان متشائماً يرى الشر فى الوجود أكثر من الخير : أما ڤولتير فقد عبّر عن رأيه هذا مراراً خصوصاً فى قصيدته التى نظمها عن « زلزال لشبونة » ؛ أما الرازى فرأيه هذا مثبوت فى كتبه خصوصاً فى مواضع متفرقة من « الطب الروحانى » ومقالته فى اللذة بعنوان « كتاب اللذة » ، وكذلك فى كتاب « العلم الإلـٰهى » إذ يذكر موسى بن ميمون فى « دلالة الحائرين » (جـ ٣ ف ١٢ ؛ جـ ٣ ص ١٨ من طبعة منك ، باريس سنة ١٨٣٦ . انظر : « رسائل فلسفية لأبى بكر الرازى » ، نشرة كروس ، ص ١٧٩ — ص ١٨٠) أن « للرازى كتاباً مشهوراً وسمه بالإلـٰهيات ضمّنه من هذياناته وجهالاته عظائم ، ومن جملتها غرض ارتكبه : وهو أن الشرّ فى الوجود أكثر من الخير ، وأنك إذا قايست بين راحة الإنسان ولذاته فى مدة راحته ، مع ما يصيبه من الآلام والأوجاع الصعبة والعاهات والزّمانات والأنكاد والأحزان والنكبات —

فتجد أن وجوده — يعني الإنسان — نقمة وشر عظيم طُلب به . وأَخَذ أن يصحح هذا الرأى باستقراء هذه البلايا ليقاوم كلَّ ما يزعم أهل الحق من إفضال الإلٰه وجودِه البيّن وكونه تعالى الخير المحض ، وكل ما يصور فيه خير محضٌ بلا شك » . وهو قول يشبه تماماً قول بيرن : « عُدَّ ساعات سرورك ، وعُدَّ أيامك الخوالى من البلبال ، فأيًّا ما كنتَ ، اعترف بأن ثمت ماهو أحسن منه — هو أن لاتوجد »[١] . وقد بسط الرازى آراءه فى شقاء الدنيا من هذه الناحية فى فلسفته فى اللذة والألم التى عرضها فى كثير من مقالاته وكتبه . بيد أننا لا نستطيع الجزم بموقف الرازى من العناية الإلٰهية ؛ وذلك لأننا نراه يؤمن بوجود خالق حكيم ، إذ له كتاب بهذا العنوان هو « كتاب أن للإنسان خالقاً حكيما » (« الفهرست » لابن النديم ص ٤١٦ س ١٨ من الطبعة المصرية سنة ١٩٢٩) ، ثم نراه يقول هذا صراحة فى مناظرته مع أبى حاتم[٢] ويشير إليه فى مواضع متفرقة ، مما يدل على أنه كان فعلا يؤمن بوجود خالق حكيم ؛ ولكننا لا نستطيع أن نؤكد : أكان الرازى يدخل العناية الإلٰهية ضمن حكمة الله أم كان يخرجها منها بحسبان الحكمة لا تقتضى بالضرورة العناية ، أو على الأقل العناية الجزئية الخاصة ببنى الإنسان ؟ ولو كان لنا أن نرجّح لقلنا إن مجرى تفكيره العام يفضى به إلى إنكار العناية الإلٰهية .

٤ — خاتمة

وبالجملة كان الرازى ممن ينكرون النبوات للأسباب التى فصّلناها فى

(١) راجع كتابنا : « شوبنهور » ص ٢٠٨ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

(٢) « رسائل فلسفية للرازى » : ص ٢٩٥ س ١٤ — س ١٥ .

أول هذا البحث ؛ ويرى أن العقل الإنسانى كفيل وحده بهداية الإنسان إلى السبيل القويم فى حياته ؛ وما دام كذلك فإن مبدأ الاقتصاد فى الفكر والتقدير يدعو إلى إنكار النبوة ، لذا يقول : «أخبرونا هل يكون مصيباً من وجد إلى أمر طريقين فسلك الأطولَ منهما والأوعر ؟ وهل يكون مسدداً للأفضل والأصلح من يجد إلى تعريف شئ من وجهين سبيلاً ، فيعرّفه من أعسرهما وأبعدهما وأكثرهما ريباً وشكوكا وجَلْباً لسوء العواقب ، ويدع ما خالف هذه الوجوه ؟ فإن قلتم : لا ، قلنا : فهلاّ ألهم اللهُ عبادَه معرفة منافعهم ومضارّهم فى عاجلهم وآجلهم ، وترَكَ احتياج بعضهم إلى بعض ؟ فإنا نرى ذلك قد أهلك كثيراً من الناس وأدخل عليهم أعظم البلاء فى عاجلهم بالعيان ، وفى آجلهم . أما فى عاجلهم فلتصديق كلٍّ أمة إمامَها وضربِ بعضهم وجوهَ بعضٍ بالسيف واجتهادهم فى ذلك » . (قطعة رقم ١٤ س ١ — س ٩) . فكأن الخير والحكمة كانا يقتضيان عدم إرسال الأنبياء حتى لا تقع الفُرقة بين الناس ، ولعله هنا يريد أن يعارض الآية : «ولوشاء الله لجعلكم أمةً واحدةً» (سورة ٥ : ٥٣) ؛ إذ « لولا ما انعقد بين الناس من أسباب الديانات لسقطت المجاذبات والمحاربات والبلايا ، لأن المنازعات تقع إما لعاجل أو لآجل . وأورد كلاماً طويلاً فى هذا الباب ؛ ولكن هذه جملته » (قطعة رقم ١٤ س ٩ — س ١١) ؛ وكنا نود أن نرى هذا الكلام بالتفصيل ، لنرى إلى أى حد حاول أن يرد على من يؤيدون النبوات لأسباب اجتماعية مصلحية ذاكرين ما يعود على الناس من فوائد فى جماعتهم إن اعتنقوا الأديان وتمسكوا بأوامرها ونواهيها . وهو بهذا لم يدع وجهاً من أوجه الدفاع عن النبوة إلا هاجمه أو أخضعه لنقد صارم ، خصوصاً هذه الناحية المصلحية البرجمتية التى تضاف

إلى النبوة حتى مع افتراض عدم صحتها من الناحية النظرية ، وكأن هذه الفوائد العملية التى تترتب عليها تغنى عن البحث فى صحتها من الناحية النظرية . ويلوح أنه تناول طويلاً هذه الناحية إذ نراه بعد هذا يرد على معترض ينسب هذا التنازع وتلك المحاربات إلى الناس المعتنقين للديانات ، لا إلى الديانات نفسها ، فيقول : « إن قلتم إن المجاذبات والمحاربات من أجل إيثارهم أعراض الدنيا ، قلنا لكم : هل رأيتم أحداً آثر القليل على الكثير إلا لشك منه فى نيل الكثير ؟ فإن قلتم : نعم ، كابرتم ؛ وإن قلتم : لا ، فكذلك إيثار المؤثر لأعراض الدنيا وشهواتها على الأمور الجليلة والثواب العظيم القدر الذى يعجز الواصفون عنه ، — ليس ذلك إلا لشك منه فى نيل ذلك الكثير العظيم الدائم الذى يعجز الواصفون عنه (لاحظ ما هنا من تهكم !) ، كما نرى الرجل يؤثر المائة الدينار على الألف إذا خاف فوت المائة والألف ، وإذا كان مستيقناً أنه يصل إلى الألف مع ترك المائة فإنه لا يرى أخذ المائة . قال : وكذلك لو أن الناس أخلصوا اليقين بقول أئمتكم فيما وعدوهم من الثواب الجزيل لما آثروا القليل من عاجلهم على الكثير من آجلهم » (القطعة نفسها ، س ١٢ — س ٢١) . وعلى هذا فإن الرازى يرى أنه حتى من الناحية العملية — البرجمتية — لا فائدة فى النبوات والأديان ؛ فإن أضفت هذا إلى بطلان النبوة من الناحية النظرية ، ثبت — فى رأيه — فساد النبوة إطلاقا .

الرازى إذاً يؤمن بإله خالق حكيم ، ولكنه لا يؤمن بالنبوة والأديان ، وينزع نزعة فكرية حرة من كل آثار للتقليد أو العدوى ؛ ويؤكد حقوق العقل وسلطانه الذى لا يحده شىء ؛ وينحو منحى تنويرياً شبيهاً كل الشبه بحركة التنوير عند السوفسطائيين اليونانيين ، وخصوصاً بحركة

التنوير[1] فى العصر الحديث فى القرن الثامن عشر ؛ ويدعو إلى إيجاد نزعة إنسانية خالصة خالطتها روح وثنية حرة ؛ مما يجعل من الرازى شخصية فكرية من الطراز الأول ، وواحداً من أحرار العقول النادرين فى التاريخ ، ومن أجرأ المفكرين الذين عرفتهم الإنسانية طوال تاريخها ؛ ولا يسع المرء إلا أن يمتلئ إعجاباً بهذا الجو الطليق الذى هيأه الإسلام للفكر فى ذلك العصر ؛ مما يدل على ما كان عليه العقل الإسلامى فى ذلك العصر من خصب ونضوج .

أترى يتحقق مثل هذا الجو مرة أخرى فى حضارتنا العربية التى نأمل فى إيجادها ؟

---

(١) راجع وصفها وخصائصها فى كتابنا : « نيتشه » ص ١١١ وما يليها ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٤٥ .

فهرس الأعلام*

---

* يلاحظ أننا لم نعتبر « أبو » ولا « ابن » ؛ كما أن الأرقام الموضوع تحتها خط تشير إلى المواضع المهمة عن الشخص المذكور .

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(هـ)

(و)

(ى)

جدول الأخطاء المطبعية

ص	س	خطأ	صواب
١٥	١٢	شجرة	شوكة
١٦	٣	تعتبر	تعدّ
٢٣	١٣	نطوره	تطوره
٢٦	٨	عنهم	عنه
٢٧	٥ من أسفل	ص ... ص ...	ص ٤٠ وما يليها، ص ٧٥ وما يليها
٢٩	السطر الأخير	ge	âge
٣١	٣	الدسّ	الدسّ
	٤	يقل	يقتل
٣٢	٤ من أسفل	بن محمد	بين محمد
٣٤	٨	رغية	رغبة
	١٧	البعث	العبث
٣٧	١٦	إبان	أبان
٣٨	١٦	جوهريين	جوهرين
٤٠	٣ من أسفل	Le opere	L'opera
٦٦	١٣	يعد	بعد
٦٨	٩	ما	« ما
٦٩	٢	ابن	ابن أبي
	١٠	اسمه	اسم
	١٣	يعتبرها	يعدّها
٧٧	السطر الأخير	p.	p. 1
٧٩	٥	والآحاد والأفراد	الآحاد الأفراد ـ
٨٠	١	صلى	وصلى
	٢	دريئة	ذرية
	١٤	نص	فص

ص	س	خطأ	صواب
٨١	٢	المسكون	المُكَمن
	١٠	نضييق	تضييق* (وفى الهامش يكتب: ص ٦٦)
	١٢	عوذاً	عوناً (وبحذف الترقيم الذى بالهامش)
	١٨	< >	يحذفان
٨٢	١٣	محمد ...	محمد الشافع فى أمته يوم الدين ؛ وعلى صنوه ابن عم الرسول ، وزوج البتول ، على ...
٨٣	٩	دون	دَرَن
	١٥	الله*	*الله
٨٤	٢	جوهرة	جوهره
	١٣	تحمل	تحمل
	١٥	كسبهما	كسبها
		منهما	منها
٨٥	١٨	ختام	الختام
		بن أبى طالب الهمام	بن أبى طالب ضرّاب الهامّ
٨٦	٨	الأجاجيد	الأجاويد
٨٧	١٠	مجراها	مجراها
٨٩	٦	الملحدة	الملاحدة
٩٠	٤	غير متضمنة	غير ما تضمنته
	١٤	توضع النجمة بعد « إلى »	
	١٥	الشرذمة	رد الشرذمة
٩١	٥	الارتكاص	الارتكاض
٩٣	١٢	على	عن
٩٤	٥	أنه	إنه
٩٦	س ٢ من أسفل	س ص	س ٥ ص ٩٦ (أصلح فى بعض النسخ)
	س ٣ »	س ص	س ٨ ص ٩٧
	س ٤ »	س ص	س ٦ ص ٩٧
٩٧	١٨	كان	كانت

ص	س	خطأ	صواب
٩٨	١٧	مختلط	مختلف
٩٩	١	شذرات	٤ — شذرات
١٠٠	السطر الأخير	انظر الثامن من مبدئه	انظر مستهل الفصل التاسع
١٠١	٦ من أسفل	ص ١١٦	ص ١١٤ تعليق ١
١٠٢	١٣	غُسْلُ	غُسْلِ
١٠٣	السطر الأخير	ص ٩	ص ١٢١
١٠٦	٩	مقلولى	مفلولى
١١١	٣ من أسفل	يستعبدودن	يستعبدون
١١٢	٩	٣ —	٤ —
١١٧	١٠	كتابنا	فى كتابنا
١١٩	٨ من أسفل	الشيق	الشائق ، وكذلك أينما وجد
١٢٢	السطر الأخير	ص ١١٤	ص ١٠٤
١٢٣	١١	القهرة	القاهرة
١٣٦	٨	ذكرى	ذكر
١٤٠	٢	بين	تحذف
	٢٤	لعله	بالبوذيين — لعله
	٢٥	التصحيح	البيان
١٤٤	١٧	السِتّ	السِتَّ
١٤٩	١٥	رليس	وليس
	٨	Frnnz	Franz
١٦١	٤ من أسفل	foïr.	für Gesch. d. Philos.
١٧٣	٧	وقوم	— وقوم
١٧٦	٣ من أسفل	الأدبية	لنقد الكتب
١٧٧	٤ من أسفل	ابن التاج	ابن القارح
١٨١	٤ من أسفل	فى سنة	تحذف

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوى

ا — مبتكرات

الزمان الوجودى

هموم الشباب

ب — دراسات أوربية

الموت والعبقرية

خلاصة الفكر الأوربى

ظهر منها :

١ — نيتشه	(الطبعة الثانية)	٥ — أرسطو	(الطبعة الثانية)
٢ — اشپنجلر	(« «)	٦ — ربيع الفكر اليونانى	(« «)
٣ — شوپنهور	(« «)	٧ — خريف الفكر اليونانى	(« «)
٤ — أفلاطون	(« «)		

حـ — دراسات اسلامية

١ — التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (فى جزئين)

٢ — من تاريخ الإلحاد فى الإسلام

ء — ترجمات

الروائع المائة — ظهر منها :

١ — أيشندورف : من حياة حائر بائر ٣ — جيته : الديوان الشرقى

٢ — فوكيه : أندين ٤ — بيرن : أسفار اتشيلد هارولد

٥ — جيته : الأنساب المختارة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر